التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك

د. شوقي عبد القوى عثمان



المجلس الأعلى للثقافة

التجارة بين مصر وأفريقيا

فى عصر سلاطين المماليك

(١٢٥٠ - ١٥١٧ م)
٦٤٨ - ٩٢٢هـ

تأليف

د . شوقى عبد القوى عثمان حبيب



٢٠٠٠

إهـــــــداء

إلى من ربيانى صغيرا وعنيا بى كبيرا

إلى روح والدى رحمه الله

وإلى والدتى أثابها الله .

إلى كل من ضحى بدمه فى سبيل

هذا الوطن أضع قطرة فى بحره .

إلى كل من علمنى وعلم غيرى حرفا

انحنى إكراما وتبجيلا .

المحتويات

مقدمـــة

يعد التاريخ التجارى أو الاقتصادى بمفهومنا الحديث فى مقدمة الموضوعات الجديرة بالدراسة، لما للتجارة من دور هام فى تسيير أمور السياسة الخارجية والداخلية فى مختلف دول العالم .

وإذا كانت صورة التأثير التجارى واضحة المعالم فى العصر الحديث لما للدراسات المتطورة والبيانات الاحصائية من أثر فان الدراسة الواعية للتاريخ تبين بوضوح مدى هذا التأثير فى العصور القديمة والإسلامية والوسطى .

ونخص بالذكر العصور الوسطى بصفة خاصة، حيث فاقت أهمية التجارة فيها أهميتها فى أى عصر آخر لما كانت تحمله معها من تيارات دينية وثقافية وعادات وتقاليد مما تقصر التجارة فى العصر الحديث عن القيام به .

فها هو الدين الإسلامى يتبع فى انتشاره التجار أينما حلوا بحيث انتشر فى مناطق لم تصل إليها جيوش المسلمين أو هجراتهم مثل جنوب شرق آسيا وبعض أجزاء من شرق أفريقيا فضلا عن عدة جهات فى قارة أوربا .

ويبدو دور مصر فى النشاط التجارى العالمى بارزا فى مختلف عصور التاريخ نظرا لما تتمتع به من موقع ممتاز بين الشرق والغرب حيث تبدو كما لو كانت تمد يدا نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب، وهى بعد هذا كله توشك أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر مختلفه بحيث صارت مجمعا لمعالم شتى فمصر هى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى [1].

---

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، ص٦-٧ .

ويقول المقدسي عن قطر مصر أنه «قد وضعه الله بين البحرين وأعلى ذكره في الخافقين حسبك أن الشام على جلالتها رستاق[1] والحجاز مع أهلها عياله وقيل أنه الربوة وأن نهره يجري عسلا في الجنة» [2].

والحق أن دور مصر في أفريقيا من الناحية الحضارية بمفهومها الشامل ظل دورا مؤثرا وفعالا بصورة لانجد لها نظيرا فيما يتعلق بدور بلد من البلدان في تاريخ القارة التي ينتمي إليها هذا البلد. وإذا كان هناك بلد منفرد في أفريقيا أعطى القارة وأثر فيها أكثر مما تأثرت قبل العصر الأوربي فمصر هي هذا البلد وشواهد الحال تثبت أن الكثير من حضارة أفريقيا مأخوذ جزئيا من حضارة مصر ومعظم اسلام القارة أتى عن طريق مصر ومن ناحية أخرى فان أفريقيا القارة المظلومة التي يصفها بعض الباحثين بأنها حضاريا أكثر القارات تأخرا وتخلفا قبل انتارتيكا لاتجد بين جنباتها وبناتها أكثر من مصر ترد به هذا الاتهام ، فهي أم التاريخ في قارة قيل عنها أنها بلا تاريخ [3].

ولقد تعددت الصلات والعلاقات بين مصر وأفريقيا، في شتى المناحي خلال العصور المختلفة وبالذات في العصر المملوكي فمن علاقات تجارية إلى روابط ثقافية إلى مرور قوافل الحجاج بمصر في طريقها إلى بيت الله الحرام إلى تبادل السفارات والرسائل. وكانت مصر من خلال كل هذه الصلات والعلاقات تشع نورا يضيء لأفريقيا .

والمعروف أن مصر كانت فصلا في تاريخ كل دين سماوي. فعلى أرضها كلم الله تعالى موسى عليه السلام وبعثه لهداية العالمين وأقبل عليها يسوع عليه السلام في المهد وكانت أسبق المؤمنين بدعوته ثم صارت- من بعد- حصن الإسلام ومعقله الحصين [4]. ومنها انطلقت دعوته إلى أرجاء القارة المختلفة فضلا عن أن أزهرها كان أقدم جامعة في العالم وكان يمثل وقتئذ منارا للثقافة ومهادا للوافدين كما أن كنيستها هي الكنيسة الأم لكنيسة الحبشة ومن خلال هذا كله كانت مصر رائدة وقائدة لأفريقيا في مختلف النواحي الروحية والثقافية والاقتصادية.

---

(١) رستاق وجمعه رساتيق وهي القرية أو البلاد أو الأعمال. واللفظ فارسي ومنه بالعربية رذداق وجمعه رذاديق . سعيد عاشور ، العصر المماليكي ، ص٤١٩ .

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٩٣ .

(٣) جمال حمدان ، شخصية مصر ، ص٤٢٢ .

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف ، مصر في القرآن ، ص١١ .

ولقد اخترت موضوع العلاقات التجارية بين مصر وأفريقيا نظرا لحيوته وأهميته ، واعتقد أن تلك الحيوية والأهمية لم تتغير فى عصرنا الحديث بل ازدادت وأصبح من الأهمية بمكان أن نوثق عرى العلاقات التجارية مع دول القارة حيث تقود المصالح التجارية المتبادلة السفينة فى طريق واحد.

وقد نبعت أهمية العلاقات التجارية بين مصر والقارة من أن مصر كانت المعبر الرئيسى الذى تصل عن طريقه تجارة أفريقيا إلى أسواق أوربا. والواقع أن مصر فى تلك العصور لم تكن معبرا لتجارة أفريقيا فحسب بل للتجارة الآسيوية وعلى عكس هذا فيما يتعلق بالتجارة الأوربية وقد حرصت مصر على الاستئثار بالدور الرئيسى فى التجارة العالمية فمنعت تجار أوروبا من الاتصال بأسواق آسيا أو أفريقيا مباشرة وكان أبعد مكان يصل إليه هؤلاء التجار هو القاهرة .

ونظرا لأن الموضوع الاقتصادى يعتمد أساسا على الإحصائيات وكان لإفتقار العصر الذى تدور حوله هذه الدراسة لهذه الإحصائيات أثر فى المنهج الذى اتخذ حيث لم أراع التسلسل الزمنى بقدر ما راعيت وحدة الموضوع وذلك لأنه لم توجد فى تلك العصور احصائيات سنوية عن التجارة الصادرة والواردة من بلد لآخر، كما أن التجارة لم تحظ بفصل مستقل فى مؤلفات المؤرخين والجغرافيين بل كان يأتى الكلام عنها عرضا وعلى الباحث أن يستخلص ما يهمه من بين السطور. لذلك آثرت الالتزام بالموضوع باعتباره وحدة منفردة دون التقيد بالتسلسل الزمنى.

وفى الختام ارجو من الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت والله الموفق والمستعان.

الفصل الأول

أثر موقع مصر الجغرافى الهام فى التوجه التجارى لأفريقيا وفضل الجغرافيين والرحالة والكتاب المسلمين فى تعريفنا بتاريخ القارة

أهمية موقع مصر - علاقاتها التجارية على مر العصور بأفريقيا- العصر الفرعونى- البطلمى الرومانى والإسلامى- فضل الجغرافيين والرحالة المسلمين- اليعقوبى- المسعودى المقدسى- ابن حوقل- الإدريسى- ياقوت- الدمشقى- الحموى وابن بطوطة.

حبا الله سبحانه وتعالى مصر بموقع فريد لم يتهيأ لبلد آخر نظرا لأن موقعها فى الركن الشمالى الشرقى لقارة أفريقيا عند ملتقى قارتى أفريقيا وآسيا وعلى مقربة من أوربا قد جعلها مجمع القارات فى العالم القديم ومفرق البحار وملتقى الشرق والغرب (١).

وإذا كان هيردوت قال أن «مصر هبة النيل» فيمكننا أن نضيف أن « مصر هبة النيل والموقع» لانستطيع أن نفصل أحدهما عن الآخر أو نحمل الحضارة المصرية فضل أحدهما عن الآخر فهناك كثير من البيئات النهرية الفيضية كوادى النيل ولكن لايوجد مثيله موقعا والاثنان النيل والموقع يكملان بعضهما بعضا ثم يأتى الإنسان ليضفى على مصر أيغالا فى التاريخ وأصالة فى الحضارة .

وبالإضافة إلى ذلك فان **أهمية مصر** لم تنبع من موقعها ونيلها فحسب وإنما نبعت أيضا مما أمدت به العالم من مقومات حضارية وروحية واقتصادية وثقافية كانت نبتا للمصريين وترعرعت بين جنباتهم .

فمنذ فجر التاريخ ومصر مصدر حضارة عظيمة تغذى العالم فضلا عن امدادها للبلاد المجاورة بالغلال كما عبرتها القوافل. وفضلا عن هذا فانها لعبت دورا خطيرا فى نشاط الأديان السماوية حيث قصدها موسى وعيسى عليهما السلام وغدت قاعدة للإسلام انتشر منها إلى أرجاء القارة الأفريقية بل عبرها إلى أوربا. لهذا كله غدت مصر مركز ثقل حضارى ودينى فى العالم.

وإذا كان بعض الدارسين قد شبه منطقة الشرق العربى حول الجزيرة العربية بحضارة العالم القديم فإن مصر بدورها هى حاضرة الحاضرة أو عين القلب حيث تلتقى القارات الثلاث وتتفرع البحار الداخلية الهامة بل لقد ذهب بعضهم إلى وصفها بأنها عاصمة العالم الاستراتيجية(٢). وقد وصف الرحالة ابن بطوطة مصر فقال أنها «أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية فى كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر وحل الضعيف والقادر» (٣).

---

(١) جمال حمدان، شخصية مصر، ص٨٢ .

(٢) جمال حمدان، شخصية مصر ، ص١٩١ .

(٣) ابن بطوطة ، رحلته ، جـ١ ، ص١٩ .

هذا الموقع الاستراتيجي الفريد جعل مصر تقوم بدور مهم فى التجارة العالمية فاستمرت منذ العصور القديمة سوقا رئيسا للتبادل التجارى بين أفريقيا وآسيا وبلاد البحر المتوسط مما جعل ثغورها البحرية والنهرية مركزا لنشاط تجارى كبير(١).

وإذا كانت مصر قد قامت بدور مهم فى التجارة العالمية **فمن البديهى أن تكون صلتها بأفريقيا القارة الأم من أقدم الصلات** والدليل على هذا أن علماء الآثار عثروا فى مقابر عصر ما قبل التاريخ على مواد لاتوجد فى مصر مثل اللازورد وحجر الاويسيديان والعاج مما يثبت وجود تجارة مع أفريقيا فى ذلك العصر المبكر (٢).

ونعلم من دراسة الآثار والنقوش المصرية القديمة أن ملوك مصر قد ازداد اهتمامهم بالجنوب منذ أيام الأسرة الخامسة عندما كانوا يرسلون الحملات لإحضار حاصلات السودان فى عهد ساحورع (٢٥٥٣-٢٥٣٩ق.م) ولم يقتصر نشاط المصريين الخارجى على الشاطىء الفينيقى بل أرسلوا أيضا حملة أخرى برية إلى الجنوب وترك رئيسها اسم مليكه منقوشا على صخرة قرب شاطىء النيل فى بلاد النوبة وحملت تلك البعثة معها عند عودتها مقادير كثيرة من البخور والذهب وعددا غير قليل من الأخشاب التى كان المصريون يهتمون بالحصول عليها وربما كان بعضها أو أكثرها من الأبنوس (٣).

وتزايد الاهتمام بشئون الجنوب فى عهد الأسرة السادسة فأوكل ملوكها إلى أمراء جزيرة ألفنتين عند أسوان مهمة القيام برحلات إلى الجنوب لأن أولئك الأمراء كانوا أعرف الناس بما يلى بلادهم .

ومن أهم الرحالة الذين أرتادوا الجنوب فى عصر تلك الأسرة الرحالة حرخوف الذى قام بثلاث رحلات إلى الجنوب ذهب فى أولاها إلى منطقة تسمى بلاد ايام، وفى المرة الثانية خرج من الفنتين وذكر البلاد التى مربها بلدا بلدا مفاخرا بأن أحدا من الرحالة الذين سافروا قبله لم يتسن له ارتياد المناطق التى ارتادها ويعود من رحلته بمثل ما عاد هو به .

وفى رحلته الثالثة اتخذ طريقا آخر إذ سافر على درب الواحات ولانستطيع أن نحدد نهاية تلك الرحلة، إلا أنه عاد ومعه كثير من منتجات تلك الأقاليم كالبخور والابنوس والعطور وجلود الفهود وانياب الفيلة وبذور السمسم (٤).

---

(١) حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص٢٤ .

(٢) جون ويلسون ، الحضارة المصرية ، ص٦٨ .

(٣) حمد فخرى، مصر الفرعونية، ص١٣٣ .

(٤) أحمد فخرى ، الواحات المصرية، ص١٧٧ ؛ سليم حسن ، مصر القديمة ، جـ١٠ ، ص٢٥-٢٨ .

ويرى د. أحمد فخرى فى تحليله لتلك الرحلات أن الرحالة فى رحلته الأولى قد وصل إلى المنطقة الواقعة جنوبى وادى حلفا وفى الرحلة الثانية وصل إلى مناطق لم يسبق لأحد اختراقها قبله وقد بدأت هاتان الرحلتان بالنزول فى النيل إلى مكان معين قريب من وادى حلفا ثم يبدأ بعد ذلك سيره بالبر أما الرحلة الثالثة فقد كانت بطريق البر وسار فيها على درب الأربعين إلى قبيل وادى حلفا عند مكان يقال له (ساقية العبد) ثم سار فى الدرب الموصل إلى واحة سليمة على درب الأربعين الموصل إلى دارفور ومن المحتمل وصوله لدارفور(١).

وفيما يتعلق بالمصريين أنفسهم فان النيل ذلك النهر الباعث للحياة والمجهول المنبع ذو الجريان المنتظم والمواعيد الثابتة فى الفيضان كان هو سبب اهتمامهم بالجنوب ولهذا نجد أن ملوك مصر فى تلك العصور القديمة قد استمروا فى إرسال البعثات والحملات للجنوب وبلغ اهتمام ملوك الأسرة الحادية عشرة بالجنوب درجة كبيرة جعلتهم يشيدون الحصون عند الشلال الثانى كذلك أقام المصريون عند حدود مصر الجنوبية مخزنا كبيرا لإيداع ما يحمله التجار من بضائع كما أقام هناك حاكم مصرى (٢).

وبعد انقضاء عصر الظلام الذى ساد نتيجة لغزوات الهكسوس عاد ملوك الدولة الحديثة إلى إرسال البعثات والرحلات إلى الجنوب وجدير بالذكر أن تلك البعثات لم تقتصر على طريق النيل أو طريق القوافل فى الصحراء الغربية لكن كان هناك اهتمام خاص بطريق البحر الأحمر والوديان المؤدية من ساحل البحر إلى الداخل (٣).

ومن نقوش الدير البحرى تتضح أخبار البعثة البحرية التى أرسلتها أولى ملكات التاريخ حتشبسوت إلى بلاد بونت لجلب البخور واللبان وغيره من خيرات البلاد الأفريقية إلى مصر ولنقل بعض أشجارها بقصد زراعتها فى حديقة معبدها(٤). كذلك عثر على نقش ذكر فيه أن رمسيس الثانى (١٣٥٠ق.م) أمر ببحث وسائل توفير المياه فى بعض طرق الصحراء الشرقية المؤدية إلى بلاد النوبة إذ كان الناس والدواب يموتون عطشا بها(٥).

---

(١) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص١٥٢-١٥٤ .
(٢) أحمد فخرى، مصر الفرعونية ، ص٢٢٩-٢٣٠ .
(٣) شوقى الجمل ، تاريخ كشف أفريقيا، ص٢٧-٢٨ .
(٤) مشاهداتى لنقوش الدير البحرى فى البر الغربى بالأقصر (وادى الملوك) .
(٥) شوقى الجمل ، تاريخ كشف أفريقيا ، ص٢٨ .

وبرز الاهتمام بأفريقيا فى عهد نكاو الثانى (٩٩٦-٩٥٤ق.م) الذى انشأ أسطولا صغيرا فى البحر الأحمر للكشف عن ساحل أفريقيا وأرسله وبه ملاحون فينيقيون قضبوا ثلاث سنوات فى رحلتهم حول الشاطىء الأفريقى حتى عادوا من بوغاز جبل طارق إلى مصر محملين بجميع خيرات أفريقيا التى حصلوا عليها أثناء رحلتهم[١].

وبانقضاء عصر الفراعنة ظلت مصر طوال العصرين البطلمى والرومانى حلقة للتجارة العالمية واستطاع ملوكها وحكامها من الرومان أن يحولوا التجارة فى البحر الأحمر إلى الموانىء المصرية الواقعة على هذا البحر ومنها تحمل البضائع عبر الصحراء الشرقية إلى أن تصل إلى قفط[٢].

ولم تتغير علاقة مصر التجارية مع أفريقيا بعد الفتح العربى بل ازدادت الصلة ونمت التجارة حيث شرع عمرو بن العاص فى حفر خليج أمير المؤمنين للوصل بين البحرين الأحمر والمتوسط عن طريق النيل[٣]. كذلك زادت أهمية برزخ السويس وأصبحت مدينة الفرما والقلزم من أهم موانى الشرق الأدنى نشاطا فى ميدان التجارة العالمية [٤]. كما ازداد التبادل التجارى أيضا بين المغرب والمشرق فكانت المتاجر الآتية من المغرب تشتمل على المولدات الحسان والعنبر والحرير والأكسية والزيت وكانت مدينة الاسكندرية محط التجارة الرئيسى للبضائع الواردة من المغرب سواء عن طريق البحر أو البر[٥].

ونشطت علاقة مصر التجارية فى ظل الإسلام مع النوبة والسودان وأواسط أفريقيا فضلا عن علاقاتها مع الحبشة والصومال [٦].

والواقع أنه لم يكن ثمة شىء معلوم بالتأكيد عن أفريقيا جنوبى الصحراء قبل حركة التوسع العربى الإسلامى فى هذه القارة، وكل ما لدينا عنها الآن من معلومات ترجع إلى العصر الإسلامى إنما ندين به لمجموعة من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين المسلمين، وعلى رأسهم المسعودى وابن حوقل والمقدسى والبكرى والادريسى وياقوت والعمرى والمقريزى وابن بطوطة وابن خلدون وغيرهم كثيرون وهؤلاء جميعا خطوا بنا

(١) أحمد فخرى ، مصر الفرعونية ، ص٤٢٥ .

(٢) عبداللطيف أحمد على ، مصر والامبراطورية الرومانية، ص٦٢-٦٤ ؛ سيدة كاشف ، أحمد بن طولون ، ص ص ٢٠٤-٢٠٥ .

(٣) سيدة كاشف، أحمد بن طولون ، ص٢٠٥ .

(٤) حسن محمود ، حضارة مصر الإسلامية، ص٢٤٣ .

(٥) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٩٧ .

(٦) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٢٢ .

خطوات واسعة فى علمى الجغرافية والتاريخ بحيث توصلوا إلى معلومات جديدة لم يعرفها أحد قبلهم كما نجحوا فى قياس أطوال وأعراض كثير من المدن قياسا غاية فى الدقة وصححوا الأخطاء التى وقع فيها بطليموس فى تقدير بعض الدرجات [1]. ..

ولايخفى علينا أنه كان لانتشار الإسلام وحضارته فى جزء واسع من العالم القديم وسيطرة المسلمين على البحار أثر كبير فى أن يتصدروا المعرفة الجغرافية فى تلك العصور فالفتوح الإسلامية والحج وطلب العلم والتجارة والرحلة كلها عوامل ساعدت وشجعت على الكتابة الجغرافية والتاريخية .

ذلك أن اتساع الفتوح الإسلامية من الهند وحدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا جعل الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءا مهما من العمل الادارى للدولة فصار وصف الأقاليم والعناية بها جزء من أخبار الفتوح والمغازى والتنظيم وبعد ذلك جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث تقدير ثروتها ومقدرتها على دفع الضرائب وهنا تجد أول استقلال لما يصح أن يسمى بالجغرافية الادارية أو السياسية عن الفتوح والمغازى وأخبارها . وهذه الجغرافية الادارية تبدو واضحة فى كتاب «المسالك والممالك» الذى وضعه ابن خرداذبة فى أواسط القرن الثالث الهجرى وفى كتاب «الخراج صنعة الكتاب» لقدامة بن جعفر [2].

أما من الناحية الدينية فإن الإسلام جعل الحج أحد أركانه الخمسة الأساسية فجاء فى القرآن الكريم «وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق» [3] الأمر الذى ترتب عليه انطلاق آلاف المسلمين سنويا من مختلف انحاء العالم الإسلامى لتأدية فريضة الحج فى الحجاز وكانت الأسفار تتم حينئذ على ظهور الدواب أو بالبحر أو سيرا على الأقدام ولذا ظهرت العناية بوصف خير الطرق وايسرها للوصول إلى مكة المكرمة ومدينة الرسول وشرح الصعاب التى تواجه الحاج ووسائل التغلب عليها ومن أمثلة هذه الكتابات التى تعد أعظم ما دونه الرحالة فى العصور الوسطى ما كتبه كل من ابن جبير وابن بطوطة .

ويضاف إلى هذا كله التنقل فى سبيل طلب العلم . إذ جاء فى حديث شريف «من

---

(١) سيجريد هونكه ، شمس الله، ص٣٢١-٣٢٢ .

(٢) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات، ص١١-١٢ .

(٣) سورة الحج ، آية ٢٧ .

«ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » سورة النساء: آية ١٠٠ .

سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة»[1] ذلك أن الإسلام يحث على طلب العلم مثلما يحث على الحج ولذا انطلق علماء المسلمين فى أرجاء البلاد من أجل طلب المعرفة والتزود بالعلم فتنقلوا من إقليم لآخر يدرسون على مشاهير الأساتذة ويلقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين والأطباء والفلاسفة وغيرهم وقد حرص العلماء على تدوين مشاهداتهم ليطلع عليها الخلف. ويجب أن نلاحظ فى هذا المقام أن التخصص العلمى بمعنى أن يكون الجغرافى جغرافيا فحسب لم يكن معروفا فى تلك العصور التى كان فيها العالم موسوعيا يكتب فى أكثر من فن من فنون المعرفة لأن الحياة لم تكن قد تعقدت بالصورة التى تعقدت بها فى عصرنا الحديث مما يستتبع التخصص الدقيق فى فرع من فروع المعرفة.

وقد اشتهر العرب فى الجاهلية بمزاولة مهنة التجارة الأمر الذى تمثل فى رحلة الشتاء والصيف التى دأبت قريش على القيام بها قبل الإسلام ثم جاء انتشار الإسلام واتساع الدولة العربية ليفتح آفاقا جديدة واسعة أمام النشاط التجارى للمسلمين فانتشرت قوافلهم فى الشطر الأعظم من العالم المعروف حينذاك وشقت سفنهم عباب البحار وجابت قوافلهم مجاهل البر والقفار .

وهكذا أثرى المسلمون المكتبة الجغرافية التاريخية بكثير من أخبار رحلاتهم وإن كان بعضهم لم يكتب رحلته فى مؤلف مستقل فى حين أن آخرين منهم كابن جبير والعمرى وابن بطوطة كتبوا مؤلفات مستقلة .

وعلى الرغم من كثرة ما وصل إلينا من تلك المؤلفات إلا أن الكثير منها قد ضاع ولم نعرف أخباره إلا من ثنايا بعض الكتب التى تحدثت عنها.

ومن أهم الجغرافيين والرحالة العرب الذين أثروا معرفتنا بجغرافية وتاريخ القارة الأفريقية التى ظل الأوروبيون حتى القرن الثامن عشر لايعرفون عنها إلا النزر اليسير اليعقوبى ، المسعودى ، المقدسى، ابن حوقل، الادريسى، ياقوت ، الدمشقى، العمرى وابن بطوطة .

---

(١) «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» حديث شريف .

«العلماء ورثة الأنبياء» حديث شريف .

مما يدل على شغف المسلمين بطلب العلم أن جابر بن عبد الله رحل مسيرة شهر إلى عبدالله بن انيس ليتحقق من حديث واحد.

ابن حجر ، فتح البارى، جـ١ ، ص١٨٣.

أما عن **اليعقوبى** فقد أفادنا بنبذ عن النوبة والبجة ومعدن التبر «فأما من قصد من العلاقى إلى بلاد النوبة الذين يقال لهم علوة فيسير ثلثين مرحلة بعضها إلى كبار ثم إلى موضع يقال له الأبواب ثم إلى مدينة علوة العظمى تسمى سوية وبها ينزل ملك علوة والمسلمون يختلفون إليها ومنها يأتى خبر ابتداء النيل ويقال أن جزيرة علوة متصلة بجزيرة السند والنيل يجرى من وراء علوة إلى أرض السند[1]. كذلك ذكر اليعقوبى فى تلك الفقرة القصيرة موقع النوبة ومدنها العظمى ويجب أن نراعى أن اسماء المدن بل اسماء البلدان تتغير أحيانا كما أفادنا عن مقار ملوكها وما يعيش بنهرها من الحيوانات .

وواضح من كلام اليعقوبى أنه لم يزر النوبة وإنما جمع معلوماته عنها من الناس ورغم عدم تنسيقه الكتابة فانه أفادنا إلى حد ما فى معرفتنا بالنوبة فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإسلام وخاصة فى ذكر المسافات والمراحل بين البلدان.

وأما عن **المسعودى** فان كتابة مروج الذهب فهو مؤلف جمع بين السياسة والعمران والتاريخ والجغرافية بأفرعها المختلفة من طبيعية وبشرية .

وعلى الرغم مما يقوله بوفيال Bovill من أن مساهمة المسعودى فى معرفتنا بالسودان لم تكن كبيرة[2]. إلا أن هذا القول يبدو مجافيا لما قدمه المسعودى حيث ذكر جميع اجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعها وأخبار ملوكهم وعجائب سيرهم فى كتابه أخبار الزمان فى الفن الأول من جملة الثلاثين فنا[3].

وهذا الكتاب الضخم والكتاب الأوسط من مؤلفات المسعودى لم يصلانا للأسف ولم يعرفا إلا من خلال اقتباسات ضئيلة[4]. وعلى الرغم من ضياع هذين المؤلفين فإنما نستطيع من خلال ما وصلنا معرفة الكثير عن تاريخ هذه المنطقة وجغرافيتها .

والواقع أن المسعودى يعد أول من أفاض فى الحديث عن شعوب الزنج وذهب إلى منطقتهم «وقطعت الزنج دون سائر الأحابش... وسكن الزنج فى ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة وهى اقاصى بلاد الزنج وإليه تقصد مراكب العمانيين والسرافيين[5]، كذلك ذكر البلاد الواقعة فى الزنج والمسافة بين كل بلدا وآخر وعرض

---

(١) اليعقوبى ، البلدان ، ص٣٣٥-٣٣٦ .

(٢) Bovill : Caravans: p. 33.

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١، ص٢٤٦ .

(٤) جمال زكريا، المصادر العربية لشرق أفريقيا، ص١٧٩ .

(٥) المسعودى، مروج الذهب ، جـ١ ، ص٢٣٧ .

لبعض الملوك ولبعض عادات أهالى تلك البلاد وتقاليدهم الاجتماعية وما بتلك البلاد من حيوان ونبات ومعادن بل ذهب فيما يعرف حديثا باسم التحليل الاقتصادى وذلك فى معرض حديث عن تجارة العاج وسبب ارتفاعها فى بلاد الإسلام مبينا أن سبب ذلك هو نقلها إلى أسواق عمان مما أدى إلى قلة المعروض فى بلاد الإسلام .

ويعد «مروج الذهب» أهم مصادرنا عن تاريخ السودان حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى.

وفيما يتعلق **بالمقدسى** فانه لم يصل إلينا الكثير من كتاباته عن أفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى وإن كان قد كتب الكثير عن شمال أفريقيا إلا أنه حينما انتقل إلى بلاد السودان وصفها بأنها «بلدان مقفرة واسعة شاقة وهم أجناس كثيرة وفى جبالهم عامة ما يكون فى جبال المسلمين من الفواكه غير أن أكثرهم لايذوقونه ولهم فواكه أخرى وأغذية وأطعمة وحشائش لاتوجد عندنا ولا تعامل بينهم بالذهب والفضة [١].

ومن جغرافى القرن الرابع الهجرى **ابن حوقل** الذى ظل يتجول فى البلاد الإسلامية نحوا من ثلاثين عاما لم يركب فيها البحر بل كانت أسفاره ورحلاته بالبر.

وقد وصف ابن حوقل كثيرا من الممالك الإسلامية وبعض البلاد الأخرى التى لاتدين بالإسلام كالنوبة والحبشة ، أما بلدان السودان والزنج والبجة فانه لم يكتب عنها لأن هذه البلاد لا ديانة لها «ولم أذكر بلدان السودان فى المغرب والبجة والزنج ومن فى أعراضهم من الأمم لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون فى هذه الخصال ولاحظ لهم فى شىء من ذلك يستحقون به أفراد ممالكهم بما ذكرت من سائر الممالك غير أن بعض السودان المقاربين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم ويقاربون أهل هذه الممالك كالنوبة والحبشة فإنهم نصارى يرتسمون مذاهب الروم»[٢].

وقد يؤخذ على ابن حوقل تعصبه للإسلام وعدم تناوله الكتابة عن بعض أقاليم السودان بروح العالم التى تتساوى لديه الأمور كلها حتى يفحصها ويقرر حقيقتها ،

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم ، ص٢٤٦ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٤١ .

من المعروف أن الكنيسة الحبشية يعقوبية المذهب (الطبيعة الواحدة) وربما يقصد ابن حوقل أن هذه البلاد كانت تدين بمذاهب النصارى الروم (الطبيعتين) أو (الملكانية) التى وجد اتباعها فى الدولة البيزنطية وبعضهم فى مصر والشام. إلا أن ابن حوقل يخطىء فى ظنه هذا لأن كنيسة الحبشة ظلت يعقوبية المذهب حتى يومنا هذا.

ولكن على من يصدر مثل هذا الحكم أن ينظر إلى طبيعة العصر الذى عاش فيه ابن حوقل فقد كان عصرا زاهرا للإسلام والجميع يترنمون بالآداب والأخلاق ويسبحون بحمد الواحد القهار ، وهو لم يهمل ما أهمله من البلاد إلا لاعتقاده بأن تلك البلاد لاحظ لها من الديانات والآداب والحكم .

ورغم اهماله السودان فقد أمدنا بمعارف كثيرة عن القارة «وأما جنوبى الأرض من بلاد السودان فان بلدهم الذى فى أقصى المغرب على البحر المحيط بلد ملتف ليس بينه وبين أرض المغرب وجدالة ينتهى إلى برقة بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات وجدالة وطول أرضهم ألف فرسخ[1] فى نحو عرضها»[2]. وقد اهتم ابن حوقل بصفة خاصة بتعيين البلاد التى على حدودها وذكر المسافات بينها وكذلك المسافات بين المدن الشهيرة وأهم ما تنتجه تلك البلاد وتصدره .

ونستطيع أن نقول أننا خسرنا كثيرا لأن عالما مثل ابن حوقل جاب العالم الإسلامى لمدة تقرب من الثلاثين عاما لم يهتم بأن يرى البلاد الأخرى التى لاتدين بالدين الإسلامى أو أى ديانة أخرى أو أن يكتب عنها وإن كانت الفقرات القليلة التى كتبها أو جاء ذكرها عرضا ذات أهمية خاصة على الرغم من هذا ، لأنه فى تلك الفترة لم يوجد الكثير من الكتاب والرحالة الذين كتبوا عن أفريقيا فأى شىء كتب ولو فقرة يصبح كنجم فى دياجير الظلام وشعاعا يهدى الباحثين فى المتاهات المظلمة .

أما **الشريف الادريسى** فيعد أكثر الجغرافيين العرب اهتماما بأفريقيا وخاصة جنوبى الصحراء الكبرى ، وإليه يرجع الفضل فى توضيح حقيقة منابع النيل بعد أن تضاربت الأقوال فى هذا الشأن منذ أقدم العصور ، وفى خريطة للادريسى محفوظة اليوم فى أحد متاحف فرنسا رسم النيل نابعا من بحيرات كبيرة جنوبى خط الاستواء، وهذا أول بيان حقيقى لمنابع النيل فى التاريخ بعد أن تخبط الجغرافيين فى وصف منابعه وتعليل فيضانه منذ أيام هيردوت[3].

---

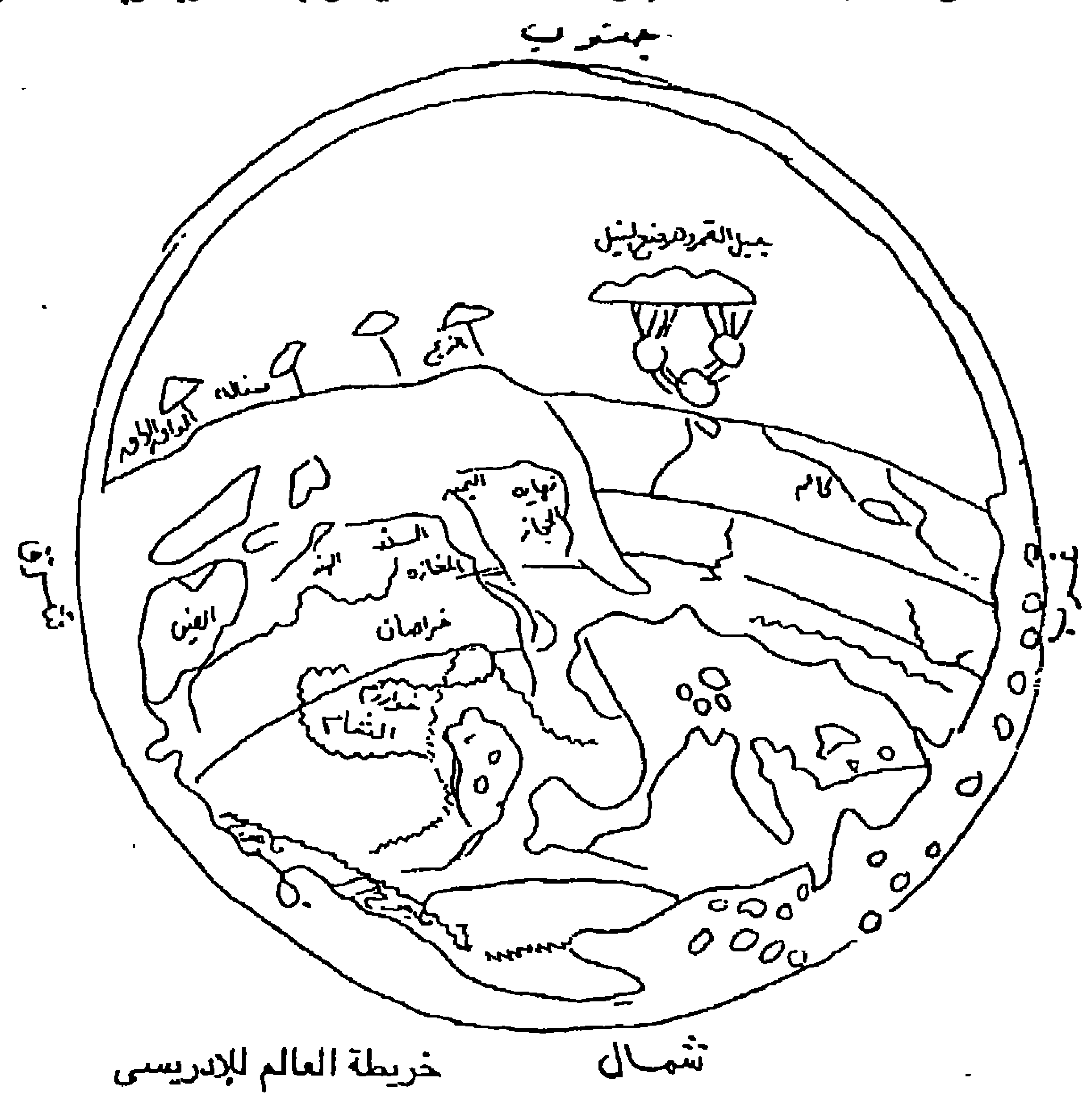
(١) الفرسخ قال قوم أنه فارسى معرب وأصله فرسنك وقال اللغويون الفرسخ عربى محض يقال انتظرتك فرسخا من النهار أى طويلا. قال الحكماء استدارة الأرض فى موضع خط الاستواء ٣٦٠ درجة والدرجة ٢٥ فرسخا والفرسخ ٣ أميال والميل ٤٠٠٠ ذراع، والذراع ١٢٤ أصبعا والاصبع ست حبات شعير مضمومة بطول بعضها إلى بعض وكل اربعة فراسخ بريد .

ياقوت ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٥ ؛ الدمشقى ، نخبة الدهر، ص١٣ ؛العمرى مسالة الأبصار جـ٢ ورقة ١٣٠ .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ، ص١٥-١٦ .

(٣) سعيد عاشور ، المدنية الإسلامية ، ص١٢١ ؛ عباس العقاد ، أثر العرب ، ص٥٠ .

فيقول عن ذكر منابع النيل .. مخرجه من جبل القمر الذى فوق خط الاستواء بست عشر درجة[1] ... ويخرج من كل واحدة من هاتين البطيحتين ثلاثة أنهار فتمر بأجمعها إلى أن تصب فى بطيحة كبيرة جدا وهذه البطيحة (البحيرة) المذكورة فوق خط الاستواء مماسة له وفى أسفل هذه البحيرة التى بها تجتمع الأنهار جبل معترض يشق أكثر البطيحة ويمر منها إلى جهة الشمال مغربا فيخرج من ذراع واحد من النيل فيمر فى جهة المغرب وهو نيل بلاد السودان الذى عليه أكثر بلادها ويخرج مع شفا الجبل الشرقى الذراع الثانى فيمر أيضا إلى جهة الشمال فيشق بلاد النوبة وبلاد مصر[2].



خريطة العالم للإدريسى

(١) الدرجة قدر ما تقطعه الشمس فى يوم وليلة من الفلك وفى مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخا وتنقسم الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية والثانية إلى ستين ثالثة وترقى كذلك.

ياقوت ، المعجم ، جـ١ ، ص٣٩ .

(٢) الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص١٩-٢٠ .

كذلك تحدث الإديسى – شأنه شأن سابقيه – عن البلاد والمدن والمسافات إلا أنه أفاض فى الحديث عن أعمال الأهالى بتلك المناطق ولباسهم وأحوالهم المعيشية ومعاملات التبادل التجارى بين البلاد وبعضها ببعض. كما تعرض لذكر المناخ وأثره فى السودان «وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جدا ولذلك كان أهل هذا الإقليم الأول والثانى وبعض الثالث لشدة الحر واحراق الشمس لهم كانت الوانهم سوداء وشعورهم متفلفلة..»[1].

هذا قليل من كثير مما ذكره الادريسى عن افريقيا ويتضح لنا من كتاباته مدى عنايته بها. حيث كان يدقق كثيرا بل أنه عمد إلى تعليل كثير من الظواهر التى تبدت له.

أما **ياقوت الحموى** فقد وضع كتابه معجم البلدان بعد أن حاز معرفة واسعة بالعالم وقد وضعه على أساس أعمال الجغرافيين السابقين ولكنه أثرى بواسطة المادة التى جمعها بنفسه خلال رحلاته الواسعة[2].

ولم يعتمد ياقوت فى معجمه على ما شاهده فى أسفاره وحصله فى تطوافه فحسب بل قرأ كتب القدماء والمحدثين مثل ابن خرداذبة وأحمد بن واضح الجيهانى وابن حوقل وابو عبد الله البشارى وابوعبيد البكرى وغيرهم وكان ياقوت يعنى بقراءة واستيعاب ما يقرأه تاما .

وقد أفادنا هذا المعجم كثيرا عن أفريقيا فكتب عن مدنها واصقاعها وكورها فمثلا كتب تحت مادة التبر «بلاد من بلاد السودان تعرف ببلاد التبر واليها ينسب الذهب الخالص وهى فى جنوب المغرب تسافر إليها التجار من سجلماسة إلى مدينة فى حدود السودان يقال لها غانة وجهازهم الملح وخشب الصنوبر وهو من أصناف خشب القطران إلا أن رائحته ليست بكريهة ويستكثرون حمل المياه ويأخذون معهم جهابذة السماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر فيمرون بطريقهم على صحارى فيها رياح السموم. حتى يقدموا الموضع الذى يحجز بينهم وبين أصحاب التبر فاذا وصلوا ضربوا طبولا معهم عظيمة تسمع من الأفق الذى يسامت هذا الصنف من السودان ويقال أنهم فى مكان واسرابه تحت الأرض عراة لايعرفون سترا كالبهائم مع أن هؤلاء القوم لايدعى تاجر أنه رآهم وإنما هكذا تنتقل صفاتهم فاذا علم التجار أنهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ما معهم من البضائع المذكورة فوضع كل تاجر ما يخصه من

---

(١) الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص٩-١٠ .

(٢) Bovill : Caravans: p. 37 .

ذلك كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة فيأتى السودان ومعهم التبر فيضعون إلى جانب كل صنف منها مقدارا من التبر وينصرفون ثم يأتى التجار بعدهم فيأخذ كل واحد منهم ما وجد بجانب بضاعته من التبر ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم »[1].

ويقول تحت عنوان مقدشو «أنها مدينة فى أول بلاد الزنج فى جنوب اليمن فى بر البربر فى وسط بلادهم وهؤلاء البربر غير البربر الذين هم بالمغرب وهؤلاء سود يشبهون الزنوج جنس متوسط بين الحبش والزنوج وهى مدينة على ساحل البحر وأهلها كلهم غرباء ليسوا بسودان ولا ملك لهم إنما يدبر أمورهم المتقدمون على اصطلاح لهم وإذا قصدهم التاجر لابد من أن ينزل على واحد منهم ويستجير به فيقوم بأمره ومنها يجلب الصندل، الأبنوس والعنبر والعاج»[2].

هذا قليل من كثير مما كتبه ياقوت عن بلاد ومدن أفريقيا ففى هذا الجزء البسيط عن التبر يصف لنا طريقة التعامل وطرق السير وأهم المواد المتبادلة كذلك يذكر موقع مقدشو واجناس أهلها حيث يذكر أنهم جنس متوسط بين الحبش والزنوج مما يدل على معرفته بأجناس الحبش والزنوج كما تعرض لذكر أهم صادراتهم.

والواقع أن معجم البلدان يعتبر بحق من أهم موسوعات العالم الإسلامى الاجتماعية . والتاريخية والجغرافية بل الأدبية للعالم أجمع.

ثم يأتى **الدمشقى** الذى يعتبر كتابه «نخبه الدهر فى عجائب البر والبحر فى أسلوبه وترتيبه من أعظم مؤلفات الجغرافية الإنسانية والتاريخ الطبيعى فى المكتبة العربية[3].

وقد كتب الدمشقى عن وصف بلاد السودان وأسمائها وبقاعها والأنهار التى تشق بلادها وأعمال أهلها وما يزرع بأرضهم وما بها من حيوانات وطيور «وأقربها من صحارى البربر مدينة كوكو وهى فى سفح جبل يشقها نهر يسمى بها يأتى من بحيرة كورى الجامعة ويصب فى نهر غانة وجريه شديد وله وقت يزيد فيه ويزرع عليه القمح وغالب الحبوب والقطن هناك يصير شجرا كبارا[4] ..

---

(١) ياقوت ، المعجم ، جـ٢ ، ص٣٦١ .
هذا النوع من التجارة يعرف بالتجارة الصامتة والتبادل الصامت وقد وجد له مثيلا فى الصين وكثير من بلاد العالم .

(٢) ياقوت ، المعجم ، جـ٨ ، ص١٢١ .

(٣) حسين فوزى ، حديث السندباد، ص٣٨ .

(٤) الدمشقى ، نخبة الدهر ، ص٢٤٠ .

كذلك كتب الدمشقي عن اجناس الناس فى العالم وصفاتهم فى الباب التاسع وفى وصف انتساب الأمم إلى سام ويافث وحام أولاد نوح النبى وذكر نبذ مما امتازوا به فمثلا يقول عن بعض طوائف السودان «ومنهم طوائف السودان الحبوش المقارية لزغاوة ويقال أنهم الحبشة العليا وهم كفار عراة ومنهم المجوس يعبدون الأوثان ويسمونها الوكاكير ... وأما حبشى فهو حبش بن كوش بن حام بن نوح وهم ستة أصناف الحرة ويقال أن النجاشى منهم والملك فى عقبه وسحرت وجزل وهم حسان الصور وخومر ودامرت ولهذه الأجناس أصول تتفرع منها شعوب وقبائل لاتحصى كثرة ومن طوائف السودان النوبة ويقال أنهم منسوبون إلى نوبى بن قفط بن مصر ابن ينصر بن حام بن نوح»(١).

وأيضا تكلم الدمشقى عن أثر الطبيعة على الأجناس وسنورد ما قيل فى سكان الأقاليم السبعة من الخلق والخلق الموجب له «فالأول من خط الاستواء وإلى ما وراءه وما خلفه فيه من الأمم الزنج والسودان والحبشة والنوبة ومثلهم وكل هؤلاء سود سوادهم من قبل الشمس فإنه لما كان حرها شديدا وطلوعها عليهم ومسامته رؤوسهم لها فى السنة مرتين ولاتزال قريبة منهم اسخنتهم اسخانا محرقا وصارت شعورهم التى بالقصد من الطبيعة حالكة جعدة مفلفلة أشبه شىء بشعر أدنى من النار حتى يشيط... وجلودهم ذعرة ناعمة لتنقية الشمس ...»(٢) .

حقيقة اخبرنا الدمشقى بالكثير وافادنا عن البلاد الأفريقية بلادها ومدنها انهارها ، جبالها، زراعاتها واجناسها وطبائعهم وتاريخهم ومعايشهم وغير ذلك كثير ويبقى مؤلفه مرجعا ثمينا لتاريخ تلك البلاد وجغرافيتها .

أما **ابن فضل الله العمرى** فهو العلامة القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى من علماءالقرن الثامن الهجرى وصاحب موسوعة مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار «الذى اعتمد عليه القلقشندى كثيرا فى كتابه صبح الأعشى ولم تكن الاستفادة من تلك الموسوعة كثيرا فى كتابه صبح الأعشى ولم تكن الاستفادة من تلك الموسوعة قاصرة على العصور الوسطى فقط بل إلى الآن لايزال يهتدى بها الباحثون وكبار العلماء فمسالك الابصار منار من منارات العلم التى وضعها العرب فى تلك العصور لتكون هاديا للاجيال المعاصرة واللاحقة .

---

(١) الدمشقى ، نخبة الدهر ، ص٢٦٨ .

(٢) الدمشقى ، نخبة الدهر، ص٢٧٣ .

ويعد العمرى أحد ثلاثة مؤلفين أمدونا بمعلومات هامة عن تاريخ امبراطورية مالى فى العصور الوسطى والآخران هما ابن خلدون وابن بطوطة[1] .

ففى كلامه عن مالى أمدنا العمرى بمعلومات وفيرة عن جغرافيتها وتاريخها وبعض جوانب من حياتها الاجتماعية والاقتصادية وقد استقى العمرى معلوماته من أمير صاحب أحد المصاحبين لمنسا موسى سلطان مالى أثناء حجه ويظن من يقرأ كتابات العمرى عن مالى أنه زار تلك البلاد فمما قاله عن مالى «ذات أعمال وقرى وضياع وهى كثيرة الدواب من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال وأنواع الطير والدواجن كالأوز والحمام والدجاج[2]، ويتكلم عن حج منسا موسى أعظم سلاطين مالى» خرج من بلده بمائة وستين جمل من الذهب انفقها فى حجته على القبائل وبطريقه من بلاده إلى مصر ثم من مصر إلى الحجاز الشريف فى التوجه إلى العودة حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من التجار بمكة ... واخبرنى أمير صاحب أن المعاملة فى التكرور بالودع » [3].

كذلك تكلم العمرى عن الحبشة والنوبة والكانم حيث قال عنها «وبينه وبين بلاد مالى مسافة بعيدة جدا وقاعدة ملكهم بلدا اسمه جيمى وعساكرهم يتلثمون وملكهم على حقارة سلطان وسوء ولايراه أحد إلا فى يوم العيد يرى بكرة وعند العصر وفى سائر السنة لايراه أحد ولو كان أميرا إلا من وراء حجاب وغالب عيشهم الآن الأرز والقمح والذرة...»[4].

وقد استفاد المستشرقون من مسالك الأبصار استفادة جليلة مثل كاترمير الفرنسى وامارى الايطالى فكان لهما القدح المعلى فى استخراج كنوز المعارف من تلك الموسوعة وقد حذا حذوهم كثير من المستشرقين .

والواقع أن كتاب مسالك الأبصار أمدنا بفائدة كبيرة وخاصة فيما يتعلق بتاريخ بلاد جنوبى الصحراء وجغرافيتها وعباداتها ومعاملاتها أو ما أطلق عليها السودان بمعناه فى العصور الوسطى أى من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر حيث أن الإسلام كان قد امتد زمن العمرى إلى كثير من ممالك جنوب الصحراء ولذلك تكلم

---

(١) Jevtzion : kings of Mali : p. 344.

(٢) العمرى، مسالك الأبصار ، جـ٢ ، ورقة ٥٠١ .

(٣) العمرى، مسالك الأبصار ، جـ٢ ورقة ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

(٤) العمرى ، مسالك الأبصار، جـ٢ ورقة ٤٩٠ .

العمرى فيما احجم عنه الكتاب السابقون لأنها فى أزمانهم من ممالك الكفار فضلا عن أنه ذكر كل بلد على حدة فتكلم مثلا عن الكانم ومالى، والحبشة وهكذا ...

ومهما يكن من أمر، فإن **ابن بطوطة** يعد دون شك أعظم الرحالة المسلمين بل أعظم رحالة عرفه التاريخ فكان أكثرهم تطوافا فى الآفاق ومعايشة لأهالى البلاد التى طرقها وقد ولد عام ٧٠٢هـ (١٣٠٤م) فى طنجه وغادر وطنه عام ٧٢٥ هـ لأداء فريضة الحج ولكنه ظل حوالى ثمانية وعشرين عاما فى أسفار متصلة ورحلات متعاقبة حيث قام بثلاث رحلات استغرقت هذا الزمن والقى أخيرا عصا التسيار فى مدينة فاس واتصل بسلطانها أبى عنان المرينى وأعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره وعجائب اخباره فأمر كاتبه محمد بن جزى أن يدون ما يمليه عليه هذا الرحالة العظيم وتولى ابن جزى رواية الرحالة ولخصها ورتبها وأضاف إليها بعض الأشعار .

وابن بطوطة أول رحالة جاب الآفاق المجهولة فى الصحراء الكبرى وكتب عن مشاهداته فيها كما كتب عن أفريقيا جنوب الصحراء كثيرا ووصف عادات أهلها ومعاملاتهم وتحدث عن أمرائهم وكان شديد الملاحظة دقيقها فوصف بعض حاصلات السودان وعادات أهله وقال عن تذلل السودان لملكهم «والسودان اعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون «منسا سليمان كى» فاذا دعا أحدهم عند جلوسه بالقبة التى ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقه ونزع عمامته ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف مسافة وقدم بذله "ومسكنه" وضرب الأرض بمرفقيه ..»[1].

وكان ابن بطوطة لماحا حساسا فقد ذكر ما استحسنه من أفعال السودان وما استقبحه منها «فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لايسامح أحد فى شىء منه ومنها شمول الأمن فى بلادهم فلايخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولاغاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان... ومن مساوىء أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا ... ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا ..»[2].

والواقع أن ابن بطوطة افادنا كثيرا فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعى لأفريقيا فلم يعن

---

(١) ابن بطوطة ، رحلته ، جـ٢ ، ص١٩٥ .

(٢) ابن بطوطة ، رحلته ، جـ٢ ، ص٢٠٠ .

بذكر جغرافية الأقاليم التى مر بها بقدر ما انصب اهتمامه الأكبر على الناس.. الناس فى عاداتهم فى معاملاتهم فى ديانتهم وأفادنا ابن بطوطة فى تلك الأمور كثيرا رغم أنه دون كتابة بعد انتهائه من رحلاته ومما لاشك فيه أننا كنا سنكون سعداء الحظ لو قدر لابن بطوطة أن يدون مشاهداته أولا بأول فمما لاجدال فيه أن الذاكرة خانته فى ذكر أشياء كثيرة ورغم ذلك يبقى «تحفة النظار» كتابا من أعظم كتب التاريخ الاجتماعى والثقافى فى العصور الوسطى إن لم يكن أعظمها .

وبعد فلعله يتضح من عرضنا السابق كيف أن الجغرافيين والمؤرخين والرحالة العرب اسهموا إلى حد بعيد فى تعريفنا بجغرافية وتاريخ واقتصاديات القارة الأفريقية.

ذلك أنهم أمدونا بوصف للمدن وأماكنها وأسماء البلاد وأجناس ساكنيها وانهارها وجبالها وبرها وقفرها ومكانها على سطح الكرة الأرضية وملوكها ومعايشها وطرق تعاملهم ومحاصيلها وصادرها وواردها ومسالكها ومفاوزها. كما كانوا أول من قدم لنا صورة عن منابع النيل التى لم يستطع العالم التأكد منها إلا فى القرن التاسع عشر.

ولولا هؤلاء العلماء لأنطبق تاريخ القارة فى هذه الفترة على الاسم الذى اطلقه الاستعمار عليها «القارة المظلمة» .

وقد ظل جغرافيو ورحالة العرب مرجعنا الوحيد عن القارة خلال العصور الوسطى وكان ذلك راجعا إلى تشجيع القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى طبيعة الدين الإسلامى نفسه فى تشجيع الرحلة والهجرة فى سبيل الله وفى طلب العلم. هذا فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تتعثر فى دياجير الظلام ومتاهات الجهالة .

الفصل الثانى

العوامل المؤثرة فى انتشار الإسلام فى أفريقيا وأثرها فى تطور ونمو العلاقات التجارية مع مصر

الفتوح الإسلامية - هجرات القبائل العربية - التجارة - الكارمية - قوافل المصريين تجوب القارة - علاقات مصر التجارية مع المغرب - السودان - مالى - كانم النوبة - البجة - الحبشة والإمارات والمشيخات الإسلامية بشرق أفريقيا.

تأثر انتشار الإسلام فى أفريقيا بعوامل ثلاثة هى الفتوح الإسلامية وهجرات القبائل العربية والنشاط التجارى الإسلامى على أيدى التجار المسلمين .

ولايعنى تحديد هذه العوامل الثلاثة بهذا الترتيب أن كلا منها قد حدث على حدة أو أن أحدها قد سبق الآخر إذ كثيرا ما تواكبت العوامل الثلاثة معا وكثيرا ما سبقت التجارة الفتوح أو الهجرات فى نشر الإسلام وفى أحيان أخرى كانت الفتوح تمهد للتجارة أو العكس . وهكذا كان انتشار الإسلام سداة متلاحمة لايمكن الفصل بين أى من أطرافها .

أما عن الفتوح الإسلامية وهى أول عامل من عوامل انتشار الإسلام فى أفريقيا فقد كانت مصر هى قاعدتها الأساسية والحصينة فمن مصر أخذ انتشار الإسلام شكل محورين متعامدين أنطلق أحدهما فى شمال القارة متجها إلى الغرب وأنطلق الآخر فى شرق القارة ووسطها .

وهكذا خرجت الحملات الإسلامية من مصر بعد اتمام فتحها فى اتجاه المغرب حتى وصلت إلى المحيط الأطلسى وعبرت المضيق إلى الأندلس، فى حين خرجت جيوش أخرى إلى النوبة والبجة وذلك بعد فترة قصيرة من اتجاه الجيوش إلى المغرب وقد تم ذلك خلال القرن الأول الهجرى. وفى فترة لاحقة وصلت الجيوش الإسلامية إلى سواكن. ومن الطبيعى أن تسير الدعوة إلى الإسلام فى ركاب الجيوش الإسلامية وإن لم تتخذ هذه الدعوة صفة الأرغام على اعتناق الدين الإسلامى ، وللإسلام مبدأ معروف فى هذا الصدد هو «اما الاسلام واما الجزية واما القتال» وقد صادف انتشار الإسلام على هذا المحور بعض الصعاب لاعتناق أهل النوبة والحبشة «المسيحية» منذ القرون الأولى للميلاد كما ساعدت طبيعة بلادهم التضاريسية وجدب اراضيها ووعورة مسالكها على مقاومة الفتح الإسلامى .

كان هذان هما المحوران الرئيسيان للفتوح الإسلامية ولكن حدث بعد استتباب الأمر للمسلمين وانتشار الإسلام على المحور الشمالى بين أهل المغرب أن قام هذا الفريق الجديد من المسلمين بحمل الدعوة الإسلامية بدورهم إلى غرب ووسط أفريقيا مستخدمين الفتح العسكرى حينا والهجرة والتجارة أحيانا. ولم يوجد شبيه لمثل هذه الصورة على المحور الشرقى حيث لم يقم البجة والنوبيون بنشر الإسلام فى قلب القارة وجنوبها وساحلها الشرقى وإنما كانت هجرات القبائل العربية هى القوة الفعالة فى نشر الإسلام بتلك المناطق .

كما ظهر فى غرب أفريقيا كثير من المراكز الإسلامية انطلق منها الإسلام صوب الشرق فى حركات ملحة مطردة إما فى ركاب الفاتحين من سلاطين ملى وسنغى[1] وأما على ايدى التجار حتى وصل إلى بحيرة شاد حيث قامت سلطنات إسلامية مثل كانم والبرنو [2].

وقد هاجر قوم عرفوا باسم «الزغاوة» وهم شعب جمع بين الخصائص الزنجية والحامية فى الفترة الواقعة بين عام ٨٠٠ ، ١٢٥٠م[3] وانتشروا فى بقعة رحبة امتدت من دار فور غرب سودان وادى النيل حتى بحيرة شاد وهى المنطقة التى عرفت باسم «كانم» منذ القرن التاسع الميلادى .

وقد تعرض الزغاوة فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى لهجرة من الطوارق ومثلها من التبو (سكان هضبة تبستى) والتيدا ولم تكن هجرة شاملة بل كانت على هيئة ارستقراطية حاكمة استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها [4].

ويعتقد أن الاسلام دخل فى ركاب هذه الأسرة الحاكمة ثم أخذت هذه الأسرة

---

(١) (سنغى) هناك مؤرخون يطلقون عليها صنغى وعرفها المؤرخون والرحلة باسم كوكو وكانت أشهر مدنهم قبل تأسيس دولتهم سنغاى الكبرى.

عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون ، ص٤٩ .

وعرف ياقوت كوكو بأنها اسم أمه وبلاد من السودان وهى بالاقليم الأول وملكهم يظاهر رعيته بالاسلام وله مدينة على النيل من شرقيه اسمها سراة وبها أسواق ومتاجر وله مدينة غرب النيل يسكنها هو ورجاله (لم تكن المدينة على النيل بل كانت على نهر السنغال ولكن بعض الجغرافيين اعتقدوا أن كثيرا من أنهار أفريقيا هى النيل)

ياقوت ، المعجم ، جـ٧ ، ص٣٠١- ٣٠٢ .

(٢) عبد الرحمن زكى ، مالى بين ماضيها ، ص٢٥٥ .

(٣) بلد جنوب أفريقيا (تونس) بالمغرب وقيل قبيلة من السودان فى جنوب المغرب وفيهم قال أبو العلاء المعرى.

بسبع اماء من زغاوة زوجت   من الروم فى نعماك سبعة أعبد

وفى حد المشرق منها مملكة النوبة وطول بلادهم خمس عشر مرحلة وهم يعبدون ملكهم من دون الله تعالى ويتوهمون بأنه لاياكل الطعام ولبسه سراولات من صوف رقيق والانشاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف والخز والديباج الرفيع ويده مطلقة فى رعاياه يسترق من شاء منهم ، أمواله المواشى من الغنم والبقر والخيل والجمال وزروع بلدهم أكثرها الذرة واللوبيا والقمح وأكثرهم عراة مؤتزرون بالجلود ومعايشهم من الزروع واقتناء المواشى .

ياقوت ، المعجم ، جـ٤ ، ص٣٩٢ .

(٤) عبد الرحمن زكى، الإسلام والمسلمون، ص٦٦ .

تتوسع فى أواخر القرن الثالث عشر فى عهد ملكها دونامة الأول وسليمان وفى عهود خلفائهما فانتشر نفوذها حتى بلغ حدود مصر وطرابلس وهكذا حتى انتقلت السلطة فى عهد السلطان عمر بن أدريس (١٣٩٤-١٣٩٨) إلى فرع آخر من هذه السلالة كما انتقل مركز النفوذ من شرق البحيرة حيث كانم إلى غربها حيث بلاد البرنو .

وقد استطاعت برنو فى عهد ملكها ماى(١) أن تخضع البلاد الثائرين وأن تبسط نفوذها على شرقى البحيرة وأن تجمع كانم معها فى سلطنة موحدة(٢). واشتهر مايات برنو بحماستهم للدعوة الإسلامية بين القبائل الوثنية .

وتمثل هجرات القبائل العربية العامل الثانى لانتشار الإسلام إذ انطلقت أغلب تلك الهجرات من مصر متجهة إما إلى شمال أفريقيا أو إلى وسطها كذلك شاهد البحر الأحمر هجرات من الجزيرة العربية واليمن إلى الشاطىء الشرقى لأفريقيا وما كان يتبع استقرار القبائل من مزاوجة ومصاهرة بين القبائل الوافدة وأهالى البلاد من انتشار للدين الحنيف .

ولكن هذا لايعنى أن القبائل التى أنطلقت إلى شمال أفريقيا قد استقرت هناك وبالمثل تلك التى وفدت على غرب أفريقيا . أو أن القبائل الوافدة من الجزيرة العربية واليمن قد استقرت على الساحل أو بجواره أو أن تلك التى سلكت طريق النيل وطريق الصحراء الشرقية استقرت فى النوبة أو فى بلاد البجة فليست هناك تقسيمات ، أو تحديدات جغرافية لانتشار تلك القبائل فى رقعة أو مساحة معينة . إذ أن هذه القبائل لم تستقر بمجرد وصولها إلى مكان معين فكثيرا ما كانت تنطلق من الشرق إلى الوسط ثم إلى الغرب، والعكس أيضا صحيح فها هى مثلا قبائل بنى هلال بعد أن وفدت إلى مصر واستقرت بالصعيد تنطلق إلى شمال أفريقيا. وسنتكلم عن كل إقليم وكل طريق على حدة، وذلك لكى يسهل فهم الموضوع حيث أننا لن نستطيع تتبع القبائل المهاجرة قبيلة بعد أخرى لكثرة القبائل واستمرار تنقلها .

كانت مصر مركزا رئيسيا للعرب الوافدين من بلاد العرب سواء كانوا جنودا أو فى جيوش الفتح أو قبائل مهاجرة فهاجرت اليها قبائل كثيرة منها كنانة وخزاعة وبنو أسد وهزيل وتميم وغطفان وسليم وهوزان وربيعة وهلال وسائر قبائل الأزد وهمدان وخثعم وقضاعة وجميع بطونها(٣).

---

(١) ماى لقب سلطان برنو .

(٢) حسن محمود ، الإسلام والثقافة ، ص٢٥٧-٢٥٨ .

(٣) ابن خلدون ، العبر، جـ٦ ، ص٣ .

وإذا تتبعنا ما أحصته المصادر من جيوش الفتح وعدد أفرادها الذين دخلوا مصر مع عمرو بن العاص والزبير بن العوام وعبدالله بن أبى سرح وغيرهم، الفترة من (١٨-٤٣هـ) لوجدنا أن عددهم يبلغ بضع عشرات من الألوف وقد أقاموا فى الفسطاط والجيزة والاسكندرية وبعض جهات الوجه البحرى والصعيد ويقال أن الفسطاط كان بها من العرب فى خلافة معاوية اربعون الفا[1] .

ولم يتوقف تدفق العرب على مصر بقيام الدولة العباسية بل أدى تعصب العباسيين للفرس إلى مزيد من هجرة بعض القبائل العربية فكان ان هاجرت إلى مصر بطون كثيرة من قبيلة ربيعة فى عصر المتوكل واستقرت بالصعيد .

واستمرت هجرة القبائل العربية إلى مصر فى عهد الدولة الفاطمية فقد هاجرت قبائل من طئ وقبائل من فزارة ، كما شجع الخليفة العزيز بالله الفاطمى قبيلتى هلال وسليم على الهجرة إلى مصر وانزل افراد كل منهما بصعيد مصر[2] ، وهكذا تمثل فى مصر فى العصر الفاطمى جميع فروع شجرة النسب العربية فمن عرب الجنوب جذام وطىء وبلى وجهينه ومن عرب الشمال كنانة وقيس وفزارة وربيعة وهوزان وهلال ، ومن الطبيعى أن يؤدى اختلاط تلك القبائل العربية بالمصريين إلى تعريب البلاد وانتشار الإسلام فيها.

ثم كان ان شجع الفاطميون قبائل بنى هلال وسليم على الهجرة إلى المغرب لتجنب فسادهم فى مصر[3]. وقد أدى تدفق الهلالية على المغرب إلى هجرة قبائل البربر إلى نواحى تادمكة قرب مراكش[4] كما صارت سجلماسة موطنا لمكناسة[5] اما قبائل هوارة لمطة فتحركت إلى ما يلى بلاد كوكو من السودان [6] كما توغلت تلك

---

(١) المقريزى، البيان والاعراب، ص٩٥ .

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ، ص١٣ .

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ، ص١٤-١٦ .

(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ، ص١١٤-١١٨ .

(٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص١٣٠ .

(٦) السودان معناه بلاد السود وتدل على جميع البقاع التى يقطنها السود من قارة أفريقيا وتطلق بصفة أعم على تلك المنطقة شبه الصحراوية من أفريقيا التى تغلغل فيها الاسلام أو بمعنى آخر جميع الأراضى التى إلى الجنوب من الصحراء الكبرى أى من المحيط الأطلس غربا إلى الحدود الغربية لأثيوبيا وتساير حدود خط عرض ١٠ شمالا .

دائرة المعارف الإسلامية، مادة سودان، جـ١٢ ، ص٣٢٧ إلى ٣٢٨ .

أما الأقدمون فيعرفونها أنها تلى المغرب الأعلى المتصل بطنجة ممتدا من بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) التى فى جنوب مصر والمغرب .

أبوحامد ، تحفة الألباب ، ص٤١ .

أولها من المغرب الأقصى إلى المشرق الأقصى .

ابن الوردى، خريدة العجايب ، ص٥٣ .

القبائل جنوبا ناشرة الاسلام فى غرب أفريقيا[1]. كذلك ساهمت لمتونة فى نشر الإسلام فى السودان حتى أن ابن خلدون يقول «ودان لملكهم عبدالله عشرون ملكا من ملوك السودان[2]. وقد ساهم المرابطون فى نشر الاسلام فى غرب أفريقيا على يد عبدالله بن ياسين[3]. أما الطوارق فكان لهم شأن عظيم فى نشر الإسلام فى منطقة السنغال والنيجر حتى امتدت هجرات البربر إلى بلاد برنو ووصلت إلى دارفور شرقا [4].

وقد شهدت النوبة والبجة ووسط السودان هجرات عربية تمثلت فى قدوم قبائل وأفراد عليها منذ فجر الإسلام وهؤلاء قاموا بدور عظيم جدا فى نشر الإسلام فى تلك البقاع وكان انتشار الإسلام فى تلك الأنحاء سابقا على الفتوح الإسلامية ولايعنى ذلك أن نسبة المسلمين كانت كبيرة وإنما كل ما نعنيه هو أنه وجدت أعداد منهم فعلا فى تلك البلاد منذ وقت مبكر ودليلنا على ذلك معاهدة «البقط» أو «صلح النوبة» التى وقعت فى عام ٣١هـ فى ولاية عبدالله بن أبى السرح وهى المعاهدة التى نص فيها على عدم المساس بالمسجد المقام فى دنقله [5].

وفى الصلح الذى عقد فى عهد الخليفة المأمون سنة ٢١٦هـ (٨٤١م) بين عبدالله بن الجهم وكنون بن عبد العزيز ملك البجة اتفق على شروط منها:

١- إذا دخل أحد من المسلمين فى بلاد البجة للتجارة أو الاقامة أو مجتازا للحج فهو آمن.

٢- ألا يهدم البجة شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون[6].

ويفهم من هذين الشرطين أن الإسلام كان موجودا قبل تلك الحملة وإلا لما نص الصلح على عدم هدم المساجد التى أقامها المسلمون. كما أن عبور المسلمين لتلك البلاد

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص١٤١ .

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ، ص١٨٢ .

(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ، ص١٨٢ .

(٤) حسن محمود ، الإسلام والثقافة، ص٦٣ .

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ، جـ١ ، ص٥٠ .

تنقص هذه المعاهدة قول السعدى «وأول دخول الإسلام بلاد النوبة خلافة هارون الرشيد ولكن دون تمسك بالشريعة».

السعدى، تاريخ ملوك السودان ، ص١ .

(٦) مصطفى مسعد ، البجة والعرب ، ص٢٥ .

فى طريقهم للحج أو للتجارة عجل بنشر الإسلام بين الأهالى لأن العنصر الأقوى حضاريا هو العنصر المؤثر والعرب بالطبع كانوا أكثر تقدما وأوفر حضارة.

وجدير بالذكر أن هذه الهجرات لم تكن فى معزل عن التطورات السياسية والاجتماعية التى ألمت بالعالم الإسلامى وإنما تأثرت بالتغيرات السياسية والاجتماعية الجارية وخاصة فيما يرتبط بانتقال الخلافة من دولة إلى أخرى.

فسقوط الدولة الأموية أدى إلى هجرة جماعات من بنى أمية إلى المغرب كما أدى إلى هجرة آخرين إلى أوطان البجة. هذا إلى جانب أن ازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية على حساب العرب منذ عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣-٨٤٢م) قد أدى إلى تزايد هجرة القبائل العربية إلى أقاليم النوبة والسودان وأوطان البجاة .

وكان لاستعانة الدول المستقلة في مصر منذ العصر الطولونى بعناصر من الترك والسودان والمغاربة وغيرهم أثره فى اسقاط العرب من العطاء وفرض الضرائب عليهم مما أدى إلى ازدياد عمق الهجرة العربية إلى الجنوب(١).

ومن ملامح هذه الهجرات أن فرعا من قبيلة ربيعة التى استقرت بالقرب من أسوان استطاع أن يبسط نفوذه على المريس وهى الجزء الشمالى من بلاد النوبة وكان أن خلع الحاكم بأمر الله الفاطمى لقب كنز الدولة على زعيم ربيعة لقضائه على الثائر الأموى أبوركوة (٩٩٧-١٠٢١م) ومن ثم فقد عرف بنو ربيعة فى تلك الجهات باسم بنى كنز ولم يلبث بنو كنزأن نشروا نفوذهم على الجزء الشمالى من بلاد النوبة وخاصة بعد أن صاهروا النوبيين بل أنهم تمكنوا من مصاهرة البيت المالك في دنقلة وبذلك مهدوا للوصول إلى عرش النوبة بعد أن اضعفته حملات المماليك(٢).

على أنه يبدو أن المهاجرين الأوائل لم يكونوا من ربيعة وحدها وإنما يحتمل أن تكون المجموعة الجعلية قد بدأت هجراتها من مصرفى القرن العاشر الميلادى سالكة طريق العطمور لتتجنب مقرة (٣).

وتشتمل المجموعة الجعلية على قبائل أخرى لها أسماء خاصة بها مثل قبيلة الشايقية والرباطاب والميرافاب وأغلبهم من العرب العدنيين وتمتد أوطان هذه المجموعة

(١) حسن محمود الإسلام والثقافة ، ص٣١٦ .

(٢) يوسف فضل، مقدمة فى تاريخ الممالك، ص١٤ .

(٣) محمد عوض ، السودان الشمالى، ص٢١٠ .

من دنقلة فى الشمال إلى بلاد الدنكافى في الجنوب كما أن لهم أوطانا أخرى بعيدة عن النهر فى سهلى البطانة وكردفان [1].

ومن القبائل التى انتشرت بوجه خاص فى مصر وأفريقيا والمغرب عن طريق الفتوح الإسلامية والهجرة جهينة وتنتمى إلى القحطانيين وقد انقسمت قحطان إلى شعبتين كبيرتين هما كهلان وحمير تفرعت من كهلان عدة قبائل مشهورة مثل جذام ولخم وكندة ومن حمير تفرعت قضاعة وبلى[2].

كذلك وصلت مجموعة الكواهلة إلى أفريقيا وأن كانت هذه المجموعة تعد مجموعة صغيرة إذا ما قيست إلى المجموعتين الكبيرتين السابقتين وقد نزلوا فى وقت متقدم على سواحل البحر الأحمر ما بين عيذاب وسواكن وخالطوا البجة وانتقلت بطون من الكواهلة من شرق السودان واتخذت لها أوطانا فى إقليم عطبرة والنيل الأزرق ثم هاجرت جماعات أخرى ونزلت على النيل الأبيض كما انتشرت فى كردفان [3].

كما يذكر بوركهارت أن قبيلتى الجوابرة والغربية (فخذ من أفخاذ زناته) قد استولتا على الإقليم من أسوان إلى وادى حلفا واستولت عشيرة من عشائر قريش على المحس[4].

ومن ناحية أخرى فإن هجرة العنصر العربى إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر لم تكن رهنا بانبثاق الدعوة الإسلامية فقد هاجرت جماعات من السبئيين منذ القرن الخامس قبل الميلادى نازحة من جنوب بلاد العرب واستقرت فى بادىء الأمر فى جزر هذا البحر فى سقطرة ودهلك وانتشرت على امتداد شواطىء أفريقيا الشرقية ومن هناك أنشأوا طرقا للقوافل لتسير فيها الإبل إلى المناطق الداخلية. كما عبر العرب باب المندب إلى أفريقيا .

وببزوغ نور الإسلام قويت الصلة بين شاطئى البحر الأحمر كما ازداد عدد المهاجرين العرب.

ولم يكن عبور البحر يمثل مشكلة أو عقبة كبيرة فى الانتقال بين الشاطئين العربى والأفريقى فقد كانت العلاقات بين أهالى الشاطئين فى الجزء الجنوبى من البحر الأحمر أى بين اليمن والحبشة أقوى من العلاقات فى الجزء الأوسط حيث يزداد اتساع البحر.

---

(١) محمد عوض ، الشعوب والسلالات ، ص٣١٩-٣٢٠ .

(٢) محمد عوض ، السودان الشمالى، ص٢٠٨ .

(٣) محمد عوض ، الشعوب والسلالات ، ص٣٢٤-٣٢٥ .

(٤) بوركهارت ، رحلته ، ص١١٧ .

على أنه بظهور الإسلام حدث تحول واضح فى الجزء الأوسط من البحر الأحمر إذ غدت تلك المنطقة معبرا قويا قريبا للأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج فازدهرت تلك المنطقة وظهر ميناء عيذاب باعتباره أهم موانىء البحر الأحمر[1].

وتعد رحلات التجار المسلمين وقوافلهم ثالث العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام حيث كانت التجارة غرضا من أغراض السفر فأهدافهم التجارية دفعت بالعرب بعيدا حتى الصين وجنوبا إلى المحيط الهندى وغربا إلى المحيط الأطلسى بل أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن تجارتهم وصلت إلى فنلندة والروسيا. أما أفريقيا فقد قطعتها قوافل العرب شرقا وغربا وكان تجارهم أحد العوامل الهامة فى نشر الإسلام لأمانتهم وتدينهم ونظافتهم مما جعلهم بسلوكهم قدوة طيبة أمام الأفريقى يحذو حذوها ويترسم خطاها .

وكما أن الجيوش والهجرات العربية خرجت من مصر انطلقت منها القوافل التجارية إلى شمال القارة وغربها ووسطها وشرقها وكانت هناك مبادلات تجارية بين شمال القارة وغربها ووسطها أما فيما يتعلق بالساحل الغربى للبحر الأحمر فإنه لم يشكل عقبة أمام التجار فعبروه وأسسوا المراكز التجارية والإمارات الإسلامية على شاطئه الغربى.

وقد ساهم النشاط التجارى لمصر والمغرب فى نشر الإسلام فى غرب القارة وساعد على ذلك قيام المدن الإسلامية على طول الطرق التجارية فكانت طرابلس مثلا على رأس أحد الطرق الهامة المؤدية إلى السودان وكانت مركزا لتجارة الرقيق كما أصبحت القيروان مدينة تجارية وازدحمت برقة بالبضائع من الشرق والغرب والجنوب [2]. كذلك نشأت المدن التجارية فى قلب أفريقيا مثل كومبى وتمبكتو ونيانى وكانت كبارة ميناء تومبكتو الحربى والتجارى وملتقى للبضائع القادمة من شمال أفريقيا ومنها تتجه إلى مالى والنيجر الأعلى وإلى هذا الميناء تصل بعض البضائع الأفريقية المنقولة عبر نهر النيجر فى طريقها إلى شمال أفريقيا [3].

وكانت القوافل المصرية تجوب أنحاء الصحراء الكبرى تحمل المصنوعات المصرية وتأتى بالمنتجات المحلية. كما حمل التجار المصريون معهم الإسلام وعلومه إلى سكان هذه الصحروات وواحاتها وسلطنات النيجر[4].

---

(١) عبد العزيز كامل، جغرافية الإسلام، ص٢٩ .

(٢) Lewis, Novel Power , p. 210 .

(٣) نعيم قداح ، أفريقيا الغربية، ص١٢٥ -١٢٦ .

(٤) زاهر رياض ، اتجاهات مصر الأفريقية، ص٧٧ .

وقد قامت تادمكة «مكة الجديدة»[1] التى أصبحت مركزا هاما لطرق القوافل فى القرن الحادى عشر الميلادى بدور بارز وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد فى تحويل اعتناق ملوك هذه البلاد للإسلام[2].

وقد وصلت القوافل المصرية إلى السودان الغربى فجابت آفاقه مثقلة بالبضائع من منسوجات متنوعة وبأصناف المصنوعات كالسروج واللبود والملح ثم تعود إلى القيروان محملة بالتبر والعاج وغيره ومصحوبة بالرقيق [3].

وقد سبقت التجارة الفتوح الإسلامية والهجرات كأحد العوامل المساعدة لنشر الإسلام فى غانة [4] إذ دخلها الإسلام عن طريق التجارة لأول مرة فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد[5] وتعد غانة فى ذلك الوقت أكبر بلاد السودان وكانت مقصد التجار

---

(١) تادمكة : ذكر البكرى أن المحل المسمى بالصحراء «تدامكة» معناها على هيئة مكة أى أن تاد بمعنى الهيئة ولكن العبدرى وهو يعرف اللغة البربرية يرد على ذلك «ليس معنى تاد الهيئة كما ذكر ولا الهيئة اسم فى لسانهم البته وإنما معنى تاد هذه وهى من أسماء الإشارة عندهم يقولون لهذا واذ ولهذين وهؤلاء ويد ولهذه تاد ولهاتين وهؤلاء تيد وليس للمثنى عبارة عندهم سوى عبارة الجمع إلا فى ألفاظ العدد فمعنى تدامكة هذه أى شبيهتها . العبدرى ، رحلته ، ص٩٠ ، ١٥٩ .

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسى، جـ٤ ، ص٤١٢ .

(٣) حسنى عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة، ص٢٩ .

(٤) يذكر أبوحامد الأندلسى المتوفى فى ٥٦٥هـ أن خمسا من قبائل غانة قد أسلمت والظاهر أن الإسلام انتشر فى غانة بصورة أكبر حيث يخبرنا أبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٢هـ بأن سلطان بلاد غانة يدعى أنه من نسل الحسن بن على ومدينة غانة هى محل ذلك السلطان وهى مدينتان على ضفتى النهر أحداها يسكنها المسلمون والأخرى يسكنها الكفار وقبل هذا التاريخ لم يكن السلطان قد أسلم فالبكرى يقول: ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحداهما المدينة التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة بها اثنى عشر مسجدا ولها الأئمة والمؤذنون وفيها فقهاء وحملة علم ومدينة الملك على بعد ستة أميال من هذه وتسمى الغابة وللملك قصر وقباب وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد من تجار المسلمين .

البكرى المغرب ، ص١٧٥ .

أبو الفدا، تقويم البلدان، ص١٥٦-١٥٧ .

أبوحامد ، تحفة الألباب ، ص٤١ ص٤٢ .

الناصرى ، الاستبصار ، ص٢١٩ .

أما موقع مدينة غانة فكانت تمتد بين وادى النيجر الأدنى شرقا والمحيط الأطلسى غربا وبين وادى السوس والصحراء الموريتانية ومنابع النيجر والضفة اليمنى لنهر السنغال جنوبا فيما كان يسمى بلغة البلاد وأكادون Wagadon أو فيما يسمى حاليا بجمهورية مالى والسنغال .

نعيم قداح ، أفريقيا الغربية، ص٢٨-٢٩ .

(٥) نعيم قداح، أفريقيا الغربية ، ص٢٩ .

من جميع بلاد القارة وإن كان أغلبهم من المغرب حيث قدموا عن طريق سجلماسة وهى آخر بلد من بلاد المغرب وهو طريق مقفر يتمثل فى مفاوز عظيمة وكان التجار يقطعونه فى حوالى خمسين يوما[١].

ويعد الذهب أهم مادة صدرتها غانة فى تلك العصور إذ بلغ من كثرته أن بعض المؤرخين بالغ أو تصور لكثرة الذهب أنه ينبت فى رمالهم[٢] ، وذكر آخرون أن الذهب الخالص ينبت بها[٣]. فى حين قال فريق ثالث أن أرضها كلها ذهب خالص[٤] ورغم ما فى كلام هؤلاء من أوهام ومبالغات إلا أنه يدلنا ويؤكد لنا أن الذهب كان يوجد بكثرة فى غانة وأنه كان دافعا للتجار المسلمين إلى القدوم إليها متحملين مشاق السفر ووعورة الطرق فى سبيل الحصول على هذا المعدن وكانت المعاملات تتم مبادلة فى ذلك الوقت حيث يحمل التجار الملح وهو هام جدا بالنسبة لأهل غانة والودع والخرز والمنسوجات وكانوا يبادلون ذلك كله بالذهب [٥].

وكان التجار يبادلون الملح وزنا بوزن من الذهب وربما بوزنين أو أكثر وكانت المبادلة تتم، بينهم فيما عرف باسم «التجارة الصامتة» وقد سبق ذكرها فى الفصل الأول.

ومن المدن التجارية التى قامت بدور هام فى الإسلام فى غرب أفريقيا **مدينة جنى** Genne التى تأسست عام ٤٣٥هـ (١٠٤٣-١٠٤٤م) والأخرى مدينة تبمكتو وكانت مركزا هاما لتجارة القوافل مع الشمال .

وكان لاعتناق **الهوصة** للإسلام أهمية كبرى فى نشر الإسلام حيث أنهم تميزوا بمهارتهم فى التجارة لدرجة أن أصبحت لغتهم لغة التجارة فى السودان الغربى[٦].

وكما قام التجار فى غرب أفريقيا بدور هام فى نشر الإسلام فإنهم قاموا بنفس هذا الدور فى البجة والنوبة ذلك أنهم انتشروا فى بلاد النوبة وكانوا يجتمعون فى مدينة بولاق حيث يفد إليها تجار النوبة والحبشة ومصر والسودان[٧]. ويبادلونهم بالخرز

---

(١) أبوالفدا، تقويم البلدان، ص١٥٦-١٥٧ .
(٢) أبوحامد ، تحفة الألباب، ص٤١ .
(٣) ياقوت ، معجم البلدان، جـ٢ ص٣٦١ .
(٤) ابن الوردى ، خريدة العجايب ، ص٥٥ .
(٥) ابن الوردى، خريدة العجايب ، ص٥٥ .
(٦) ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٦٩-٢٧١ .
(٧) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص١٩-٢٠ ؛ ابن الوردى ، خريدة العجايب، ص٥٧ .

والأمشاط والمرجان والمنسوجات ويجلبون منهم الرقيق والأبنوس وريش النعام وغيرها[1] ومعاهدة البقط تمثل فى ثناياها تسهيلا وحماية للتجار والوافدين من مصر إلى النوبة وبالعكس وكما سبق القول بأنه فى تصرفات التجار المسلمين ومعاملاتهم وثقافتهم وحضارتهم دعوة غير معلنة لاعتناق الإسلام.

ويذكر أحد الباحثين أن تجارة الرقيق مع النوبة سهلت الهجرة العربية لسببين:

أولهما : أنه على الرغم من أن معظم العبيد كانوا يجلبون من بلاد السودان بمعناها العام إلا أن غالبيتهم كانت تشترى من المقرة وعلوة مما حرم تلك البلاد من العنصر الشاب منها (وهو النوع المرغوب فيه) ومن ثم ضعف بمرور الزمن عنصر المقاومة الذى كان كفيلا بأن يحول دون توغل العرب مستقبلا.

ثانيهما : ساعد توغل التجار المسلمين على زيادة معرفة العرب بتلك البلاد مسالكها ومراعيها ولاشك أن هذه المعرفة أفادت- المهاجرين كثيرا وفتحت أمامهم عوالم جديدة وفى ضوء ما حدث بعد ذلك يبدو جليا أن التجار بعد أن وسعوا نطاق تجارتهم عملوا دعاة ومبشرين للإسلام[2].

على أنه بمناقشة هذه الآراء يبدو أن الباحث يردد أقوال المؤرخين والكتاب الأوربيين دون أن يتحقق من أقوالهم فمن غير المعقول أن يتسبب الرقيق فى خلخلة العنصر السكانى بالنوبة مما سهل توغل العرب علما بأنه يذكر وهذا حق أن الجزء الأكبر كان يجلب من السودان بمعناها العام (من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر) أى ليس من النوبة فقط. وهذا يدعونا إلى التساؤل كم يكون عدد الرقيق المجلوب الذى يحدث هذه الخلخلة ورغم أنه ليست هناك تقديرات عن عدد الرقيق المجلوب إلا أن هذا لايمنعنا من استخدام العقل والمنطق على الأقل لمعرفة هل هو عدد كبير فعلا أم أنه عدد قليل .

قدر عدد الرقيق الذى أخذه الرجل الأبيض من أفريقيا على مدى يزيد عن ثلاثة قرون بحوالى أربعين مليونا وهذا العدد تقريبى لإجمالى ضحايا صيد الرجل الأبيض للرقيق من قنص وقتل وترحيل وللحصول على هذا الرقيق كانت تتم رحلات صيد وغزوات للقرى ومحاصرة لها بواسطة الأسلحة هذا غير ما يجلبه التجار الأفريقيون.

هذا ما استطاعته الوسائل والأسلحة النارية فكم عدد ما تستطيع الوسائل البدائية قنصه فى العصور الوسطى علما بأن التجار العرب لم يشتركوا فى صيد الرقيق بل

(١) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص٤٦ .

(٢) يوسف فضل ، المعالم الرئيسية، ص١١٤-١١٥ .

كانت كل مهمتهم هي شراؤه من التاجر الإفريقي. وكم عدد ما نستطيع أن تصحبه القوافل معها علما بأن هذه القوافل لم تكن منتظمة السير كل أسبوع مثلا أو كل شهر فربما يمر العام ولاترحل قافلة واحدة فضلا عن وعورة الطرق وقلة الماء في الصحراء فطبيعي أن يكون عدد الرقيق قليلا لأنه سيستهلك الماء الذى تحتاجه القافلة إلى جانب ما تحمله القافلة من تجارات تلك المناطق وأيضا من المعروف أن أغلب تجارة الرقيق تركزت على الساحل الغربي لأفريقيا والمواجه لأوربا فعملية النهب الكبرى لأهل افريقيا قام بها الأوربيون ، بعد الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر، وكان الإسلام قد انتشر واستقر في السودان .

ولما كان الرقيق قاصرا على من لايدين بالإسلام فإنه بانتشار الديانة الإسلامية في السودان بمعناه الواسع في العصور الوسطى- فإن اعداد الرقيق المجلوب من تلك البلاد لابد أن يكون قليلا ودليلنا على ذلك قول المقريزى «مدينة بربرا قاعدة البرابر وقد أسلم أكثرهم فلذلك عدم رقيقهم في الإسلام»[1] وهكذا نخرج بنتيجة مؤداها أن الرقيق المجلوب لم يكن بالكثرة التي تؤدى إلى خلخلة السكان إلى الدرجة التي سهلت توغل العرب .

كذلك يذكر الباحث أن العرب بعد أن وسعوا نطاق التجارة عملوا دعاة ومبشرين أى أنه توجد مرحلتان لنشر الإسلام بواسطة التجار. الأولى هي توسيع نطاق التجارة والثانية هي الدعوة للدين الإسلامي. فهل أخذت المرحلة الأولى زمنا أو فترة معينة ثم بدأت المرحلة الثانية في مرحلة لاحقة والحق أن الباحث لم يذكر زمن كل مرحلة.

ولكننا نرى أن مجرد وجود التاجر المسلم في حد ذاته ولو لم يعمل إلا بالتجارة بخلقه ونظافته وعبادته وتقواه وورعه وخشوعه وحضارته كل هذا وكثير غيره في حد ذاته دعوة للإسلام . هذا إلى جانب أن هناك دليلا ماديا على انتشار الإسلام ولو بصورة محدودة في البلاد التي وصلها تجار الإسلام مبكرين[2] ففي غانة كان هناك في القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) مدينة المسلمين[3] وفي دمقلة كان هناك مسجد للمسلمين وذلك عام ٣١ هـ[4] كما وجدت مساجد في بلاد البجة في القرن الثاني الهجرى [5].

---

(١) المقريزي، الإلمام، ص٢٢ .

(٢) للتعرف على أثر التجار في نشر الإسلام في مناطق المحيط الهندى دون أن تكون الدعوة إلى الإسلام أحد مهامهم ودون تدخل الجيوش العسكرية انظر شوقي عبد القوى عثمان ، تجارة المحيط الهندى في عصر السيادة الإسلامية ، عالم المعرفة ، عدد ١٥١

(٣) أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص١٥٦-١٥٧ .

(٤) المسعودى، مروج الذهب، جـ٢ ، ص٢٤٧ .

(٥) مصطفى سعد ، البجة والعرب، ص٢٥ .

وهكذا فنحن لانميل إلى الأخذ بالرأى القائل بوجود مرحلتين لنشر الإسلام بواسطة التجار ولكننا إذا أردنا القول بوجود مرحلتين لنشر الإسلام فى أفريقيا فإننا يمكننا أن نقسم هاتين المرحلتين على النحو التالى:

الأولى وكان الإسلام فيها غير واضح إذ كان معتنقوا الإسلام الجدد من الأفريقيين يقيمون بعض شعائره ويهملون بعضها الآخر دون ما فهم واضح .

أما **المرحلة الثانية** فقد وضحت فيها تعاليم الدين الإسلامى وعمقت مفاهيمه وأقيمت شعائره صحيحة دون اخلال بها نتيجة لكثرة قدوم تجار المسلمين واقامة مناسك الحج ونشأة المراكز الثقافية والتجارية ورحيل طلاب العلم إلى منارات الثقافة فى العالم الإسلامى.

ولايمكننا وضع تواريخ محددة للمرحلتين إلا أن المرحلة الأولى لم تستغرق وقتا طويلا وإن اختلفت زمنيا من بقعة لأخرى.

ولم يقتصر دور التجار المسلمين فى نشر الإسلام على غرب أفريقيا والنوبة بل أنهم قاموا أيضا بدور مهم فى نشر الإسلام بمنطقة السودان الأوسط التى تضم مملكة الكانم[1] وبرنو وكانت التجارة تسير إليهما عن طريق فزان إلى بحيرة شاد[2] وقد أدت هذه الصلات التجارية إلى اعتناق سلاطينهم الإسلام..[3].

وبالمثل كان لتردد تجار المسلمين على الساحل الشرقى لقارة أفريقيا أثر فى إسلام أهل هذه المناطق ونشأة ما يعرف باسم دول الطراز الإسلامى[4] كذلك نشأت المدن الكبيرة على الساحل مثل مقدشو التى وصلها البهار من كافة الأرجاء[5] كما زادت

---

(١) الكانم: بلادهم بين أفريقيا وبرقة ممتدة فى الجنوب إلى سمت المغرب الأوسط (حول بحيرة تشاد).

القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٢٨٠ .

(٢) هوبير ، الديانات فى أفريقيا، ص١٣١-١٣٢ .

سر الختم ، العلاقات بين مصر والسودان، ص٨٩ .

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٢٨٠-٢٨١ .

(٤) الطراز الإسلامى وهى البلاد المقابلة لبر اليمن على أعالى بحر القلزم وما يتصل به من بحر الهند ويعبر عنها بالطراز الإسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له.

القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٣٢٤ .

وقد اشتهرت فى هذا الطراز امارات أو ممالك سبع وهى أوفات، دوارو، وأرابينى وهدية وشرحا وبالى ودارة وهذه عدا المشيخات الإسلامية الممتدة على الساحل مثل عوان ومقدشو وكلوة وغيرها.

ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية ، ص٢٣ .

(٥) عبد الرحمن زكى، صبح الأعشى ، ص٥٠ .

أهمية جزيرة دهلك في بحر القلزم أمام ساحل الحبشة وكانت ترسو بها جميع السفن المارة فى هذا البحر(١) وزالغ وهى مدينة مزدحمة ويصلها كثير من التجار وترسو بها كثير من السفن المارة فى البحر الأحمر(٢) وغير ذلك من المدن والمراكز التجارية التى عمرها التجار المسلمون يدلنا هذا على ما كان من أثر لتلك المراكز التجارية فى نشر الدين الإسلامى وقد تأسس على الشاطىء الشرقى للقارة سبع امارات اسلامية نتيجة لذلك.

حقيقة أن تجار المسلمين لعبوا دورا كبيرا ومهما جدا فى نشر الإسلام ليس فى القارة الأفريقية فحسب ولكن فى المناطق التى لم تصلها جيوش العرب فى الصين وجنوب شرق آسيا فمعنى وصول الإسلام إلى هذه المناطق التى لم تصلها جيوش العرب يدلنا على ما كان للتجار من فضل فى نشر الإسلام فى كافة بقاع العالم وخاصة فى أفريقيا .

ولكن هذا النشاط التجارى الزاهر الذى شهدته أفريقيا فى القرون الأولى للإسلام وتوالى وفود التجار المسلمين عليها يدعونا إلى التساؤل عن مدى ما وصل إليه التبادل التجارى فى العصر الذهبى للتجارة العالمية ألا وهو العصر المملوكى ودور مصر فى الحركة التجارية بين ارجاء القارة .

مما لاشك فيه أن مصر قامت بدور كبير ليس فى التجارة الداخلية للقارة فحسب ولكن فى التجارة العالمية وقد أهلها موقعها وثراؤها وعظمتها السياسية فى العصر المملوكى لأن تقوم بأهم دور تجارى فى العالم فى ذلك الحين وتعددت صلاتها التجارية بجميع أرجاء القارة.

وفضلا عن أهمية موقع مصر للتجارة العالمية فانه قامت بها صناعات متعددة أشهرها صناعة النسيج بمختلف أنواعه من حرير وصوف وقطن وكتان الذى كانت أشهر مراكز انتاجه مدينة بوش على شاطىء النيل بجوار منية القائد(٣) وكانت منسوجاتها مطلوبة فى أنحاء العالم إلى جانب معدنى الشب والنطرون.

وقد أطلق على التجار الذين قاموا بالجزء الأكبر من النشاط التجارى فى المحيط

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٣٣٥ .

(٢) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٢٤-٢٥ .

أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص١٦٠-١٦١ .

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة، جـ١ ، ص٣٩ .

الهندى وأفريقيا والبحر الأحمر ومصر اسم **الكارمية**[1] وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى دولة المماليك بضاعة من أهم البضاعات التى قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها وهى التوابل والبخور والصمغ والعاج وغيرها من منتجات أفريقيا وأسيا وقد أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل [2].

ومما لاشك فيه أن التجارة الكارمية كانت الركيزة الاقتصادية لدولة المماليك وأحد أسباب ثرائها الفاحش فى تلك العصور .

ولم يكن منشأ الكارمية فى عصر المماليك ، بل أنهم وجدوا قبل هذا العصر إذ يشير القلقشندى إلى أن الدولة الفاطمية كان لها أسطول بعيذاب لحماية التجارة الكارمية فيما بين عيذاب وسواكن من قراصنة كانوا بجزائر البحر الأحمر يعترضون المراكب وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ثم صارت ثلاثا وكان والى قوص هو المتولى أمر هذا الأسطول وربما تولاه أمير وكان يحمل إلى هذا الأسطول كفايته من السلاح[3].

وسلكت الدولة الأيوبية مسلك الدولة الفاطمية فى الحفاظ على تجارة البحر الأحمر من الخطر الصليبى حيث فشلت الحملة التى قادها ارناط أمير حصن الكرك لقطع طريق البحر الأحمر [4]. وعملت على توكيد نفوذ الكارمية وتشجيعهم على التوسع فى مشروعاتهم التجارية. ونعرف من ابن دقماق أن تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين وقف للكارمية فندقا لسكناهم بمصر[5] وأن تبنى للتجار الكارمية الفنادق فى مصر

---

(١) الكارمية: لامعنى له فى اللغة ويقال أن أصله الكانمى بالنون نسبة إلى الكانم فرقة من السودان ذلك أن طائفة منهم كانوا مقيمين بمصر شأنهم المتجر فى البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم القلقشندى، ضوء الصبح المسفر ، ص٢٥٣ .

يفترض البعض أن الاسم أخذ من متاجرهم نفسها إذ وجد أن كلمة Kuaraima وهى لفظة أمهرية تفيد معنى الحبهان وهو تابل من التوابل اشتغلوا بالاتجار فيها ثم حرفت هذه الكلمة وأصبحت كارم وأطلقت على هؤلاء التجار.

صبحى لبيب ، التجارة الكارمية، ص٦ .

على أنه إلى الآن تبقى مجرد التكهنات فى سبب تسميتهم بهذا الاسم .

(٢) سعيد عاشور ، العصر المماليكى، ص٢٩٠-٢٩١ .

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى ، جـ٣ ، ص٥٢٤ .

(٤) أبوشامة ، الروضتين ، جـ٢، ص٣٥ .

ابن الأثير، تاريخ الكامل، جـ١١ ، ص١٩٩ ؛ ابن جبير ، الرحلة، ص٢٩-٣٠ .

(٥) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤، ص٣٠ .

يعنى أنهم أصبحوا ذوى مركز اقتصادى ثابت وأن الدولة تشجعهم على الاستمرار فى نشاطهم التجارى .

ومن الطبيعى أن يزداد الكارمية ثراء وأن يتزايد نشاطهم التجارى فى العصر المملوكى الذى شهد تحول التجارة عن الطرق التجارية العالمية المارة فى آسيا نتيجة للاضطرابات الناشئة عن حروب المغول وتركزها فى طريق البحر الأحمر الذى تسيطر عليه دولة المماليك. حتى أن البحر الأحمر لم يشهد طوال عصور التاريخ حتى افتتاح قناة السويس مثل هذا النشاط التجارى الذى شهده على يد الكارمية .

وقد عمل سلاطين المماليك على حماية الكارم والمحافظة على مكانتهم حتى أصبحوا فى مركز اقتصادى واجتماعى عظيم.

وكان من أهم الأعمال للحفاظ على الكارمية هو السهر على حمايتهم[1] وتأمين طرقهم التجارية فى البحر الأحمر وقد كان سلاطين المماليك يقومون بحل كل مشاكل الكارمية دونما ابطاء أو تأخير وكان كثير من مشاكلهم يعرض على السلطان فمثلا فى (سنة ٦٦٢هـ، ١٢٦٣م) تقدموا بشكوى فى حق متملك سواكن ومتملك جزيرة دهلك بأنهما يتعرضان لأموال من يموت من التجار فى بلادهم فأرسل السلطان الظاهر بيبرس رسولا ينكر عليهما ذلك[2] ويبدو أن الانذار لم يكن كافيا لردعهما عن أفعالهما مما حدا بالسلطان الظاهر بيبرس إلى إرسال أوامره إلى والى قوص لإرسال حملة عسكرية إلى سواكن (٦٦٤هـ- ١٢٦٤م) واستطاعت الحملة أن تحقق أهدافها فنشرت الأمن وبسطت الحكم المصرى على سواكن [3].

وبالإضافة إلى محافظة المماليك على سياستهم فى تأمين الطرق التجارية والموانىء فأنه كان للسياسات الإسلامية التى اتبعتها الدولة الإسلامية بعدم دخول أى سفن أو تجار أجانب غير مسلمين إلى البلاد الإسلامية أثر كبير فى زيادة ثروة الكارمية فلم يكن يسمح للسفن الهندية والصينية باجتياز عدن إلى الشمال لأن عملية نقل البضائع الصادرة إلى الشمال كانت موكولة إلى سفن إسلامية كما لم يسمح سلاطين المماليك لأى تاجر أوربى بأن يتوغل جنوبا بتجارته أو بمفرده إلى بلاد النوبة خوفا من تآمر هؤلاء التجار مع الحبشة ضد المسلمين وكان هذا هو السبب الظاهرى أما السبب

---

(١) انظر الفصل الرابع عن جهود المماليك فى تأمين الطرق التجارية.

(٢) المقريزى، السلوك، جـ١ ق٢ ص٥٠٦ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ق٢ ص٥٥٠ .

الحقيقى فهو حرص المماليك على عدم معرفة الأجانب بالطرق التجارية المارة فى البلاد[1].

ونتيجة لهذا سيطر الكارمية على تجارة البحر الأحمر ووصلوا بتجارتهم إلى السودان الغربى والأوسط والنوبة ، كما وصلوا بمتاجرهم إلى بلاد الحبشة ودول الطراز الإسلامى والمشيخات الإسلامية على ساحل البحر الأحمر ، ولعل أعظم ما أقبلت عليه تلك الجهات الافريقية من متاجر مصر اقمشتها وكان ملوك المسلمين بالحبشة يؤدون إلى الحطى (ملك الحبشة) ضريبة سنوية من الأقمشة الحريرية والقطنية التى تأتيهم من مصر [2]. كذلك أصبحت موانى البحر الأحمر مخازن لتجمع بضائع الكارمية قبل نقلها إلى مصر.

وقد تضخمت نتيجة لذلك ثروة تجار الكارمية وتوطدت مكانتهم فى مصر وأصبحوا ذوى مركز سياسى واجتماعى مرموق ولما لم يكن قد عرف فى ذلك العصر مصادر أخرى للاستثمار المالى سوى التجارة نتج عن ذلك كثرة المال السائل معهم فقاموا بدور قريب من دور البنوك فى العصر الحديث من حيث اقراض الأموال ، فأقرضوا الملوك للقيام بالمشروعات سواء حربية أو غيرها من ذلك أن السلطان برقوق (٧٩٦هـ) اقترض من بعض تجار الكارمية مائتى ألف دينار ولم يقدم التجار القرض إلى السلطان إلا بعد أن كتب ضمانا ضمنه فيه أحد الأمراء [3]. كذلك طلب الأشرف قايتباى (سنة ٨٩٣هـ) من التجار مساعدته على تجهيز الجيش بمبلغ أربعين ألف دينار فلما اعتذر التجار بضخامة المبلغ ظل يقلل عنهم إلى أن رضوا بدفع مبلغ اثنى عشر ألف دينار [4].

ولم يقتصر اقراضهم على سلاطين مصر بل اقرض احدهمالسلطان منسا موسى ملك مالى عند مروره بمصر. ويذكر ابن شاهين أن أحدهم بنى مدرسة من ريع يوم واحد من متجره [5].

ولا أدل على المكانة المالية التى وصل إليها تجار الكارمية من كونهم غدوا لايثقون فى سلطان البلاد الحاكم الأمر الناهى ويطلبون إلى أحد الامراء ضمانه مما يدل على مدى سطوتهم وقوة مركزهم بالاضافة إلى مساهمتهم فى تجهيز بعض الحملات العسكرية .

---

(١) سليمان عطية، سياسية المماليك، ص٥٦-٥٩ .

(٢) حامد عمار، علاقات مصر المملوكة، ص١١٩ .

(٣) ابن أياس ، تاريخ مصر ، جـ١ ص٣٠٢ ؛ ابن حجر ، ابناء الغمر، ص١٧٥ .

(٤) ابن اياس ، تاريخ مصر، جـ٢ ، ص٢٤٥ .

(٥) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٤١ .

وقد تكونت نتيجة لهذا النشاط التجارى الحافل شركات سواء بين التجار الكارمية بعضهم بعضا أو بينهم وبين الوطنيين والأجانب ونعرف من رواية للمقريزى أنه كانت هناك شركة بين كارمى وأحد الفرنج، وقد ساهم الكارمى برأس المال وقدره عشرون ألف دينار على أن يقوم التاجر الفرنجى بتشغيل المبلغ وقد استخدم هذا المبلغ لسداد دين لذلك الفرنجى كان على السلطان وقدره ستة عشر ألف دينار، حيث كان السلطان قد اشترى منه جواهر ثمنها ١٦,٠٠٠ دينار واعطاه حوالة على كريم الدين قاضى القضاة ، ولم يكن مع كريم الدين المبلغ فقام التاجر الكارمى بتسديده من قيمة رأسماله مع ذلك التاجر الفرنجى (١).

ومن أهم البيوتات التجارية الكارمية التى حفل تاريخها بالاجتهاد والرغبة فى توطيد مكانتها المالية ، الأمر الذى دعم بهذا مكانة مصر فى التجارة والاقتصاد فى ذلك العصر ، آل الخروبى والكويك الذين توارث الكثير منهم رئاسة التجار فى مصر وجدير بالملاحظة أن تلك البيوتات التجارية غلب عليها الطابع الأسرى بحيث يرث كل جيل نشاط الجيل السابق ومكانته التجارية والمالية فضلا عن تجربته وخبرته إذ كان الكارمى يدرب أولاده ومن يتخيره من عبيده ذوى الفطنة والذكاء على مباشرة اعماله التجارية الواسعة فيرسلهم إلى الأسواق الكبرى فى مصر والحجاز واليمن والهند والحبشة وبلاد التكرور وغيرها متاجرين مستثمرين مدعمين فى نفس الوقت مكانة الأسرة المتوارثة فى تلك الأسواق كذلك كانوا يتخذون الوكلاء والعبيد ليجلبوا إليهم متاجر تلك البلاد أو يستقرون بها ويروجون فيها أيضا المتاجر التى يرسلونها إليهم(٢).

وقد كون التجار الكارمية نقابة لهم فى قوص هيمنت على تجارة التوابل وكان رئيسها يطلق عليه رئيس الكارمية(٣). وهو أكثر الكارمية، مالا ونفوذا وجاها ويخضع له سائر التجار حتى اكابرهم وله المكانة الرفيعة فى مصر وعند سلاطينها فضلا عن مكانته المرموقة وكلمته المسموعة فى مختلف الأسواق التجارية(٤).

وهذا المركز المالى الممتاز لتجار الكارمية يجعلنا نتساءل عما جنته الدولة فى مصر من وراء حمايتها لنشاط الكارمية.

فى الحقيقة أدى تجار الكارمية للدولة خدمات جليلة فقد جعلوا مصر (وان كان هذا

---

(١) المقريزى، السلوك ، جـ٢، ص١٠٢ – ١٠٤ .

(٢) صبحى لبيب ، التجارة الكارمية، ص٣١-٣٢ .

(٣) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٢٩٠-٢٩١ .

(٤) صبحى لبيب التجارة الكارمية، ص٣٤٢ .

عملا متكاملا بين الدولة والتجار ولايمكن أن يتم فى غياب احدهما) مركزا للنشاط التجارى فى العالم القديم المعروف حينئذ مما أدى إلى ازدياد ثروة سلاطين مصر. كذلك أصبحت مصر قبلة السفارات التى وفدت عليها من دول العالم المختلفة . ومن الطبيعى أن تزدهر الفنون والصناعة فى ظل الثراء وهذا ما نلحظه عن عصر المماليك . فضلا عن مساعدتهم الدولة فى تجهيزها للجيوش المسيرة للحرب .

وهكذا حمل هؤلاء الكارمية عبئا ضخما من أعباء الحروب فى المال والتكاليف فى حين كانت الأرض الزراعية المصرية تعول فلاحيها القراريين وتقطع اقطاعات لجندها المماليك. لذلك كان على الثروة التجارية المصرية والقوامين عليها أن تنهض بتكاليف الجيش ومطالبه من استعدادات حربية ومادية ومصاريف حملات متكررة ولاغرابة إذ تحمل الكارمية وهم أكثر التجار عملا وأوفرهم مالا العبء الأكبر فى مواجهة تكاليف الحرب المسلطة على مصر طوال العصرين الأيوبى والمملوكى[1] . هذا فضلا عن الضرائب الباهظة التى كانت تجمعها الدولة منهم[2].

ولم يقتصر نشاط التاجر الكارمى على التجارة ومساعدة الدولة بل بذل من ماله فى سبيل دعم الثقافة الإسلامية فكان ينهل من علوم الإسلام والثقافة وينشرها فى دروب الأرض ما وسعه الجهد. والواقع أن جهود الكارمية فى سبيل العلم والثقافة الإسلامية جديرة بالتسجيل والاعتبار. من ذلك مثلا أن عبد العزيز بن منصور الكولى كان متسعا فى نفقاته وكان يكثر البر والمعروف ويخرج زكاة ماله وله عدة أوقاف على مكاتب سبيل وبر [3]، كذلك كان عبد اللطيف بن أحمد أحد رؤساء الكارمية يعلم الحديث ويفرق على كل من سمع عليه دينارا كما بنى مدرسة بالثغر كذلك أوصى محمد بن مسلم بتعمير مدرسة بأسمه ورصد لذلك مبلغ ١٦ ألف دينار[4].

ونتيجة لكل تلك المنافع التى عادت على الدولة من التجار الكارمية أولاهم سلاطين المماليك اهتماما خاصا وانشأوا وظيفة هامة لرعاية مصالحهم هى وظيفة نظر البهار والكارمى[5].

---

(١) صبحى لبيب، التجارة الكارمية، ص٣٥ .

(٢) يرجع إلى الفصل الرابع لمعرفة الضرائب التى حصلتها الدولة من التجار.

(٣) المقريزى، السلوك ، جـ٢ ، ص١٣٢-١٣٣ .

(٤) صبحى لبيب، التجارة الكارمية، ص٣٩-٤٠ .

(٥) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٤، ص٣٢ .

وقد أدى انتشار الإسلام فى أفريقيا وحرص المسلمين فيها على أداء فريضة الحج[1]. إلى ازدياد النشاط التجارى بين تلك البلاد من ناحية ، والبلاد الواقعة على طريق قوافل الحج من ناحية أخرى . ذلك أنه من فوائد قوافل الحج أنها طرقت الطرق وخبرتها وجعلتها أكثر أمانا كما خبرت البلاد الواقعة على تلك الطرق وعرفت تجاراتها ومنتجاتها وطرق تعاملها، أى أنه صارت هناك معرفة تامة بأحوال الطرق والبلاد مما أدى إلى تردد القوافل التجارية جيئة وذهابا طوال العام وفى أى وقت منه.

وقد اشتهرت مدن مصرية بأنها محط لقوافل تجار جهات معينة من أفريقيا فاشتهرت الاسكندرية بأنها الميناء الرئيسى الذى ترسو فيه سفن المغاربة[2] التجارية [3]. كما صارت المحطة الأولى التى تستقبل جموع الطلبة والعلماء والحجاج المغاربة القادمين إلى المشرق لتأدية فريضة الحج كما استقبلت القوافل التجارية البرية والبحرية [4].

وتؤيد الاشارات المتناثرة فى ثنايا الكتب وصول التجار المصريين إلى بلاد المغرب أو وصول تجار المغاربة إلى مصر فيذكر ابن خلدون أنه حضر إلى مصر فى سفينة لتجار الاسكندرية كانت مشحونة بالبضائع واستغرقت رحلتها أربعين ليلة من ميناء تونس[5]. كذلك يذكر ابن خلدون أيضا أن السلطان أبا تاشفين ملك تلمسان لما قبض على ابيه سنة ٧٩٥هـ سرحه إلى المشرق لقضاء فريضة الحج فى سفينة لبعض تجار النصارى المصريين المترددين على تلمسان من الاسكندرية [6].

---

(١) من المعروف أن ميعاد الحج يتغير سنويا حيث تسبق السنة العربية الميلادية باثنى عشر يوما ومعنى ذلك أن قوافل الحج خبرت تلك الطرق على مدار السنة صيفا وشتاء .

(٢) هذا الاتصال الوثيق بالمغرب اعطى الاسكندرية طابعا مغربيا لانزال نلمسه حتى اليوم فمعظم أهالى الاسكندرية تعصبوا للمذهب المالكى حتى فى خلال العصر الفاطمى الشيعى كذلك نلاحظ التأثير المغربى فى أسواق المدينة فنجد فيها سوق المغاربة وزنقة الستات وزنقة كلمة مغربية معناها الشارع ولايستعمل إلا فى مدينة الاسكندرية دون بقية المدن المصرية كذلك اللهجة المحلية الدارجة لسكانها انفردت بتأثير مغربى ومثال ذلك استعمال صيغة الجمع للمفرد المتكلم فيقولون مثلا تاكلوا أو تشربوا كما يلاحظ أن معظم المساجد المشهورة بالمدينة لعلماء وأولياء من المغاربة مثل أبى بكر الطرشوشى نسبة إلى طرطوشة Torrtosa فى شمال شرق أسبانيا وأبى العباس المرسى نسبة إلى مرسيا Marcia فى شرق الاندلس .

لسان الدين الخطيب ، أعمال الاعلام، ص٥٢ .

(٣) ابن الحجر ، إنباء الغمر، جـ٢ ورقة ١٥٤–١٥٥ .

(٤) لسان الدين الخطيب ، أعمال الاعلام، ص٥٢ .

(٥) ابن خلدون ، العبر، جـ٧ ، ص٤٥١ .

(٦) ابن خلدون، العبر، جـ٧، ص١٤٤ .

وقد حملت قوافل المغرب إلى الإسكندرية القمح ورقيق السودان من القيروان التى كانت مركزا تجاريا عظيما[1]. وحملت الزيت من سفاقس وتاجرت مع المهدية وطرابلس كما كانت الأقمشة الحريرية تنسج فى القيروان وتجهز فى سوسة وبالقرب من قفصة كان يصنع نوع خاص من الكساء يصدر إلى مصر[2].

وأجمل ابن حوقل أهم منتجات المغرب المصدرة إلى المشرق «فأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان والعنبر والحرير والأكسية الصوف الرقيقة والحديد والرصاص والزيبق والخدم المجلوبون من بلاد السودان والخدم المجلوبون من أرض الصقالبة والخيل النفيسة والبغال الفرة والإبل والغنم »[3]. كما جلب الزجاج الصافى من طرة[4] وتفاصيل الصوف [5]. وقد صدرت الاسكندرية العسل والقطران والسمن[6] ومختلف المنسوجات والحمر المصرية [7].

ولم تكن المبادلات قاصرة على المنتجات الزراعية والصناعية فقط بل تعداها إلى الأخذ بأساليب الصناعة وطرائقها فقد أخذت سفاقس عن الاسكندرية طريقة صناعة الأقمشة بل وتفوقت فيها .

وكما كانت الاسكندرية مدخلا لتجارة المغرب فان أسوان وقوص كانتا مركزين من مراكز تجمع التجارة القادمة من السودان والنوبة والحبشة واشتهرت موانىء سواكن وعيذاب والسويس والطور بأنها مجمع تجارة الهند والصين واليمن والحبشة ودول الطراز الإسلامى وبعض تجارة السودان.

وقد قامت علاقات تجارية وثيقة بين مصر وبلاد السودان وخاصة مالى أعظم بلاد السودان فى ذلك العصر وحدها فى المغرب المحيط وفى الشرق بلاد البرنو وفى الشمال جبال البربر وفى الجنوب الهمج [8].

---

(١) Lewis: Novel Power , p. 164 .

(٢) Lewis: Novel Power pp. 209-210 .

(٣) ابن حوقل ، صدرة الأرض ، ص٩٧ .

(٤) طرة: من عمل توزر من بلد الجريد قاعدة مكرارة بالمغرب .
الادريسى، نزهة المشتاق ، ص١٣٩ .

(٥) أبو الفدا ، تقديم البلدان، ص١٥٠ .

(٦) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص١٣٩ .

(٧) القمدسى، أحسن التقاسيم، ص٢٢٩ .

(٨) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٢٨٢ .

وليس أدل على ازدهار التجارة بين مصر ومالى[1] فى العصر المملوكى من أنه كانت هناك مدينة هى تاكدا لاعمل لأهلها سوى التجارة مع مصر حيث يسافرون إليها جالبين منها أزهى الثياب وأبهاها وغير هذا من مختلف المنسوجات التى كان يتباهى عظماء القوم باقتنائها[2]. كذلك حملوا إلى مصر النحاس المستخرج من مناجم النحاس بتكدا [3].

وقد ازدهرت مدن أخرى من مالى مثل تمبكتو التى امتازت بموقع وسيط للمسافرين بطريق القوافل وقد أصبحت تمبكتو سوقا من أهم أسواق السودان الغربى بعد انتقال سوق الذهب إليها واجتذابها للتجار من درعة وسوس وسجلماسة وفاس ومن مصر وتوت وغدامس[4] . كذلك اشتهرت تادمكة أيضا وأصبحت مركزا من المراكز التجارية الهامة بين تونس وبرقة ومصر والبلاد الافريقية [5].

وليس أدل على نمو التجارة بين مالى ومصر من وجود مصريين أو جاليات مصرية بمدن مالى فيذكر ابن بطوطة «بأنه يوجد تمبكتو قصرا لسراج الدين أحد كبار تجار الاسكندرية». «وفى مالى طلبت من بعض المصريين دواء فأتى به». و«كتب لجماعة من البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه وشمس الدين بن النقويش المصرى ليكتروا لى دار بمالى [6]. كذلك لجأ بعض التجار المصريين إلى إرسال عملائهم ووكلائهم إلى بلاد التكرور لمباشرة أعمالهم التجارية ، حيث يذكر ابن حجر أن أحد كبار تجار مصر وهو محمد ابن مسلم كان يرسل وكلائه وعملائه لبلاد التكرور للتجارة حيث يعودون إليه بربح وفير[7].

---

(١) تتألف مالى من خمس دول أو أقاليم هى مالى ، غانا، صوصو، تكرور، كوكو .
القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥، ص٢٨٢ .
صلاح الدين المنجد ، مملكة مالى، ص٥ .
وتعنى مالى حيث يعيش الملك أما شعب مالى أو رعايا مالى فتعنى ماندجو ، عبد الرحمن زكى، تاريخ الدول الإسلامية، ص٩٧ .

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ص٢٠١ .

(٣) سر الختم ، العلاقات بين مصر ص١١٩ .

(٤) عبد الرحمن زكى ، امبراطورية أفريقية ، ص٢٩-٣٠ .
دائرة المعارف الإسلامية، مادة تمبكتو ، جـ٥ ، ص٤٦٥ . Bovill: The golden trade , p. 74 .

(٥) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، جـ٤، ص٤١٢ .

(٦) ابن بطوطة ، الرحلة، جـ٢، ص١٩٤-٢٠٢ .

(٧) ابن حجر ، الدرر الكامنة، جـ٤، ص٢٠٨ .

وكان التجار المصريون من أقوى التجار مركزا وأوفرهم مالا فعندما أراد مارى جاظة[1] بيع حجر الذهب الموجود بخزائنه والذى يزن عشرون قنطارا منقولا من غير سبك ولاعلاج ويعتبر من أنفس ذخائر مالى وأغرب غرائبها لم يستطع شراؤه سوى التجار المصريين[2]. وكانت القافلة المصرية المتوجهة إلى مالى تصل فى بعض الأحيان إلى اثنى عشر ألف جملا [3]. ولقد أصبح وجود التجار المصريين فى المراكز التجارية بالسودان الغربى أمرا عاديا ومألوفا .

وقد تزايد اهتمام سلاطين مصر ببلاد السودان الغربى فعمد بعض سلاطين المماليك إلى استخدام أحد الموظفين ممن لهم المام بلغة التكرور فى بعض دواوين الحكومة وكان هذا الموظف يتولى منصبا اداريا كبيرا[4].

وكما كان لمصر جاليات أو أفراد فى مالى كان للتكاررة[5] (أى لأهل مالى) جالية كبيرة فى مصر منذ العهد الفاطمى ومن التكاررة من خدم فى الجيش **المملوكى** حيث

---

(١) مارى تعنى بلغتهم الأمير الذى يكون من نسل السلطان وجاظة معناها الاسد فيكون معنى اسمه الأمير الأسد ؛ المقريزى، التبر المسبوك، ص١١٠ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٢٩٧ .

(٣) زاهر رياض ، اتجاهات مصر، ص٧٧ .

(٤) سر الختم ، العلاقات بين مصر ، ص١١٩ .

(٥) عرفت منية بولاق «ببولاق التكرور» نسبة إلى أحد الصلحاء التكاررة هو الشيخ أبومحمد يوسف بن عبدالله التكرورى وكان يعاصر الخليفة العزيز بالله الفاطمى وقد بلغ من كثرة التكاررة بمصر أن خصص لهم رواق بالأزهر الشريف.

ابراهيم طرخان، مصر فى عصر المماليك الجراكسة ص١٤٩-١٥٠ .

تكرور : يقول بوركهارت بصدد تعريف التكرور «ليس اسم تكرورى نسبة إلى بلد تدعى تكرور كما يتبادر إلى الذهن وكما ظن جغرافيو العرب جميعهم خطأ ولكنه مشتق من الفعل تكرر أى تنقى بمعنى أن مشاعرهم الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن والحج ويطلق هذا الاسم على جميع الزنوج القادمين من الغرب مهما اختلفت أوطانهم.

بوركهارت، رحلته ص٣٢١ .

وفى الواقع وكما يحدثنا المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب المصدر الأصلى لتاريخ تلك المناطق فى العصور الوسطى حيث لم يكتب عنها أو يزورها سواهم يقولون أنه كانت هناك بلد أو مدينة تدعى تكرور فالعمرى يقول عن ملك التكرور «هو صاحب مالى ومالى عبارة عن اسم اقليم والتكرور مدينة من مدنها» والقلقشندى يذكر أن تكرور هى أحد الأقاليم الخمسة التى تكون مالى وتقع شرق اقليم كوكو .

العمرى، التعريف ، ص٢٧-٢٨ .

القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٢٨٦ .

وصل إلى أعلى الرتب مثل عنبر التكرورى الذى رقاه قايتباى إلى نائب مقدم ثم صار مقدما عام ١٤٩٩ [١].

ومما يدلنا على كثرة عدد التكاررة بمصر وازدياد مصالحهم واتساع معاملاتهم أن ابن خلدون ذكر بأنه كان لهم ترجمان هو الحاج يونس التكرورى [٢].

ومن أهم أسباب توثق العلاقات وتوطدها بين مصر ومالى ونمو التجارة بينهم، هو حج ملوك مالى ومرورهم بمصر وما كان يتبع ذلك من تدفق التجار والعلماء كما كانت العلاقات بين البلدين لاتقتصر على الحج فقط بل كانت هناك مكاتبات بين سلاطين مصر وملوك التكرور[٣].

ويذكر لنا المقريزى أسماء من حج من ملوك مالى فأول من حج منهم منسا[٤] ولى بن مارى جاطة فى أيام الملك الظاهر بيبرس ثم حج ساكبورة أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون.

على أن أعظم الملوك الذين خرجوا للحج ومروا بمصر كان السلطان منسا موسى وقد وصل إلى مصر فى قافلة كبيرة مجتازا الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات مارا بولاته وسيرته على ساحل البحر المتوسط فبرقة واتجه منها إلى القاهرة فوصلها فى عهد السلطان ناصر الدين محمد بن قلاون سنة أربع وعشرين وسبعمائة هجرية ويقال أنه قدم ومعه أربعة عشر ألف جارية لخدمته[٥].

وقد قدم السلطان منسا موسى إلى الخزانة السلطانية هدية متمثلة فى جمل محمل بالتبر كما أنه لم يترك أميرا ولا رب وظيفة سلطانية إلا وبعث إليه بالذهب [٦]. وذكر عن

---

(١) عبد الرحمن زكى ، امبراطورية افريقية ص٣١ .

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ، ص٢٠١ .

(٣) العمرى ، التعريف ، ص٢٨ .

القلقشندى ، ضوء الصبح المسفر، ص٣٧٢ .

(٤) منسا: بلغتهم السلطان «ولى» على أى السلطان على؛ المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص١٩١ .

(٥) المقريزى، الذهب المسبوك، ص١١١-١١٣ .

المقريزى، السلوك، جـ٢ ق٢ ص٢٥٥ .

عبد الرحمن زكى، امبراطورية أفريقية، ص٢٧ .

أعتقد أن الرقم الخاص بعدد الجوارى مبالغ فيه جدا لأنه من الضرورى أن يحتاج مثل هذا العدد من الجوارى إلى عدد كبير من الرجال لحراستهم ويحتاج النساء والرجال إلى عدد ضخم جدا من الإبل لحمل متاعهم وزادهم ومياههم .

(٦) القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٥ ص٢٩٥-٢٩٦ ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك، ص١١١-١١٣ .

أمير صاحب أحد المصاحبين لمنسا موسى أنه كان معه مائة جمل محملة بالذهب وقد انفقها فى سفرته تلك على من مر بطريقه إلى مصر والحجاز من القبائل [1].

وعلى الرغم مما قد يكون فى هذه الأعداد والهدايا وما حملته القافلة من مبالغة إلا أنه يبرز لنا الثراء الذى بلغته مالى حتى أن ما أنفقه منسا موسى بمصر قد أثر على سعر الدينار الذهب فانخفض ستة دراهم واستمر هذا الانخفاض لعدة سنوات [2].

ولم يكن تأدية فريضة الحج قاصرا على ملوك مالى بل أدى هذه الفريضة عدد كبير من أهل غرب السودان فيذكر ابن خلدون أنه قدم إلى مصر فى طريقهم إلى الحجاز زمن الملك الاشرف علاء الدين بن الناصر محمد حوالى خمسة آلاف من حجاج بلاد التكرور [3].

وفضلا عن العلاقات التجارية بين مصر والسودان الغربى فقد ازدهرت تلك العلاقات مع أواسط السودان والنوبة فكان يجلب إلى مصر من السودان أنواع من جلود الماعز مدبوغة دباغة جيدة فالجلد سميك لين وكان يصنع منه خفاف الملوك والأمراء ويبلغ ثمن الخف عشرة دنانير[4]. كما جلب العاج والمسك وريش النعام والرقيق وكان التجار المسافرين ببلاد السودان لايحملون زادا ولا اداما ولانقودا وإنما يحملون قطع الملح وحلى الزجاج الذى يسميه الناس النظم وبعض العطور وكان القرنفل والمصطكى اكثر ما يعجب به أهل السودان فاذا وصل التجار قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج والدقيق وغيره فيتبادل التجار معهم وكانت قرية زاغرى على مسيرة عشرة أيام من أيولاتن هى مجمع تجار السودان[5].

أما أهم ما تحصل عليه السودان من مصر فكانت المنسوجات بأنواعها والسنبل والمحلب حيث يشتد الطلب عليهما فى السودان فالأول يتعطرون به ويتطيبون والثانى يتبلون به طعامهم ويتداوون به كما كانت السودان تستورد الصابون والسكر الذى يهدى إلى عظماء القوم وإلى النساء [6].

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٢٩٦ .
(٢) المقريزى، الذهب المسبوك، ص١١١-١١٣ .
(٣) ابن خلدون، العبر، جـ٦ ، ص٢٠١ .
(٤) أبو حامد ، تحفة الألباب ، ص٤٣ .
(٥) ابن بطوطة ، رحلته ، جـ٢ ، ص١٩٣ .
(٦) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٣١-٢٣٢ .

وكان لأهل كانم نصيب كبير فى تجارة مصر الخارجية حيث اشتغلت طائفتهم بتصريف المحاصيل السودانية وتجارة الرقيق كما اشتغلوا فى تجارة البهار بين الهند والصين واليمن والحبشة وكانت قوص مركز هذه الطائفة وأصبحت بفضلهم من أعظم مراكز التجارة فى العالم[١].

ولم تقم العلاقات التجارية مع النوبة فى ظل تبادل تجارى سلمى بين بلدين مستقلين كما كانت بين المماليك ودول المغرب أو بينهم وبين دول السودان المغربى أو وسط السودان بل قامت فى فترات كثيرة تحت ظلال سيطرة عسكرية مملوكية على النوبة.

ويرجع اهتمام المماليك بالسيطرة على النوبة إلى أن هذا كان جزءا من سياستهم التجارية فى البحر الأحمر [٢]. لذلك نلاحظ أن المماليك كانوا يرسلون الحملات المستمرة والمتتالية إلى النوبة لاخضاعها لسيطرتهم وكثيرا ما حضر ملوك النوبة إلى مصر رمزا لخضوعهم حاملين هدايا مختلفة من أبقار ورقيق وسنبادج [٣].

وكانت أسوان هى المركز الرئيسى لتجارة النوبة وكانت جزيرة بلاق على بعد أربعة أميال من أسوان مرسى قوافل تجار النوبة والطريق من أسوان إليها به جنادل كثيرة ، لاتستطيع المراكب السير فيها إلا بالحيلة أو بمساعدة الصيادين الذين لهم خبرة ودراية بالمجرى المائى فى هذه المنطقة .

وفيما يتعلق بالنوبة فانه كان على ساحلها قرية تعرف بتقوى وكانت مراكب المسلمين لاتتجاوز تلك القرية إلا باذن من ملكهم وكانت التجارة تتم بين المسلمين والنوبيين مبادلة بالرقيق والمواشى والجمال والحديد والحبوب [٤]. وأتاحت الحملات المملوكية المستمرة للتجار المسلمين مزاولة نشاطهم التجارى فى جميع بلاد النوبة.

كذلك نشطت التجارة مع **البجة** حيث كان يستخرج من أرضها الذهب[٥] والزمرد ثم

---

(١) حسن محمود ، الإسلام والثقافة، ص٢٦٠ .

(٢) سعيد عاشور ، العصر المماليكى، ص٨٢ .

(٣) سنبادج مادة حجرية للطلاء .

المقريزى، السلوك، جـ٢ ق١ ، ص٨٠٧ .

(٤) المقريزى، الخطط ط لنان جـ١ ص٣٣٥-٣٣٦ .

(٥) يصف الادريسى طريقة جمع الذهب فى صحراء «البجة» فاذا كان أول ليالى الشهر العربى وآخره خاض الطلاب فى تلك الرمال بالليل ينظرون فيما يليه من الأرض فاذا أبصر التبر يضيىء بالليل علم على موضعه علامة يعرفها وبات هناك فاذا أصبح عمد كل واحد منهم إلى علامته فى كومة الرمل الذى علم عليه فيأخذه ويحمله معه على نجيبه ويمضى به إلى آبار هناك ثم يقبل على غسله بالماء فى جفنه عود فيستخرج التبر منه ثم يؤلفه بالزيبق ويسبكه بعد ذلك . الادريسى، نزهة المشتاق ، ص٢٦-٢٧ .

يحمله التجار إلى سائر الأقطار كما كانوا يقومون بنقل التجارات من موانىء البحر الأحمر إلى مصر[1].

وأهمية البجة الأخرى غير وجود الذهب بأرضها ونقل التجارات عبرها هى ميناءيها عيذاب وسواكن وقد استمر حجاج مصر والمغرب يتوجهون إلى مكة عن طريق عيذاب مخترقين بلاد البجة لفترة تزيد عن مائتى سنة كما كانت عيذاب وسواكن مراسى لمراكب الهند واليمن والساحل الشرقى لأفريقيا وكانت البضائع تفرغ فيهما لتحمل إلى مصر[2].

ولأهمية عيذاب أقام بها عامل من قبل سلاطين مصر ليقتسم جبايتها مع عامل من قبل ملك البجة [3]. كذلك أرسل السلطان الظاهر بيبرس إلى والى قوص يأمره بارسال حملة حربية لتأديب صاحب سواكن لتعرضه لأموال المتوفين من التجار المصريين فأرسل الوالى حملة سنة ٦٦٣هـ أدت إلى استقرار حامية مملوكية بسواكن وفرض الزكاة على سكانها لحساب مصر[4].

وقد مثل البحر الأحمر أهم مورد تجارى لدولة المماليك فعن طريقه كانت تأتى تجارات أسيا وشرق أفريقيا لتنقل عبر بلاد البجة إلى مصر ومنها إلى الاسكندرية وكان ذلك مبعث الاهتمام المصرى بموانىء البحر واخضاعها كلا من عيذاب وسواكن لسلطانها .

كذلك حرصت **الحبشة**[5] على اقامة علاقات من الصداقة والمودة مع أصحاب

---

(١) الادريسى ، نزهة المشتاق، ص٢٧ .

(٢) ابن إياس ، نزهة ابن اياس ، ورقة ١٧٦-١٧٧ .

(٣) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٥٦ .

(٤) المقريزى، السوك، جـ١ ق٢ ص٥٥٨ .

(٥) كان يطلق على الحبشة قديما اسم أثيوبيا ومعناها الوجه الأسود أو المحترق وهو الاسم الذى أطلقه اليونان على جميع بلاد السود الشديدى الحمرة.

ابى المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص١٨٨ .

اللفظ الاغريقى ethiopa ويتكون من مقطعين ETHI بمعنى محترق، Opa بمعنى وجه أما كلمة الحبشة ومنها الأحباش وهما اللفظان اللذان صارا فى اللغة الأجنبية A. B.yssinia فيرجع أصلها إلى قبيلة عربية هى حبشت السامية التى عبرت البحر الأحمر مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية ويرجح أن ذلك تم فى الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد .

ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك، ص٤-٦ .

السلطان فى مصر ابقاء على ما بين الدولتين من روابط تجارية وثقافية، ودينية وقد نشطت التجارة بين الحبشة ومصر وكانت عدول من أهم المراكز التجارية فى الحبشة ومكانها الحالى ميناء زولا جنوبى مصوع[1]. كما كانت زيلع فرضة الحبشة وهى بين خط الاستواء والإقليم الأول[2] وتصلها أكثر مراكب البحر الأحمر ويخرج منها الرقيق والعاج والفضة إلى مصر[3]. وتستورد من مصر المنسوجات الكتانية والحريرية .

وفضلا عن علاقة مصر بالحبشة قامت علاقات تجارية بين مصر **وامارات الطراز الإسلامى** حيث احتكر المسلمون التجارة على السواحل وكان الأحباش بطبيعتهم يأنفون أو يحتقرون الأعمال التجارية لذلك خلا الجو لأهالى دول الطراز لاحتكار التجارة مما أدى إلى زيادة الروابط الاقتصادية بين مصر وامارات الطراز الإسلامى والحبشة[4].

وقد قامت الإمارات والمشيخات الإسلامية[5] باستيراد الكتان والحرير ومختلف المنسوجات من مصر ويذكر ابن بطوطة أن من بين كسوة أهل مقدشو دراعة من المقطع المصرى وعمامة مصرية معلمة كما أن لباس سلطان مقدشو من ثياب مصر وطروحاتها الحسان [6]. ويتضح تغلغل التجارة المصرية فى ساحل البحر الأحمر من أن بعض تلك الامارات كانت تتعامل بالدنانير المصرية الواصلة إليهم مع التجار [7].

---

(١) سعيد عاشور ، أضواء جديدة، ص٣-٤ .

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١٦٠ .

المقريزى، الإلمام، ص٢٥ .

(٣) الادريسى ، نزهة المشتاق، ص٢٥ .

(٤) سعيد عاشور، أضواء جديدة، ص٥ .

(٥) كان أهل المشيخات والامارات يحترمون التجار احتراما كبيرا وتدلنا رواية ابن بطوطة على ما يفعله أهل كلوا عندما تصلهم مراكب «إذا وصل مركب خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا فى صندوق إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله والريان وهو الرئيس والكرانى وهو كاتب المركب ويؤتى إليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب أمامهم الطبول والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لأصحاب المراكب .

ابن بطوطة ، الرحلة، جـ١ ، ص١٦٠ .

(٦) ابن بطوطة ، الرحلة ، جـ١ ، ص١٦١ .

(٧) القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٣٢١-٣٢٢ .

كذلك كانت دهلك من المراكز التجارية الهامة بالساحل الشرقى لأفريقيا وكان ملوكها يدينون بالاسلام [1]. وكان أقصى ما وصل إليه مراكب المسلمين فى البحر الأحمر اقليم سفالة (موزمبيق) جنوب خط الاستواء[2].

ولكن فى هذا العصر الذى لم تتضح فيه سياسة مالية ثابتة أو سكة لها قيمة عالمية ولم يعرف فيه نظام البنوك أو نظام للدفع مما عرف حديثا كل هذا يدعونا إلى التساؤل عن كيفية اتمام عمليات البيع والشراء أو بمعنى آخر نظام التعامل النقدى وإذا لم يكن هناك تعاملا نقديا **فكيف كانت تتم المبادلات التجارية**.

والواقع أن طرق التعامل اختلفت من بلد لآخر بل من مدينة لأخرى وإن كانت المقايضة هى السمة الغالبة للتبادل التجارى فى أغلب أنحاء أفريقيا وهذه المقايضة كانت بين بلد وأخرى حيث أنه داخل بعض البلاد كمصر والمغرب كان التعامل الغالب بالنقود .

ففى غرب أفريقيا اشتهرت طريقة التعامل بطريقة التبادل الصامت[3] ويعنى هذا المصطلح التعامل أو المساومة بين أقوام لايعرف أحدهم لغة الآخر كما يحرص أحدهم على الاحتفاظ بسر منابع ثروته خوفا من النهب والسطو أو لأن قوما من السذج يتعاملون مع قوم أدت حوادث التعامل إلى انعدام الثقة فيهم[4].

وفى تكدا كان تعاملهم بالنحاس الذى يسبكونه ويصنعون منه قضبانا طولها نحو شبر ونصف بعضها رقيق والآخر سميك وتباع القضبان السميكة كلها أربعمائة قضيب بمثقال ذهب وتباع الرقيقة كل ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب وكانوا يشترون بالرقيقة اللحم والحطب وبالسميكة العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح [5] أما فى زويلة فيتبايعون بثياب قصار حمر[6].

وفى كانم كانوا يتعاملون بقماش ينسج عندهم اسمه دندى طول كل ثوب عشرة

---

(١) ابن سعيد ، بسط الأرض ، ص٥١ .

القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٥، ص٣٣٥-٣٣٦ .

(٢) المقريزى ، الإلمام، ص٢٢ ؛ ميتز ، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٣٢ .

(٣) سبق ذكر طريقة التعامل بالفصل الأول .

(٤) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة، ص٧٠ .

(٥) ابن بطوطة، الرحلة، جـ٢، ص٢٠٥ .

(٦) البكرى، المغرب، ص١١ .

أذرع[1] ويشترون به من ربع ذراع فأكثر كما يتعاملون أيضا بالودع والخرز والنحاس المكسى وكل ذلك يسعر بذلك القماش [2].

وفى النوبة والبجة كان التعامل مقايضة أو معاوضة فكانوا يبادلون الرقيق والذهب والمواشى والجمال والحديد والحبوب بالخرز والأمشاط والمسابح والمرجان والمنسوجات [3].

أما فى الحبشة فكان التعامل يتم مقايضة أيضا حيث كانوا يبادلون العاج والصندل وسائر منتجاتهم مقابل المنسوجات والزجاج والأمشاط والأبقار والأغنام أما الحبوب والقمح[4] والشعير فليس لها قيمة تذكر وذلك لأنهم يأكلون اللحم واللبن بكثرة[5].

أما دول الطراز الإسلامى والمشيخات الإسلامية فمعاملاتهم على ثلاثة أنواع أولها مقايضة بالأبقار والأغنام، وثانيها ما هو بالدراهم والدنانير المصرية الواصلة مع التجار حيث لاتسك النقود فى هذه البلاد وهذه المعاملة بالدنانير المصرية قاصرة على امارة أوفات الإسلامية، ويدلنا هذا على عظم مكانة العملة المصرية، والأخيرة ما كانت بالحنكات (جمع حنكة) وهى قطع حديد فى طول الابرة ولكنها اعرض منها بحيث تكون فى عرض ثلاث أبر ويتعامل بها فى سائر هذه البلاد فتباع البقرة مثلا بسبعة آلاف حنكة والشاة بثلاث آلاف حنكة والأسعار رخيصة فيمكن شراء حمل بغل من الحنطة بدرهم واحد والشعير لاقيمة له [6]. والتعامل فى كلوا بدراهم من النحاس والقصدير ولاتستعمل فى سواها [7].

---

(١) الذراع يساوى طول ٣٢ أصبعا .

العمرى، مسالك الأبصار، جـ٢ ورقة ٤٩٠ .

(٢) العمرى ، مسالك الأبصار، جـ٢، ورقة ٤٩٠ .

المقريزى، الخطط لبنان، جـ١، ص٣٤١ .

(٣) ناصر خسرو ، سفر نامة، ص٤٦ .

المقدسى، أحسن التقاسيم، ص٢٤١-٢٤٢ .

(٤) تكال الغلة فى تلك البلاد بكيل اسمه الرابعية وتعادل ويبة من الكيل المصرى وزنة ارطالهم اثنى عشر أوقية كل أوقية عشرة دراهم بصنجة مصر.

القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٥ ، ص٣٣١ .

الويبة مكيال للحبوب تستعمل بمصر وزن ٢٥ كيلو والويبة سدس الاردب والقدح يزن كيلو جراما، ٦٢ جرام.

العبدرى ، رحلته ، ص١٥٩ .

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٥، ص٣٠٧ .

(٦) القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٥، ص٣٣١ .

(٧) ابن بطوطة، الرحلة، جـ١ ، ص١٦١ .

وهناك أمر مهم يدعونا إلى التساؤل ألا وهو النظام الخاص بأعمال التبادل التجارى بمعنى هل يخرج الأفراد للتجارة فى أرجاء القارة فرادى، أم كانت هناك شركات كما تعرف فى العصر الحديث تنظم عملية استيراد وتصدير المنتجات والبضائع أو تنظم عملية تجميع القوافل وخروجها والاشراف على البضائع المصدرة وسيرها، وعمليات الشراء والبيع والتوزيع. الغالب أن الأفراد لم يقوموا بالتجارة بمفردهم كما أنه لم تكن هناك شركات بالمعنى المفهوم حاليا. واعتقد أنه كان هناك شبه اتفاق على مواعيد لخروج القوافل التجارية إلى انحاء القارة المختلفة سواء غربها أو شرقها أو وسطها، وكان التجار يأتون إلى مكان تجمع القافلة بجمالهم محملة بالبضائع ويخرج صاحب كل تجارة مع تجارته. وكان لكبار التجار وكلاء يخرجون مع التجارة كما أنه كان هناك لبعض كبار التجار شركاء فى بلاد أخرى يشرفون على أعمال البيع والشراء فابن بطوطة يخبرنا عن وجود تجار مصريون مقيمون فى مالى فلابد أنهم كانوا مقيمون لاتمام عمليات البيع والشراء ، كذلك كان للتكاررة جالية مقيمة فى مصر واعتقد أنه كان لهذه الجالية فروع فى مناطق التجارة المختلفة كما رأينا سابقا كيف أنه كان للكارميه وكلاء فى الأسواق التجارية .

ويخبرنا بوفيال عن الطريقة التى أدار بها تاجر من تلمسان تجارته إذ تكونت شركة من خمسة أخوان وكانوا شركاء متساويين يقيم اثنان منهم فى ولاتا حيث يجمعان العاج وفى بعض الأوقات يزوران الأسواق المهمة فى الجنوب وهناك أثنان آخران يقيمان فى تلمسان يقومان بتزويد من يقيمان فى ولاتا بالبضائع أما الخامس فكان رئيس تلك المجموعة ويقيم فى سجلماسة ليراقب الأسواق عن قرب ويرسل لإخوانه عن الأسعار[1].

وبعد فلعله يتضح من عرضنا كيف ترابط الإسلام والتجارة ترابطا طرديا فبازدياد انتشار الإسلام فى أرجاء القارة تزايدت الصلات التجارية وإينما تذهب التجارة ينتشر الإسلام فكثيرا ما مهدت التجارة لانتشار الإسلام. كذلك قامت قوافل الحج بدور كبير فى زيادة التبادل التجارى وفى نشر الإسلام لمرورها على بلاد مختلفة حاملة معها تجاراتها .

كما كان لموقع مصر الفريد فى طريق الحجيج القادم من أرجاء القارة وفى طريق مرور تجارة آسيا المارة بالبحر الأحمر وأغلب تجارات أفريقيا أثر كبير فى تعزيز

---

(١) Bovill, The golden trade pp. 98-99 .

اقتصادها وإنماء ثروتها مما حدا ببعض الدول إلى استعمال العملة المصرية فى المعاملات. كما أصبحت مصر بفضل هذا وبفضل علماؤها وازهرها كعبة لطلبة العلم وقبلة للملوك يقصدونها سواء بأنفسهم أو بسفاراتهم مقدمين هداياهم طالبين ودها مما شجع على ازدياد التبادل التجارى بينها وبين تلك الدول .

تبقى كلمة أخيرة هى أن الفتوح الإسلامية وحركات الهجرة والتجارة قامت بدور مهم فى نشر الإسلام ولكن ديناميكية انتشار الإسلام هذه ما كانت تتم بتلك السرعة التى فاقت انتشار أى دين آخر. فالتاريخ ملىء بالفتوح والهجرات والتجارة ولكن لم تعتنق الشعوب ديانات فاتحيها كما اعتنقت الشعوب الدين الإسلامى. فلولا طبيعة الدين الإسلامى وجوهره لما انتشر بتلك السرعة فسماحة تعاليمه وبساطة شعائره الدينية حيث لاتوجد وساطة ولاكهنوت بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده علاوة على شرائعه وتنظيمه لامور الحياة الدنيا ومساواته بين سائر البشر كافة كل هذا وغيره كثير كان له الفضل الأكبر فى سرعة انتشاره .

الفصل الثالث

طرق التجارة بين مصر وأفريقيا وأهم مراكز التبادل التجارى

طرق التجارة (البرية - البحرية- النيلية) أهم الموانىء الأفريقية على البحرين المتوسط والأحمر وعلى نهر النيل- أسواق التبادل التجارى (القاهرة - اسيوط- سجلماسة أودغاست- تكرور- كومبى- تبمكتو- تادمكة- تاكدا- شندى)، أهم الحاصلات المتبادلة : (الرقيق- العاج- الذهب- النحاس- التوابل- المنسوجات).

تمثل طرق التجارة عاملا أساسيا فى ازدهار التجارة فكلما زادت الطرق وعم بها الأمن نشطت الحركة التجارية، وقد نعمت أفريقيا فى العصور الوسطى بما لم تنعم به طوال تاريخها إذ وجدت بها طرق برية اخترقت القارة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، وترجع نشأة بعض هذه الطرق إلى عصور قديمة مثل طريق درب الأربعين الذى يرجع إلى عصر الأسرة السادسة الفرعونية إلا أن تلك لم تكن طرقا بالمفهوم الصحيح من حيث تمهيدها واتساعها، بل كانت عبارة عن مدقات فى الصحراء وكان الذى يحدد اتجاه الطريق عادة آبار المياه والأسواق والمراكز التجارية وكان يتفرع من الطرق الرئيسية طرق كثيرة متشابكة لكى تصل إلى سوق أو إلى عاصمة بلد أو إلى مركز تجارى، وفى بعض الأحيان كان الطريق يتفرع إلى طريقين رئيسيين.

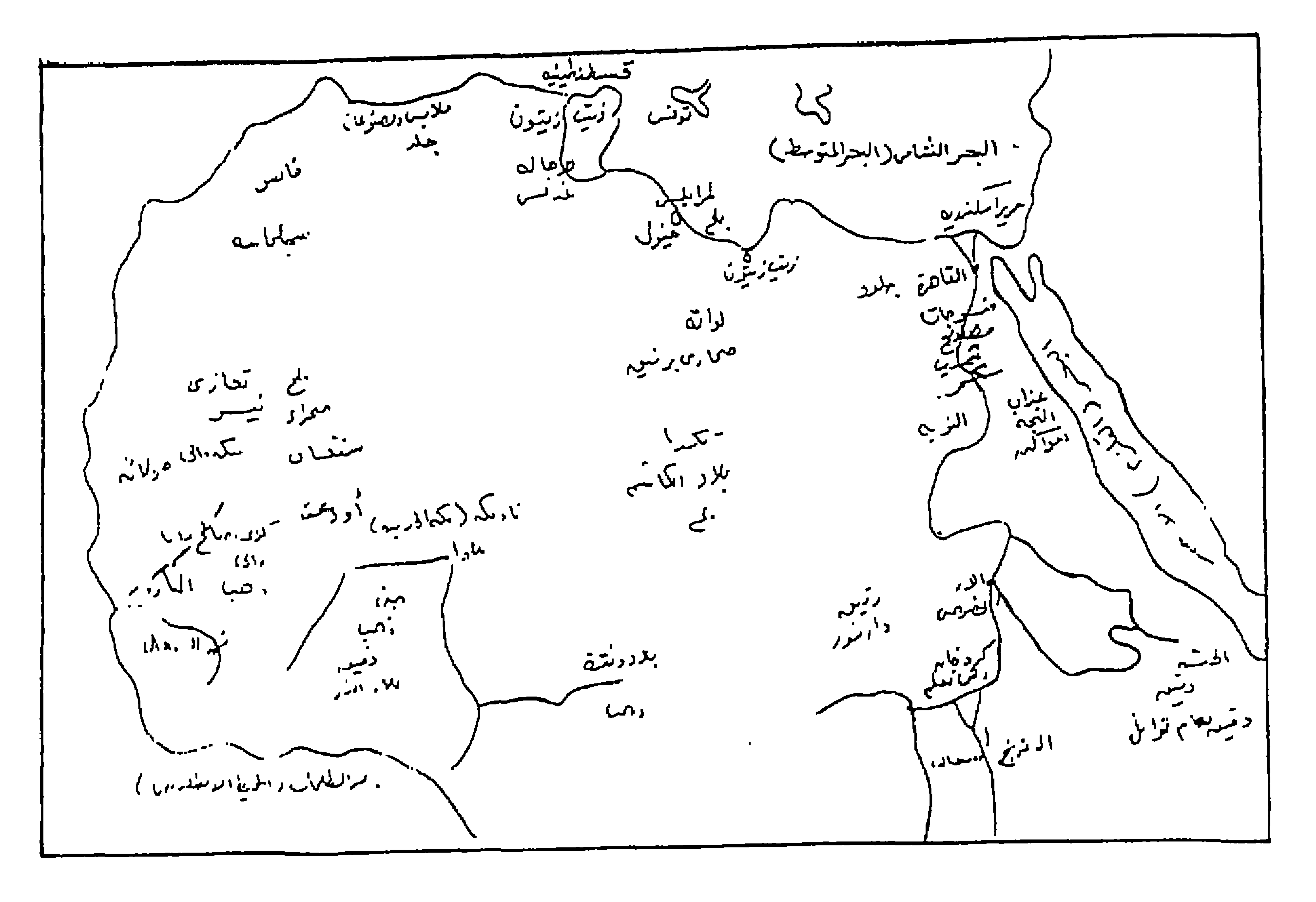
وكان أن نشأت على هذه الطرق كثير من المراكز والأسواق التجارية وكانت القوافل التجارية لاتنقطع طوال العام دابة على هذه الطرق . وقد يسرت تلك الطرق سهولة الاتصال بين ارجاء القارة كما ساعدت على سهولة نقل التجارة من غربها إلى ركنها الشمالى الشرقى مارة بأدغال السودان وبصحراء القارة الكبرى، ورغم كل هذه الصعوبات فقد كانت القوافل تتميز بالضخامة مما يدل على كثرة التيسيرات التى وجدت فى الطرق من آبار وأدلاء كما عم الأمن بتلك الطرق .

ويلاحظ على الطرق التجارية العظمى فى العصور الوسطى أنها كانت تبدأ أو تنتهى عند موانى نيلية أو بحرية حيث تفرغ فيها البضائع أو تحمل منها. وكانت هذه الطرق والموانى سببا فى الازدهار الذى شهدته القارة فى الميادين التجارية والسياسية والعلمية نتيجة للربط بين أجزاء القارة المختلفة ، فلقد ربطت الطرق البرية مصر بجميع ارجاء القارة ومن أهم تلك الطرق التى ربطت مصر بالقارة.

الطريق الساحلى من الاسكندرية إلى فاس ومكناس[1] ويبدأ من الاسكندرية ليمر ببرقة وطرابلس ثم إلى القيروان وقد وجدت بين الاسكندرية وطرابلس حصون متقاربة جدا بحيث إذا ظهر عدو فى البحر أنار كل حصن للذى يليه فيتصل التنوير وينتهى خبر العدو من طرابلس إلى الاسكندرية أو من الاسكندرية إلى طرابلس فى ثلاث ساعات أو أربع ساعات فيأخذ الناس أهبتهم ويحذروا عدوهم [2]. ويوجد على الطريق من الاسكندرية إلى طرابلس عدة حصون وموانىء ومدن تنزل بها العربان منها العقبة

(١) مكناس مدينة بالمغرب فى بلاد البربر على البر الأعظم بينها وبين مراكش أربعة عشر مرحلة نحو المشرق ومنها إلى فاس مرحلة واحدة . ياقوت ، المعجم ، جـ١ ، ص١٣٢ .

(٢) البكرى، المغرب، ص٤٣٢ .



خريطة تبين أهم المراكز التجارية وأهم السلع المتبادلة

والعقبة الكبيرة والبطنان وطلميثة وهى مدينة أرض برقة ومرفأ سفنها وسرت ومصراته، ثم يمر الطريق بقابس بعد خروجه من طرابلس ثم على الطريق الوسطى بين طريق القيروان وطريق الساحل إلى سفاقس ومنها إلى المهدية ثم المنستير ومنها إلى سوسة، ثم إلى مدينة الحمامات ثم تونس وباجة ثم يمر على خولان ومنها على طريق بوته ثم قسنطينة ثم بجاية ثم إلى مليانة ومنها إلى وهران ثم تلمسان ثم إلى فاس ومكناسة ثم إلى ازمور[1] ومنها كان يتفرع طريق إلى المراكز التجارية كسجلماسة وأودغست.

ومن حد مصر الجنوبى عند أسوان كان يمتد طريق إلى مالى وسجلماسة مارا بدنقلة ثم يوفى وهى من البلاد الكبيرة بالسودان ومنها إلى مولى وهى آخر بلاد مالى ثم إلى كوكو قاعدة البرنو تمبكتو ثم زاغة ومنها إلى كابرة والى زاغرى وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجرانة ثم أيولاتن ومنها إلى سجلماسة [2].

وقد اشتهرت على هذا الطريق عدة أسواق ومراكز تجارية من أهمها تمبكتو التى يطلق عليها بعض المؤرخين أسم تنبكت أو تنبكتو وتقع على نهر النيجر وقد ازدهرت ونمت فى أيام منساموسى ، وقصدتها القوافل التجارية من جميع البقاع ، ولم تصبح مركزا تجاريا أو سوقا تجاريا هاما فحسب، بل أصبحت مركزا عظيما من مراكز العلم ويقول السعدى عنها «أنها نشأت على أيدى توارق مقشرف فى أواخر القرن الخامس من الهجرة وما دنستها عبادة الأوثان ولاسجد على أديمها قط لغير الرحمن. كانت مأوى العلماء والعابدين ومألف الزاهدين والأولياء وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صارت مسلكا للسالكين فى ذهابهم ورجوعهم ويأتيها الناس من كل جهة ومكان وقد صارت سوقا للتجارة وكان التسوق من قبل فى بلدة بير واليه يرد الرفاق من الافاق، وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوى الأموال من كل قبيلة ومن كل البلاد . من أهل مصر ودجلة وفزان وغدامس وتوات ودرعة وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك، ثم انتقل الجميع إلى تمبكتو قليلا قليلا حتى استكملوا فيها وزيادة مع جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها فكانت عمارة تمبكتو خراب بير»[3].

وقد قصدها تجار مصر والمغرب حيث كان وجودهم مألوفا وذلك للحصول على الذهب وبقية السلع السودانية، وكانت القوافل المصرية تصل إلى تمبكتو بانتظام ويبدو

---

(١) العمرى، رحلته ص٢٢٥-٢٢٦ .

(٢) ابن بطوطة ، رحلته ، جـ٢ ص١٩٢-١٩٤ .

(٣) السعدى، تاريخ السودان ، ص٢٠-٢١ .

أن بعض العلماء والفقهاء كانوا يأتونها فى صحبة تلك القوافل، وبذلك صارت تمبكتو مركزا للدين والعلم فى أفريقيا ومما زاد من أهميتها أن السلطان منساموسى شملها برعايته، فأمر ببناء مسجد كبير فيها أصبح فيما بعد معهدا علميا تخرج فيه مشاهير الفقهاء والأدباء الذين بنوا نهضة علمية ودينية رائعة فى السودان الغربى أواخر العصور الوسطى [1].

كذلك اشتهرت على هذا الطريق مدينة **سجلماسة** وترجع أهميتها إلى موقعها على باب الصحراء فى نقطة مهمة لخروج القوافل وتخرج منها عدة طرق تؤدى إلى المراكز الرئيسية فى شمال أفريقيا، وإلى درعة واغمات وربكة وفاس ووجدة وتلمسان وإلى مصر. وقد جعلها هذا الموقع المهم من أهم مراكز التجارة فى الصحراء وقد تأسست سجلماسة فى القرن الثامن الميلادى فى واحة تافيللت إلى الجنوب من جبال اطلس [2]. حيث سكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون هذا الطريق بتجاراتهم الدائمة التى جنوا من ورائها ارباحا عظيمة قل ان تحقق نظيرا لها بقية بلاد الاسلام الأخرى ويذكر ابن حوقل مدللا على رخاء تجارها بأنه رأى صكا على محمد بن أبى سعدون من أودغشت باثنين وأربعين ألف دينار[3]. كما يقول ابن الوردى مدللا على عظمتها التجارية «عامرة الديار كثيرة البركات يقال أنه يسير الراكب فى أسواقها نصف يوم فلا يقطعها [4]. وقد ساهمت نساء سجلماسة فى رخائها حيث كن يغزلن الصوف البديع الذى كان يباع بأسعار غالية [5].

وقد كانت أهم تجارة لسجلماسة مع اودغست وغانة حيث تبادل تجارها الملح والكمون والمنسوجات بالتبر[6] ومما يدل على عظمة تجارة سجلماسة مع السودان أن دخل بيت المال فى القرن العاشر الميلادى بلغ اربعمائة ألف دينار فى السنة [7].

---

(١) سر الختم ، العلاقات، ص١١٢-١١٤ .

(٢) Bovill, The Golden trade p. 67 .

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٦١ .

(٤) ابن الوردى خريدة العجايب ، ص٨ .

(٥) ياقوت ، المعجم ، جـ٤ ، ص٥٤١ .

(٦) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٦٠ .

الشريشى ، شرح المقامات، ص١١٢ .

لسان الدين اعمال الاعلام ، ص١٣٨ .

(٧) توفيق اسكندر، بحوث فى التاريخ الاقتصادى، ص٦٢ .

ومن أسوان أيضا يخرج طريق محاذ للنيل مارا بالنوبة والسودان حيث تسير القوافل التجارية[1] بعد مغادرتها لأسوان على الجانب الشرقى من نهر النيل فيمر بجزيرة فيلة (وبها قصر أنس الوجود) بعد أربعة أميال ثم قرية ساق الجمل وتسير القافلة ملتزمة الضفة الشرقية للنهر فتمر بوادى[2] السالة ووادى دهميت ومنها فرتاس ثم نجع الجامع ثم قرية دارموت (دار موسى) وبعد مسيرة حوالى ثمان ساعات من دارموت تصل القوافل وادى كلابشة ومنها إلى ابوهور ثم وادى أبيض والسهل فى هذه المنطقة شديد الضيق ثم تمر القوافل بمارية مريم وبقرشة إلى أن تصل إلى كوبان بعد ١٧ ساعة من مغادرتها لوادى ابوهور وتقع كوبان تجاه معبد الدكة ومن كوبان تواصل القوافل سيرها إلى العلاقى وتسير القوافل بحذاء شاطىء صخرى تجاه جزيرة ضرار ثم إلى وادى المضيق بعد ثمان ساعات وبعد ساعة من المضيق يقع وادى السبوع ثم إلى وادى العرب ومنها إلى كورسكو ثم تمر القوافل بعدة وديان إلى أن تصل إلى ابريم وتعبر القوافل الجبل من ابريم ثم تصل إلى توشكى وبعد عدة ساعات تصل القافلة عقبة[3] فريق وبعد اربع ساعات تصل القوافل إلى قرية قسطل ثم ادندان ثم تسلك القوافل سهلا خصبا ينتشر فيه النخيل والمساكن إلى أن تصل إلى وادى حلفا ومنها إلى سكوت فى برية صخرية ، ثم إلى وادى عبكة بعد مسيرة ساعتين ثم تمر القوافل ببعض الوديان إلى أن تصل إلى وادى خروسنك وهو يقع أسفل الجبل وبعد مسيرة تسع ساعات تخرج القوافل من الجبال وتعبر سهلا منحدرا حتى تصل إلى ضفة النهر ثم تصل القوافل إلى وادى اكمه ثم إلى سركماتو ، ويجلب أهالى سركماتو الملح الصخرى من واحة سليمة التى تبعد يومين ونصف فى الصحراء الغربية وهى محطة لقافلة دارفور فى طريقها لأسيوط ثم إلى فركة وبعد عدة وديان تصل إلى وادى عبودى ثم تسير القوافل إلى أن تصل إلى تينارى وبعدها وادى المحس وتمر على فورى وحانك وبعد حانك تبدأ سهول دنقلة الشاسعة والطريق من المحس إلى مروى يستغرق من سبعة أيام إلى ثمانية ، وكان هذا الطريق شاقا على القوافل فالطبيعة الصخرية للطريق فضلا عن وجود الجبال وشدة الجفاف إلى جانب أن الملاحة فى النيل لاتصل

---

(١) كانت الابل والحمير هى وسائل النقل وحمل الجمل المعتاد ٣٦٠ رطلا ويحزم فى عدلين وسيره فى اليوم من ١٢ إلى ١٨ ساعة بحسب كثرة المياه أوقلتها فى الطريق .

نعوم شقير، تاريخ السودان، ص٢٥١ .

(٢) لفظ الوادى يطلق على كل قرية فى هذه الناحية حتى دنقله . بوركهارت، رحلته، ص١٣٢ .

(٣) عقبة لفظ شائع فى جغرافية البلاد العربية وهو يدل عادة على اقليم جبلى أو مهبط . بوركهارت، رحلته، ص١٣٢-٢١٤ .

إلا لمسافات صغيرة كل ذلك جعل الطريق شاقا على القوافل التى كانت تقطعه فى زمن يتراوح بين عشرين وخمس وعشرين يوما(1).

ومن أسيوط خرج طريق إلى السودان الغربى مارا بالواحات الداخلة والكفرة ويتجه إلى السودان متجها إلى غانة وأودغشت، ثم عدل عنه إلى طريق سجلماسة ويمر التجار الواصلون إلى سجلماسة بصحراء نيسر وهى صحراء قاحلة قاسية على القوافل ويصف الادريسى طريقة السير بتلك الصحراء وصفة السير بها أنهم يوثقون احمالها فى السحر الأخير ويمشون إلى أن تطلع الشمس ويكثر نورها فى الجو ويشتد الحر على الأرض فيحطون أحمالهم ويقيدون جمالهم ويعرشون امتعتهم ويخيمون على أنفسهم ظلالا لتقيهم من حر الهجير ويقيمون كذلك إلى وقت العصر وحين تأخذ الشمس فى الميل والانحطاط فى جهة المغرب يرحلون من هناك ويمشون بقية يومهم ويواصلون المشى إلى وقت العتمة ويعرشون أينما وصلوا ويبيتون بقية ليلتهم إلى وقت الفجر الأخير ثم يرحلون (2).

ومن أهم المراكز التجارية التى نشأت على هذا الطريق **أسيوط** وتقع فى بداية الطريق على نهر النيل وقد اشتهرت أسيوط بحاصلاتها الزراعية وصناعتها التى كانت تصدر إلى مختلف ارجاء القارة ، ومن أهم صناعاتها غزل الكتان والقطن والصوف كما اشتهرت أسيوط بالصباغة وذلك لوجود حجر الشب والنيلة فى الواحات القريبة منها وكانت الأقمشة المصبوغة تصدر إلى السودان كما اشتهرت بصناعة السجاد والفخار.

وكانت أهمية أسيوط فى التجارة ترجع فضلا عن كونها على رأس طريق الواحات الموصل إلى بلاد السودان فإنها أيضا تقع على الطريق النيلى وكانت تصل إليها قوافل دارفور وكانت القافلة الواحدة تتكون من حوالى ١٥٠٠ جمل حاملة الرقيق والعاج وريش النعام وغيرها من حاصلات السودان آخذة فى مقابل هذا منتجات مصر الصناعية (3).

كذلك اشتهرت اودغاست(4) على هذا الطريق حيث تقع على الطرف الجنوبى

---

(1) بوركهارت ، رحلته، ص١٣٢-٢١٤ .

(2) الادريسى ، نزهة المشتاق، ص٢٩ .

(3) دائرة المعارف، مادة أسيوط، جـ٢، ص٢٠٢-٢٠٣ .

(4) اودغاست لا وجود لها اليوم ومكانها الآن مدينة تجداوست Tegdaoust شرق منطقة تاجنت وتقع ضمن جمهورية موريتانيا الحالية .

ابراهيم طرخان امبراطورية غانت ، ص٢٩ .

للصحراء جنوب سجلماسة والمسافة بينهما مسيرة شهرين وهى أقرب إلى غانة لذلك كانت تتاجر مع غانة فتأخذ التبر مقابل الملح حيث يعاد تصدير التبر إلى سجلماسة لذلك كانت تعتبر مخزنا تجاريا وقد بلغ تجار اودغاست حد كبيرا من الثراء نظرا لرخص الثمن المدفوع فى التبر فأحيانا كان يباع ثقل من الملح مقابل ثقل من التبر واحيانا أخري بلغ ثمن الحمل من الملح فى داخل بلاد السودان ما بين مائتين وثلثمائة دينار ونتيجة لذلك قصد اودغاست كثير من التجار من مختلف البقاع للحصول على التبر(١) مقابل النحاس المصنوع والثياب المصبوغة بالأحمر والأزرق كما كان يجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام كالمغرب (٢).

كذلك يبدأ من **أسيوط طريق درب الأربعين** الشهير وتبين النقوش لنا أن القوافل دبت على هذا الطريق منذ عهد فراعنة الأسرة السادسة فقد استخدمه الرحالة العظيم حرخوف فى رحلاته إلى السودان وإن كنت أميل إلى القول بأن هذا الطريق طرق قبل عصر الأسرة السادسة لأنه من غير المعقول أن يبدأ حرخوف رحلته فى طريق لم يطرقه أحد من قبل .

ويربط طريق درب الأربعين بين النيل وغرب السودان وكان مستخدما بكثرة حتى القرن الماضى ويبدأ من أسيوط حتى يصل إلى الواحات الخارجة ثم يسير جنوبا فيمر بواحة سليمة وبئر النطرون حتى يصل إلى الفاشر وكانت تقطعه القوافل فى شهرين ولكن عدد أيام السير بين الآبار كان اربعين يوما هذا سبب تسميته بدرب الأربعين وكان لهذا الدرب فروع مختلفة متصلة بالواحات الأخرى فكان مثلا متصلا بالطريق السابق كما كان يتصل ببعض الطرق الواصلة إلى شمال أفريقيا(٣). وقد لعب هذا الطريق دورا هاما فى الصلات التجارية والثقافية بين البلاد الواقعة عليه منذ آلاف السنين .

وبالإضافة إلى هذه الطرق التى تربط مصر بالسودان الغربى والأوسط والنوبة كانت هناك طرق هامة تربط مصر بسواكن وعيذاب (٤).

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص١٠١ ؛ ياقوت ، المعجم ، جـ١، ص٣٧٠ .

(٢) البكري، المغرب ، ص١٥٨ .

(٣) بوركهارت ، رحلاته، ص١٣٢-٢١٤ .

(٤) سنعتمد فى ذكر الطرق ومحاطها وسلعها على بوركهارت لأنه خير من وصف هذه الطرق حيث طرقها علما بأن هذه الطرق لم تتغير منذ مئات السنين وأيضا السلع المارة عبرها لاتزال تستخدم حتى الآن.

أمـا الطريق الذى يربط سواكن بمصر فكان يبدأ من دراو وهو طريق وحيد عبر الأودية التى تخترق الصحراء الشرقية ولم تكن سلع النوبة والسودان وحدها هى التى تأتى عبر هذا الطريق بل كانت تأتى عبره أيضا سلع الحبشة والبحر الأحمر، وتبدأ القوافل سيرها من دراو فهى محطة قيام القوافل وتقع دراو على ضفة النيل الشرقية شمال أسوان بحوالى عشر ساعات إلى وادى أم الحبال حتى تصل إلى فج فى سلسلة التلال الغربية حيث يوجد بين الصخور مستودع طبيعى كبير لمياه المطر ويطلق على هذا المكان اسم دمحيت[1]، وعلى نحو اربع ساعات من دمحيت ناحية الجنوب الغربى نبع ماء صافى يدعى المويلح وترتاده القوافل الخارجة من أسوان، وغالبا ما تمكث القوافل فى هذا المكان يوما كاملا أو بعض يوم، حيث درجت قوافل الصحراء الشرقية على السير هنا فى الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى من الرحلات الطويلة حتى تألف الابل مشقة الرحلة شيئا فشيئا وتبطىء القوافل فى هذا السهل حوال خمس ساعات لتعبره، ويعرف ببركة دخان وبعد مسيرة حوالى يومين تصل القوافل إلى واد به مجموعة من الآبار ذات الشهرة الذائعة فى هذه الصحراء ، وتسير القوافل مارة بوادى غدير ثم بئر المرة وينسبط وادى المرة مسيرة ساعتين أو ثلاث صوب الشرق، وبعدها تصل القوافل إلى وادى العلاقى والوادى عامر بالكلأ والشجر الكثير وهذه المزايا تجعل له فى نفوس البدو منزلة كبيرة ويحييه الأدلاء والبدو حين يدنون منه تحية أكبار واجلال ويحمدون الله على أنهم بلغوه سالمين «السلام عليك يا وادى علاقى الحمد لله الذى جيناك بالسلامة» ، وحين عبور القافلة بالوادى يأخذ كل من بالقافلة حفنة من الذرة ويبذرها على الأرض قربانا للروح الطيب الذى يظلل الوادى ثم يمرون على وادى الطواشى وتتجه القوافل بعد ذلك إلى الجنوب منحرفه قليلا إلى الشرق وبعد مسيرة يومين تصل القوافل إلى وادى ام دوم مارة بعدة وديان حتى تصل إلى وادى عامور ثم تستمر صوب الجنوب الغربى بانحراف للجنوب، وتصل إلى وادى سليم ثم إلى قرية النخيرة وهى أهم قرية فى بربر وهذا الطريق هو الوحيد بين بربر ومصر، وهو الذى تسلكه عادة قوافل شندى وسنار ثم يستمر الطريق فى سيره إلى أن يصل إلى الدامر، وبعد عدة قرى يصل إلى بيوضة ومنها إلى شندى[2] ثم إلى قرية الحصاة ثم إلى قرية الكبوشية ثم تيمم القوافل شطر الشمال الشرقى ومن عادة القوافل أن تبدأ السير مع الشروق ويقيلوا ساعات الظهيرة ثم تستأنف السير حتى العشاء، وقد تواصل سيرها إلى ما بعد منتصف الليل

---

(١) سمى كذلك لكثرة ما به من منعطفات ، بوركهارت ، رحلته، ص.ص ١٣٣-٢١٤ .

(٢) بوركهارت ، رحلته، ص١٣٣-٢١٤ .

وبعد مسيرة نصف يوم تقريبا تشرف القبائل على نهر عطبرة، فتسير على ضفته مدة ساعة تقريبا ثم تعبر النهر خوضا فتصل إلى قرية عطبرة، وهى قريبة من النهر ثم تتبع القوافل مجرى النهر فيمرون بأم داود. وتسير القوافل من حين لآخر فى طرق قصيرة عبر الصحراء ووجهتها الجنوب الشرقى بانحراف إلى الجنوب فتبلغ قرية قوز رجب ثم تتجه القوافل صوب الجنوب الشرقى حتى تصل إلى سهول التاكة الخصيبة وهى من بلاد البجة ثم تتجه القوافل شمالا. بشرق مع انحراف إلى الشمال وتمر القوافل بوادى لادو ثم وادى عدى ويخرج من هنا طريقان ينتهيان إلى سواكن، فأما أقربهما فيتفرع شمالا بشرق ويقع على جبال وعرة يسكنها البدو وتكثر فيه الآبار ولكنه طريق وعر كله نجاد ووهاد، أما الثانى فأسهل ولكنه أطول بيومين وتفضله القوافل التى تنطلق فى وادى خصيب ثم تتركه إلى واد آخر تكتنفه الصخور الوعرة من جانبه وتسير القوافل من سهول ضيقة إلى اودية رملية، وبعد عدة وديان تصل القوافل إلى وادى عسير ثم شنكرة وتواصل القوافل سيرها وبعد مسافة يوم من الاتجاه شمالا بشرق تصل القوافل إلى مشارف سواكن التى تقع على نهاية خليج ضيق يبلغ طوله اثنى عشر ميلا وعرضه ميلين وفى نهاية الخليج عدد من الجزائر شيدت المدينة على احداها وتستغرق الرحلة بهذا الطريق حوالى اربعين يوما[1] وقد كان لكل طريق من هذه الطرق ادلاء[2] لاتسير القوافل إلا بهم وكان الطريق من الأبيض عاصمة كردفان إلى شندى يقطع فى يومين .

وتعد **شندى** من أكبر بلاد السودان وبها سوق كبير يؤمه جميع العرب المحيطين بها وتلتقى فيها التجارة العربية بالتجارة الحبشية والسودانية، ويعد الرقيق واللبان وهو نوع من الصمغ يجمعه البدو ساكنوا الصحراء بين كردفان والشلك من أهم التجارات التى تصدر إلى مصر من شندى كما تستورد شندى من مصر المنسوجات والحلبة والسكر[3] ، وكان السكر ذا قيمة عظيمة فى تلك الأنحاء حيث كان يعد بمثابة هدايا لاتهدى إلا إلى عظماء القوم ، وإلى النساء فى المناسبات الجليلة.

---

(١) بوركهارت، رحلته، ص١٨٣-٢٤٢ .

(٢) كان لبعض الأدلاء عادة غريبة على المسافرين يقتضون بها الجعالة أو اجرا زائدا عما هو متفق عليه ذلك أنهم كانوا إذا وصلوا إلى مكان لا ماء فيه اوقفوا القافلة ويرسموا قبرا فى الرمل ويشرعوا فى البكاء قائلين «الدائم لله فى أمر الله فى سبيل الله» كأنهم يندبون ميتا موحين للمسافرين بأنهم سيموتون ويستمرون فى ذلك إلى أن تدفع لهم الجعالة.

نعوم، تاريخ السودان ، ص١٥٠ .

(٣) بوركهارت، رحلته، ص٢٢٥-٢٢٧ .

أما **عيذاب** فكان يربطها بوادى النيل طريقان احدهما من قوص والآخر من أسوان. أما الأول وهو الواصل بين قوص وعيذاب «فكانت القافلة تخرج إلى المبرز وهو موضع قبلى قوص ثم تسير القافلة مساء إلى ماء يعرف بالحاجر ثم إلى قلاع الضباع ثم تسير القافلة إلى موضع يعرف بمحط اللقيطة كل هذا فى صحراء قاحلة ومنها إلى العبدين[1] حيث يوجد ماء تتزود منه القوافل لما يكفيها للمسير حوالى ثلاثة أو أربعة أيام ثم تمر القوافل على موضع يعرف بدنقاش، وهى بئر تردها القوافل للتزود بمياهها ومن دنقاش هذه يوجد طريق آخر لعيذاب ويصل إلى قنا، ويجتمع الطريقان عند دنقاش كما أن لهما مجتمعا آخر بمكان يعرف بشاغب بينها وبين نقاش مسيرة يوم، وطريق قوص أقصر مسافة من طريق قنا وبعد تزود القوافل بالماء من دنقاش تصل إلى شاغب حيث يتزود بالماء لثلاثة أيام وتنطلق فى مسيرها إلى أن تصل إلى ماء يعرف بإمتان ومائها أعذب ماء بالطريق ومنها إلى موضع يعرف بحجاج ثم إلى العشراء على مسافة يوم من عيذاب، ومن هذه المرحلة يسلك الوضح[2] وهى رملة ميثاء[3] تتصل بساحل بحر جدة ويمشى فيها إلى عيذاب وتستغرق الرحلة من قوص إلى عيذاب حوالى عشرين يوما» .

والطريق من قوص إلى عيذاب طريق قاسى على القوافل «ولايسافر فى هذه الصحراء إلا على الإبل لصبرها على الظمأ وأحسن ما يستعمل عليها ذو الترفيه[4] والشقاديف[5] وهى أشباه المحامل وأحسن أنواعها اليمانية لأنها كالأشاكيز[6] مجلدة متسعة يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة، وتوضع على البعير ولها اذرع قد صنعت باركانها يكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله[7] فى كن[8] من لفح الهاجرة ويتناول مع عديله ما يحتاج إليه من زاد ويطالع متى شاء المطالعة فى مصحف أو كتاب ومن شاء لعب الشطرنج[9]». وقد كان هذا الطريق أهم الطرق الواصلة إلى عيذاب

---

(١) يذكر ابن جبير أنه سمى بذلك لأن عبدين ماتا عطشا قبل أن يرداه فسمى ذلك الموضع بهما وقبراهما به ، ابن جبير ، رحلته ، ص٤٢ .

(٢) الوضح وسط الطريق .

(٣) الميثاء ، الرملة اللينة السهلة .

(٤) ذو الترفيه هم الأغنياء المرفهون .

(٥) الشقاديف مفردها شقدف وهو مركب معروف بالحجاز يركبه الحاج ويوضع على الجمل .

(٦) الأشاكيز : الواحد اشكز ، وهو كالأديم الأبيض توثق به السروج ابن جبير، رحلته، ص ص٣٧– ٤٢ .

(٧) العديل هو الراكب مع الإنسان على الجمل فى الجهة الأخرى .

(٨) كن ستر .

(٩) ابن جبير، رحلته ، ص٣٧-٤٢ .

وكانت أغلب تجارات البحر الأحمر تنقل عبر هذا الطريق ويذكر ابن جبير أنه حاول احصاء القوافل الواردة والصادرة فلم يتمكن كما أن احمال الفلفل بلغت من كثرتها أنها توازى التراب قيمة ، كما أن الأمن كان مسستتبا بهذا الطريق فيذكر أن احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع تترك ولاحارس لها وتترك هكذا اما لاعياء الإبل أو غير ذلك وتبقى كذلك إلى أن ينقلها صاحبها لاينقص منها شيء ولاتضيع رغم كثرة المار عليها (١).

أما الطريق الآخر من أسوان إلى عيذاب فقد قطعه ناصر خسرو فى رحلته فبعد خروج القوافل من أسوان متجهة نحو الجنوب الشرقى تصل إلى جهة تسمى ضيقة على بعد ثمانية فراسخ من أسوان وتسير القوافل فيها لمدة حوالى خمسة أيام فى صحراء لا ماء فيها إلى أن تصل إلى منزل يسمى الحوصة وهو جبل حجرى فيه عينا يتفجر منها ماء عذب تتزود منها القوافل بالماء وكانت القوافل تستريح من السير فى الوقت الذى تشتد فيه حرارة الشمس حتى صلاة العصر ويذكر ناصر خسرو ان «المنازل التى ينزلون بها معلومه فليس ممكنا النزول فى أى مكان لتعذر وجود ما توقد منه النار أما فى هذه المنازل فإنهم يجدون بعر الإبل فيتخذونه وقودا يطبخون عليه ماتيسر، وتسير الابل متجهة من تلقاء نفسها ناحية المشرق فى هذه الصحارى حيث لا أثر ولاعلامة تدل على الطريق، وهناك أمكنة يقل فيها الماء مسافة خمسة وعشرون فرسخا ويكون ملحا، وأمكنة لايوجد فيها ماء قط مسافة ثلاثين أو أربعين فرسخا وبعد مسيرة خمسة عشر يوما تصل القوافل إلى عيذاب والمسافة من أسوان إلى عيذاب مائتا فرسخ» (٢).

ولم تكن الصلة بين مصر وأفريقيا قاصرة على الطرق البرية فحسب بل كانت هناك ثلاث طرق مائية وقد ربط بين مصر وأفريقيا طريقان بحريان هما طريق البحر المتوسط وطريق البحر الأحمر والثالث وهو الطريق النيلى .

وقد ربط طريق البحر المتوسط بين بلاد الساحل الشمالى لأفريقيا كما حملت إليه منتجات وسط القارة وغربها لتصديرها من الموانىء البحرية أى أن استخدام هذا الطريق البحرى لم يكن قاصرا على البلاد الساحلية ولكنه كان مهما بنفس الدرجة لبلاد القارة الداخلية .

---

(١) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص٧١ .

(٢) ناصر خسرو ، سفر نامة، ص٧١ .

وكان هذا الطريق هو الطريق الأساسى لحمل تجارات شمال أفريقيا إلى مصر ولقد كثر عدد المغاربة الوافدين إلى الأسكندرية بهذا الطريق كما استخدمه تجار مصر الذين يقصدون المغرب أى أنه كان طريق التجارة الرئيسى بين مصر وبلاد الساحل الشمالى لأفريقيا .

وقد تناثرت الموانىء والمراسى على طول ساحل البحر المتوسط كالدر المنثور نابضة بالحياة طول اليوم وعلى مدار العام وكانت المراكب التى عرفتها العصور الوسطى صغيرة الحجم ومن ثم كان غاطسها صغيرا نسبيا يمكنها من الرسو فى أية بقعة ضحلة على الساحل الذى كثرت به المراسى تبعا لذلك وهكذا لم يكن من الضرورى أن ترسى المراكب على كل مرسى أو ميناء بل ترسى حينما تحتاج إلى التزود بالمؤن أو التجارات أو انزال مسافرين أو أخذهم وهكذا .

ومن أهم موانىء البحر المتوسط التى ماجت بالحركة وقصدتها سفن الأفاق، دمياط والاسكندرية وبرقة والقيروان ، طرابلس، سفاقس ، بجاية ، وسبتة .

ويعد ثغرا دمياط[1] **والاسكندرية** أشهر وأعظم مينائين تجاريين لمصر على البحر المتوسط. ودمياط ثغر على جانب النيل من البحر المتوسط وكان على المدينة برجان أحدهما بدمياط والآخر تجاهه بالبر الغربى على نهر النيل والمراكب الواردة تدخل من بين البرجين وكانت توجد سلسلة موضوعة بين البرجين حتى لاتدخل المراكب إلا باذن صاحب الثغر[2] ويبدو أنه لأهمية موقع دمياط التجارى والحربى أحيطت بسور فيذكر ابن بطوطة أن من يدخل المدينة لاسبيل إلى خروجه إلا بطابع الوالى وبعض الناس ذوى الأهمية يطبع لهم فى قطعة كاغد[3] ليريه للحراس . واشتهرت دمياط فى العالم بصناعتها للمنسوجات فكان ينسج بها نوع من الكتان المسمى بالدمياطى يعرف أيضا باسم الشرب والقصب وكان مشهورا فى العالم الإسلامى كله كما اشتهرت بنوع من

---

(١) كان يمكن الوصول إلى دمياط من القاهرة بطريق النيل فتسير السفن حتى طرخا ثم تتجه فى الذراع الغربى الواصل إلى دمياط فتصل إلى مدينة دميرة ثم شرنقاش فى الضفة الغربية ثم شرمساح فى الضفة الشرقية وهى مدينة جليلة ولها سوق جامعة ثم إلى منية العلوق ومنها إلى قرية فارسكور ١٠ أميال فى الضفة الشرقية ومنها إلى بورة وهى قرية ذات زراعات وبساتين ١٥ ميلا ومن بورة إلى دمياط ١٣ ميلا .

الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٢٥٧-٢٥٨ .

(٢) الظاهرى، زبدة كشف الممالك، ص٣٥ .

(٣) كاغد: لفظ فارس بمعنى قرطاس .

ابن بطوطة الرحلة ، ص٣٠ .

النسيج خليط من خيوط الذهب والحرير الذى كانوا يستوردونه من الخارج ، وكانوا يصنعون منه أنواعا مختلفة من الثياب[1] . كذا وجدت بها غرف تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل الثياب ونتيجة لهذه الشهرة فى المنسوجات وصلها التجار من انحاء العالم كافة وخاصة تجار الكارمية وتجار التكرور لجلب المنسوجات التى كانت مطلوبة فى أفريقيا، فضلا عن كونها ميناء هاما من موانىء تصدير منتجات القارة الأفريقية والأسيوية ، وبالإضافة إلى المنسوجات اشتهرت دمياط أيضا بصناعة السكر وذلك لوجود مزارعه بالقرب منها فى دلتا النيل وقد كانت سلعة مطلوبة فى أفريقيا نظرا لأنه كان يهدى إلى علية القوم[2] ونظرا لكثرة التجار المترددين عليها فقد بنيت فيها الفنادق والقياسر[3] لنزول هؤلاء التجار.

وقد كان لردم فم البحر عند دمياط لحمايتها من الصليبيين فى عهد الظاهر بيبرس أثره السىء فى أحوال المدينة فقد أصبح ضيقا فامتنع دخول المراكب الكبيرة إليه فكانت تلك المراكب تقف فى البحر قريبة من ملتقى البحر بالنيل [4]. وتنقل بضائعها إلى مراكب صغيرة لتنقلها إلى دمياط [5]. وقد أدى هذا إلى اضمحلال مركز دمياط بالنسبة للاسكندرية وكانت الاسكندرية[6] ميناء مصر الشهير الآخر على البحر المتوسط من أهم المراكز التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فالتقت فيها

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة دمياط، جـ٩ ، ص٢٨٩ .

(٢) التميمى، النظم والطرق التجارية، ص٤٠٢ .

(٣) القياسر : ومفردها قيسارية وهى السوق المسقوفة وأطلقت أيضا على الخان والوكالة أى البناء الذى يحتوى على غرف ومخازن للتجارة ويعلوه طباق للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاث.
سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص١٤١ .

(٤) يقول شهاب الدين المقريزى فى دمياط :

وخروج البحر جم عجايب — تلوح وتبدو من قريب ومن بعيد
كأن التقاء النيل بالبحر إذا غدا — مليكان سارا فى الجحافل من جند

ابن اياس ، النزهة ، ورقة ١٩٤ .

(٥) ابن اياس ، النزهة ، ورقة ١٩٣-١٩٤ .

(٦) تغنى الكثيرين بالاسكندرية فقالوا أنها موصوفة فى الكتب يعرفها أهل العلم باسم الخضراء واسمها فى الزبور البيضاء واسمها فى التوراة المذهبة.
وقال الموفق الحكيم

اسكندريتنا عروس تجتلى — وبديع منظر حسنها وهاج
ولها المنارة وقد علت وتطاولت — فلذا لها البدر المنير سراج

ابن دقماق ، الانتصار، جـ٥، ص١١٦-١٣٦ .

منتجات آسيا وأفريقيا الآتية بطريق البحر الأحمر أو بالطرق البرية، بمنتجات المغرب الآتية بطريق البحر المتوسط، كما كان للاسكندرية خليج تسير فيه المراكب الآتية من سائر السواحل المصرية بأنواع التجارات والغلال، وكذلك كانت السلع الأفريقية والآسيوية تصل عن طريق النيل بعد تفريغها فى أسوان وقوص، أما إذا انخفض ماء الخليج فان المراكب كانت تسير فى البحيرة الموجودة فى شرق الاسكندرية بينها وبين رشيد[1] «فهى الثغر المحروس والقطر المأنوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان بها ماشئت من تحسين وتحصين ومآثر دين ودنيا كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والأحكام مبانيها الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة فاليها انتهاؤها» ولم تكن أهمية الاسكندرية[2] نابعة من كونها سوقا للعالمين فحسب ، بل كانت مركزا من المراكز الصناعية الكبرى فكان يعمل بها الأقمشة الجميلة التى لايوجد لها مثيل فى بلد آخر ، كذلك عمل بها أنواع من الثياب الفاخرة[3] لذلك أصبحت الاسكندرية مزدحم الرجال ومحط الرجال بمثابة خلية نحل عصبها الأساسى هو التجارة وخير دليل على نشاطها التجارى[4] اعداد الجاليات الأوربية التى أقامت بها ، وكان لكل جالية من هذه الجاليات قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحها الاقتصادية واتخذت كل جالية لنفسها فندقا ينزل فيه افرادها ورتبت امور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها ادارة ومستقلة على رأسها مدير يدير الفندق [5]. وكان السبب الأساسى لوجود هذه الجاليات هو التجارة وشراء سلع الكارمية الواردة من موانىء البحر الأحمر ومن اسوان لذلك كانت الاسكندرية مركزا كبيرا لنشاط تجار الكارمية .

وبعد ٢١ مرحلة من الاسكندرية أو ٥٥٠ ميلا كان **ميناء برقة** وقد فتحها عمرو بن العاص سنة ٢٣هـ وهى مدينة متوسطة مزدهرة فقد كان المسافرون والتجار بالبحر

---

(١) ابن سعيد، بس الأرض ، ص٨١ .

(٢) كانت منارة الاسكندرية احدى عجائب الدنيا وترى من بعيد كنجم السماء ولولا تلك المنارة لضلت اكثر المراكب الطريق إلى الاسكندرية.

الادريسى، نزهة المشتاق، ص١٠٩ .

(٣) ابن الأثير، تحفة العجايب، جـ١ ورقة ١٢٠ . الظاهرى ، زبدة الممالك ، ص٥٠ .

(٤) دليل ثراء التجار بالاسكندرية ما يحكيه الظاهرى ، بأن تاجر بالثغر يقال له الكويك وهو أحد تجار الكارمية عمر مدرسة مشهورة صرف عليها فوائد يوم واحد.

الظاهرى، زبدة كشف الممالك، ص٥٠ .

(٥) سعيد عاشور، مصرفى عصر دولة المماليك، ص٢١١ .

المتوسط يتزودون منها بالصوف والعسل والزيت كما كانت تقع على الطريق البرى الواصل بين القاهرة والقيروان وتتصل بواحات الصحراء بواسطة القوافل كما اشتهرت بالذبائح والقطران والجلود التى جلبت إلى مصر للدباغة بالإضافة إلى التمر والشمع وسائر متاجر الشرق والغرب [١].

واشتهرت **القيروان** التى أسسها عقبة بن نافع لغرض عسكرى باعتبارها مركزا تجاريا فكانت أغلب الطرق التجارية المؤدية إلى أفريقيا والمغرب تمر بها أو تلتقى عندها. ونتيجة لهذا تحولت إلى مدينة تجارية كبيرة وكان بها حيا للأسواق يشغل قلب المدينة تكتنفه الحوانيت من جانبيه ويعرف بالسماط ويتوسطه المسجد الجامع[٢] وكان لها ميناء كبير يسع ثلاثين مركبا هو المهدية[٣] وكان هذا الميناء محطا للسفن القادمة من المشرق والمغرب وكان يصب في القيروان كثير من البضائع كما يصدر منها الكثير أيضا حيث التقت فيها مختلف السلع القادمة من قلب أفريقيا ومصر بالقادمة من أوربا[٤]. ومما يدل على عظمتها التجارية وكثرة المعاملات التجارية بها أن المكوس المحصلة عند أبوابها بلغت ٢٦ ألف درهم فى اليوم [٥].

ومن الموانى الشهيرة على البحر المتوسط **طرابلس** وهى مبنية بالصخر الأبيض على ساحل البحر حصينة كبيرة ذات مرسى عظيم ترسى به المراكب ليلا ونهارا على مدار السنة حاملة التجارات من أوربا والمغرب [٦]. كما كانت سوقا تجاريا لتجارة أفريقيا الآتية بواسطة القوافل، كما غادرتها القوافل التجارية إلى وسط أفريقيا والمغرب[٧] وكان تجبى بطرابلس ضريبة على القوافل الواردة اليها، وبالإضافة إلى شهرتها التجارية نالت شهرة عريقة فى صناعة الأكسية الفاخرة الزرقاء[٨].

وفى بلاد تونس نالت **سفاقس** شهرة كبيرة كميناء تجارى وكانت تقع على الساحل

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٦٦-٦٧ .
البكرى ، المغرب، ص٥٠ ؛ الادريسى، نزهة المشتاق ، ص١٣١ .
(٢) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ٢، ص٤١٢ .
(٣) البكرى، المغرب، ص٣٠ .
(٤) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص١٠٧-١٠٨ .
(٥) Lewis, Novel Power p. 210 .
(٦) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٦٨-٦٩ .
(٧) Marco fournel, la tripolitaine pp. 97-98 .
(٨) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٦٨-٦٩ .

الشرقى إلى الشمال من خليج قابس[1] وكانت تعتبر من أهم مراكز صناعة الزيتون وقد اشترى تجار مصر والمغرب من زيتها الذى اشتهر بجودته ورخصه ولكثرة التجار المترددين عليها وجدت بها فنادق لنزولهم وبالإضافة إلى شهرتها فى صناعة زيت الزيتون اشتهرت بصناعة المنسوجات[٢].

ومن أشهر موانىء الجزائر ميناء **بجاية** من قسطنطينة ويقع على البحر المتوسط فى خليج مفتوح تكتنفه الجبال وترسو به السفن وتفد إليها القوافل من جميع الجهات . وهى بمثابة مخزن للبضائع وتجارها على صلة بتجار أفريقيا الغربية وتجار الصحراء والشرق ، كما وجدت بها كثير من مختلف البضائع وكثرت بها الأخشاب ، ومن أهم منتجاتها الراتنج والقطران الجيد وقد عقدت معها الدول الأوربية معاهدات تجارية وصارت بفضل تجاراتها من أكبر المدن الأفريقية[٣].

أما **سبتة** فكانت من أجود مراسى بلاد المغرب المشهورة على بر البربر مقابلة لجزيرة الأندلس وترد إليها السفن من جميع الانحاء وبينها وبين قابس مسيرة عشرة أيام[٤]. ومن أهم منتجاتها المرجان ويعمل في استخراجه أكثر من خمسين قاربا ويأتى التجار إليها من مختلف البقاع للحصول عليه [٥].

وكما انتشرت الموانىء على ساحل البحر المتوسط انتشرت أيضا على ساحل البحر الأحمر على رأس الطرق البرية الموصلة إلى قلب القارة أو إلى مصر ، وقد كان للعوامل السياسية التى سادت آسيا وأهمها انسياح المغول فى الشرق الأدنى واستيلاؤهم على فارس والعراق وشرق آسيا الصغرى وانسداد الطرق التجارية المارة بآسيا أثر كبير فى ازدهار موانى البحر الأحمر بحيث أصبح طريق التجارة الرئيسى ، وقد سيطر

---

(١) قابس على بعد ست مراحل من القيروان .

ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٧٠ .

كان يصنع بقابس أجود أصناف الحرير فى العالم وكان بها منارا ذا شهرة عريضة وكان قبله لكل السفن حتى ذاع عنه أن القادمين من مصر كانوا يتغنون قائلين

لانوم لانوم ولاقرار حتى ارى قابس والمنارا . البكرى ، المغرب، ص١٧ .

(٢) البكرى، المغرب ، ص٢٠ .

(٣) لسان الدين الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص٧٦ .

دائرة المعارف الإسلامية مادة بجاية، جـ٣، ص٣٥١ .

(٤) ياقوت ، المعجم ، جـ٥ ، ص٢٦ .

(٥) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٧٥ .

العرب على الملاحة فى هذا البحر ومنعوا السفن الغير عربية من المرور فيه ، وكانت الملاحة فى البحر الأحمر نهارا ، وبالليل ترسو المراكب خوفا من الشعاب المرجانية البارزة المنتشرة والرياح المعاكسة[1] . وقد كان لاستتباب الأمن فى البحر الأحمر أثر كبير فى ازدهار التجارة وساعد على ذلك الشواني المصرية المسلحة التى كانت تحمى السفن كما كانت تعمل على تطهير البحر من القراصنة ،

وقد كان للماليك اسطول فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها لحماية مراكب المكارم من قراصنة البحر الأحمر وكان عدة هذا الأسطول خمس مراكب خفضت إلى ثلاث وكانت تحت إمرة والى قوص[2] وكانت السفن تفرغ حمولتها فى أى ميناء من الموانىء لتنقل برا إلى أحد الموانىء النيلية كأسوان أو قوص ومن هناك بواسطة النيل أو بالقوافل إلى مراكز التوزيع. ومن أهم موانىء شاطىء البحر الأفريقى السويس ، الطور ، عيذاب ، سواكن ، وزيلع ، مقدشو .

وكانت **السويس** من أشهر ثغور مصر على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر ومنفذا لتجارات جزيرة العرب والهند والسودان والحبشة والامارات الإسلامية [3]. ويعتقد بعض المؤرخين أن القلزم والسويس اسمان لمكان واحد ولكن الحقيقة أن المسافة بينهما يسيرة فالقلقشندى بذكر مكان السويس «على القرب من مدينة القلزم[4] الخراب بساحل الديار المصرية وهو أقرب السواحل إلى القاهرة والفسطاط وترجع أهمية ميناء السويس إلى أمرين هنا:-

١- أنه أقرب نقطة ذات اتصال سهل بين البحر الأحمر والنيل .

٢- المنطقة من بحيرة التمساح حتى خليج السويس منطقة وهاد طبيعية وكان الخليج يتقدم شمالا أو ينحسر جنوبا فى فترات مختلفة وكانت وهاد البحيرات المرة أكثر اتصالا بخليج السويس أى أن مياه البحر الأحمر كانت تطفو حتى البحيرات المرة[5] .

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب، جـ١، ص٢٥٢ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٢٤ .

(٣) اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار، جـ٢، ص٨٥ .

(٤) ميناء هام تقصده المتاجر والحجاج .

(٥) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٦٩ .

- محمد السيد غلاب ، السويس ، ص١٢ .

- محمد السيد غلاب ، السويس ، ص١٢ .

ولكن رغم ذلك تأثر النشاط التجارى للسويس بالحروب الصليبية ، فسيطرة الصليبيين على أيلة وتهديدهم لشبه جزيرة سيناء هدد التجارة فى شمال البحر الأحمر الأمر الذى أدى إلى تركز التجارة فى الموانى الجنوبية مثل عيذاب .

وقد أدى وصول المماليك إلى حكم مصر ثم طردهم الصليبيين من الشام إلى تأمين التجارة فى البحر الأحمر كما أدى إلى انتعاش السويس تجاريا وإن كان محدودا(١) ، لأن ميناء السويس فى العصور الوسطى لم يكن صالحا لرسو السفن الكبيرة الأمر الذى قلل من أهميته، لأن السفن كانت تقف خارج الميناء وتحمل البضاعة من السفن إلى الشاطىء وبالعكس فى قوارب صغيرة لذلك لم تلبث السفن التجارية أن استعاضت عن السويس بمكان آخر قريب اسمه الطور(٢).

والطور فرضة على البحر الأحمر على ساحل خليج السويس على مقربة من جبل الطور وكان يتفوق على السويس بمزاياه فبجانب النقص الذى كان يعانيه ميناء السويس من حيث عدم رسو المراكب الكبيرة به ، كان ميناء الطور كثير المراس، كما أنه حين تغير البحر فان رؤساء المراكب كانوا يستطيعون الرسو به بسهولة(٣) ومن ثم أصبح مرسى للسفن المحملة بسلع آسيا وأفريقيا بل محطا نهائيا لها حيث تفرغ فيه احمالها (٤).

ويستفاد من بعض وثائق دير سانت كاترين(٥) أن ميناء الطور أصبح فى ذلك الوقت مركزا تجاريا هاما لتجمع البضائع والتجار الوافدين عن طريق البحر الأحمر وأنه كانت مخازن لتخزين التوابل والحبوب وغيرها لحين نقلها إلى أسواق التوزيع كما كانت هناك احواش لسكنى التجار وأهم البضائع التى خزنت انذاك البهار(٦). وقد أفادتنا احدى الوثائق بأن اجرة التخزين بتلك الأحواش والحواصل «عن كل حمل ستة دراهم»(٧).

---

(١) سعيد عاشور، السويس ، ص٨١-٨٢ .

(٢) سعيد عاشور ، السويس، ص٦٨-٦٩ .

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٩٦ .

(٤) الخالدى، المقصد الرفيع، ورقة ٨٢ .

اسماعيل سرهناك ، حقائق الأخبار ، جـ٢، ص٨٦ .

(٥) هذه الوثائق عبارة عن مراسيم صادرة من السلطان قايتباى إلى الشاد بالطور بناء على شكوى من رهبان ديرسانت كاترين من جراء سكن بعض التجار فى هذه الأحواش وتخزين بضائعهم فيها دون رضى الرهبان وبدون دفع الأجرة وقد أصدر السلطان قايتباى المراسيم المتعددة التى تنص على عدم تكرار ذلك ودفع الأجرة وبالملحق نصوص تلك الوثائق .

(٦) وثائق دير سانت كاترين، مراسيم رقم ٦٢-٦٦- ٧١ - ٧٥ .

(٧) وثائق دير سانت كاترين مرسوم رقم ٧١ .

ويتضح من هذه الوثائق أن ميناء الطور أصبح فى ذلك الوقت مركزا تجاريا مهما لتجمع التجار وتجاراتهم الآتية عن طريق البحر الأحمر فيقوم التجار بتخزين بضائعهم لحين نقلها إلى أسواق التوزيع .

وكانت المتاجر تسلك عدة طرق من الطور لأسواق التوزيع أو التصدير فهناك طريق برى شرقى خليج السويس يصل إلى العريش ومنها إلى غزة ، وهناك طريق من الطور إلى القلزم برا ومنها إلى الفرما مارا بمنطقة برزخ السويس، وكانت الرحلة من الطور إلى الفرما تستغرق حوالى ثلاثة عشر يوما ولابد للقوافل التى تقطع هذه الرحلة من الاستعانة بعرب الطوارة لارشادها وحمايتها، وهناك طريق آخر من الطور إلى القلزم ثم يتجه غربا إلى القاهرة كذلك كان يحدث أحيانا أن تنقل المتاجر فى السفن من الطور إلى القلزم ثم تحمل بالقوافل برا من القلزم إلى القاهرة(١).

وعلاوة على أهمية ميناء الطور التجارية فقد كان المحط الرئيسى للحجاج المسلمين وخاصة المغاربة والحجاج المسيحيين القادمين من دير سانت كاترين (٢).

وقد احتل ميناء الطور مكانة ميناء عيذاب فى منتصف القرن ١٤م تقريبا كميناء رئيسى لمصر وكان سبب عظمة عيذاب أنها تقع قبالة قوص الميناء النهرى علاوة على الطرق البرية التى تربطها بنهر النيل فكان هناك طريق برى منها إلى قوص وآخر إلى أدفو وآخر إلى أسوان إلا أن أكثر هذه الطرق استعمالا كان طريق عيذاب قوص كما أن ساحلها كان مريحا لرسو السفن حيث كانت باحته متسعة لغزارة الماء خالى من الشعاب المرجانية النابتة فى قاع البحر(٣).

وقد زادت أهمية **عيذاب** ابتداء من عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى لتحول قوافل التجار والحجاج المصريين المغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء إلى طريق النيل حتى قفط وادفو وأسوان ومنها عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب نتيجة للحروب الصليبية(٤). وكانت تصل إليها مراكب الهند واليمن والحبشة حاملة بضائع تلك البلاد،

---

(١) سعيد عاشور، السويس، ص٨٣ .
(٢) Heyd, Histoire du commerce vol. I.
(٣) القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٥، ص٢٧٣-٢٧٤ .
ابن اياس ، نزهة ابن اياس ورقة ١٧٦-١٧٧ .
(٤) المقريزى ، الخطط، جـ١، ص٢٠١ .
ابن اياس، نزهة ابن اياس، ورقة ١٧٦-١٧٧ .

وكانت عيذاب عامرة بما يجلب إليها من قوافل التجار والحجاج حتى أن احمال البهار كانت تترك بها والقوافل هابطة وصاعدة لايعترضها أحد من العربان أو غيرهم[1]. وذلك لاستتباب الأمن بها وكان لأهلها فوائد لاتحصى من التجار والحجاج حيث كانوا يحصلون على كل حمل يحملونه ضريبة مقررة [2]. وكان بها وال من قبل مصر ووال من قبل ملك البجة ليقتسما جبايتها مناصفة .

وقد لفتت شهرة عيذاب انظار الصليبيين فحاولوا توجيه الضربات إليها لقطع الطريق على الحجاج المسلمين من ناحية والقضاء على مركزها التجارى من ناحية أخرى وقد فشلت الحملة التى قادها ارناط أمير حصن الكرك ونتج عن ذلك أن اهتم بها سلاطين مصر فأصبحت الميناء الرئيسى على البحر الأحمر[3]. وظلت كذلك حتى ارسل السلطان برسباى حملة عن طريق البحر الأحمر لمهاجمتها وتخريبها وذلك لأن البدو هاجموا أحدى القوافل الخاصة بالسلطان وتمكنت الحملة من أداء مهمتها حوالى عام ١٤٢٨م وتبع ذلك انتقال ثقل التجارة إلى الطور وسواكن [4].

وسواكن هى قاعدة بلاد البجة وهى جزيرة على طرف بحر القلزم من الجهة الغربية وهى قريبة من البر ويسكنها التجار وواليها من العرب ويعرف بالحدربى وقد أرسل الظاهر بيبرس حملة لسواكن سنة ١٢٦٥م أدت إلى استقرار حامية دائمة وأصبحت سواكن منذ ذلك الحين تحت سيطرة مصر ، وبالاضافة إلى كونها مرسى للمراكب الآسيوية فقد اختصت بنقل تجارة الحبشة والنوبة حيث تصلها بحرا سفن الحبشة وبرا قوافل النوبة محملة بالرقيق والشمع العسل وتصل متاجرها لمصر بطريق البحر الأحمر لسهولته [5].

أما **زيلع** فقد كانت أهم ميناد على الطراز الإسلامى للحبشة وكذلك **بربرة** وتقع مقابل عدن والى الجنوب من زيلع، وكانت تجتمع فيها سلع السودان والصومال

---

(١) ابن اياس، نزهة ابن اياس ورقة ١٧٦-١٧٧ .

(٢) المقريزى ، الخطط، جـ١، ص٢٠١ .

(٣) أبوشامة ، الروضتين، جـ٢، ص٣٥ .

ابن الأثير، تاريخ الكامل، جـ١١ ، ص١٩٩ .

ابن جبير ، الرحلة، ص٢٩-٣٠ .

(٤) محمود الحويرى ، أسوان فى العصور الوسطى ص١٣١-١٣٢ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية، مادة سواكن، ص٣٢٢ .

نعيم زكى، طرق التجارة، ١٤١ .

والحبشة من الجلود والرقيق وريش النعام والعاج وغير ذلك من منتجات تلك الجهات لينقلها الكارمية عبر طريق البحر الأحمر إلى مصر [1].

وتعتبر **مقدشو** من الموانىء المهمة على ساحل البحر الأحمر وتصل لمقدشو تجارة الصومال والحبشة والسودان وشرق أفريقيا ويصدر منها ريش النعام والصندل والابنوس والعنبر والعاج[2].

ونستطيع أن نتبين من هذا العرض لموانىء البحرين المتوسط والأحمر أن موانىء البحر الأحمر كانت موانىء استيراد حيث كانت ترد إليها كافة المنتجات والسلع الأفريقية والآسيوية وكانت أهميتها التصديرية تقل عن أهميتها الاستيراديه حيث كان لايصدر منها إلا القليل من المنتجات أهمها المنسوجات أى أنها كانت موانىء عالمية فى الاستيراد ومحلية فى التصدير، وذلك على العكس من موانىء البحر المتوسط التى كانت فى المقام الأول موانىء تصدير للمنتجات والسلع الواردة من موانىء البحر الأحمر ، وأغلب المنتجات التى كانت تستورد عن طريق موانىء البحر المتوسط كانت تستهلك محليا فى مصر. أى أن تلك الموانىء كانت موانىء عالمية فى التصدير ومحلية فى الاستيراد ويتضح من ذلك حقيقة هامة هى أن دور مصر فى التجارة العالمية كان دور الوسيط التجارى وهو ما سنتعرض إليه فى الفصل القادم ان شاء الله.

بالإضافة إلى الطريقين البحريين السابقين كان هناك طريق مائى داخلى ألا وهو نهر النيل. والحقيقة أن دور نهر النيل فى تجارة العصور الوسطى كان دورا مهما جدا فعلى صفحة مياهه حملت أغلب تجارات آسيا وأفريقيا القادمة من النوبة ومن موانىء البحر الأحمر ومن طرق القارة البرية المختلفة إلى مجراه سواء فى أسوان أو ادفو أو قوص أو أسيوط لتنقل فى المراكب إلى جميع أنحاء القطر المصرى والى موانى البحر المتوسط.

والواقع أن **نهر النيل** كان وسيلة مواصلات طبيعية لانظير لها فى العصور الوسطى وقد زاد من أهمية النقل النهرى أن وادى النيل فى شطره المصرى عبارة عن شريط ضيق من الأراضى الزراعية باستثناء منطقة الدلتا ومن ثم فان التنقل بين شرقى الوادى وغربيه لم يكن مشكلة بسبب ضيق الرقعة المأهولة ولاسيما فى الصعيد بينما

---

(١) أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص١٦٠-١٦١ .
اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار، جـ٢، ص٨٧-٨٨ .
صبحى لبيب ، التجارة الكارمية، ص١٩ .
(٢) ياقوت ، المعجم ، جـ٨، ص١٢٨ .

قام النهر بدور الرابط الأساسى بين الشمال والجنوب ، وفى منطقة الدلتا لعبت فروع النهر والترع والقنوات الخارجة منه دورا مهما فى الربط بين انحاء البلاد[1] ، وبالاضافة إلى ذلك رخص تكاليف النقل المائى عن تكاليف استخدام القوافل كما أن طبيعة النيل من مياه ورياح ساعدت على نشاط الملاحة فسريان المياه من الجنوب مصعدة إلى الشمال ساعد السفن على الابحار، كما أن هبوب الرياح من الشمال إلى الجنوب ساعد السفن على مقاومة التيار القادم من الجنوب فى ابحارها من الشمال إلى الجنوب [2].

وكان النيل ولايزال يربط بين شمال البلاد وجنوبها بين الاسكندرية ودمياط ورشيد فى الشمال وبين أسيوط وقوص وأسوان فى الجنوب حيث يوجد بعد اسوان جنادل كثيرة تعوق الملاحة فى مجراه فكانت البضائع تحمل برا سواء البضائع المصعدة أو الهابطة حتى تترك منطقة الجنادل وتحمل فى النيل مرة ثانية [3]. ومما يدل على عظم الحركة الملاحية بنهر النيل ما ذكره أحد الرحالة بأنه يوجد على صفحة مياهه ستة وثلاثين ألف مركب[4].

ونتيجة لهذا النشاط التجارى على صفحة النهر اكتنفت المراسى شاطئى النهر وفى ذلك العصر كما هو الآن لم تكن المراكب النيلية ذات حجم كبير مما يؤدى إلى عدم احتياجها لميناء يعد خصيصا لاستقبالها بالإضافة إلى عدم احتياجها لمياه عميقة نظرا لعدم ضخامة غاطسها أدى كل هذا إلى أن جميع قرى مصر المتناثرة على الشاطىء النيل أصبحت مراسى للسفن[5]، وإن تفرد بعضها بكبر عدد المراكب الراسية بها فيرجع ذلك إلى أهمية المنطقة كأن تكون منطقة بها سوق تجارى أو مصانع نسيج أو سكر أو محاصيل ستنقل إلى مكان آخر.

ورغم كثرة عدد المراسى وسهولة رسو السفن إلا أنه كان هناك بعض الموانىء

---

(١) قاسم عبده قاسم نهر النيل، ص١٠١ .

(٢) يلاحظ أننا فى الوقت الحالى لانستغل النهر كوسيلة نقل رخيصة التكاليف الاستغلال الأمثل بل أن حركة النقل النيلى تفوقت فى العصر الإسلامى عنها الآن.

(٣) النويرى ، نهاية الأرب، جـ١، ص٢٥١ ؛ المقريزى ، الخطط، جـ١ ص٣٠٧ .
ابن خلدون ، العبر، جـ١، ص٤٦ .

(٤) ابن بطوطة ، الرحلة، جـ١، ص٦٩ .

(٥) لانزال نشاهد للآن رسو المراكب النيلية فى أى بقعة على الشاطىء .

المهمة على شاطىء النيل كأسوان وقوص وأسيوط ومنية ابن الخصيب والفسطاط وبولاق وشطانوف، حيث يتفرع النيل إلى فرعي رشيد ودمياط فتتجمع المراكب القادمة من الاسكندرية عن طريق فرع رشيد والقادمة من دمياط عن طريق فرع دمياط عند شطانوف(١) . ومن الموانىء النيلية الهامة كذلك طندته (٢). ودمنهور (٣). وكانت الموانىء النيلية بالصعيد أكثر شهرة من الموانىء النيلية بالوجه البحرى ويرجع ذلك إلى أنها كانت عند نهاية الطرق البرية الوافدة من عيذاب وسواكن والوافدة من قلب القارة وجنوبها .

ومن أعظم موانىء الصعيد **بلاق**(٤) وهى آخر حصن من حصون المسلمين وبينها وبين النوبة ميل واحد وهى جزيرة قريبة من الجنادل فاذا انتهت المراكب إلى هذه الجنادل تركها التجار بتجاراتهم إلى ظهور الجمال وساروا إلى مدينة أسوان فى البر(٥) وقد كانت هناك بعض السفن التى تستطيع اجتياز هذه الجنادل ولكن بصعوبة جدا وعلى أن يصحبها أحد من الصيادين الذين يخبرون مواضع الشعاب والجنادل(٦) وكانت بلاق الميناء الرئيسى لاستقبال سفن وسلع النوبة.

ومن الموانىء المهمة على النيل **أسوان** حيث كانت الباب الرئيسى لتجارة السودان الواردة إلى مصر عن طريق النيل ومما زاد من أهميتها أنها تقع على نهاية احدى طرق القوافل والبضائع الواردة من عيذاب كما كان بالقرب منها نهاية طريق القوافل الشهير دراو سواكن، فضلا عن كونها مجمعا لتجارة السودان الغربى والأوسط والنوبة فانها أيضا كانت مجمعا لتجارة الحبشة والساحل الشرقى لأفريقيا . ويذكر القاضى الفاضل الوزير الأيوبى أن متحصل ثغر اسوان فى عام خمس وثمانين وخمسمائة كان خمس وعشرين ألف دينار(٧) ، ومما لاجدال فيه أن هذا المتحصل قد ازداد زيادة كبيرة

---

(١) Dopp., L'Egypte au Commencement p. 23 .

(٢) طندته هى طنطا الحالية .

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٣-١٤ .

(٤) وبها قصر أنس الوجود وهى قبلى الشلال الأول وتسمى عند العرب بلاق وهذا الاسم منقول عن الاسم المصرى القديم بايلاق الذى صرفه اليونانين إلى فيلة Phila لأنهم ضغطوا لفظ ما التى هى فى الهيروغليفية عبارة عن أداة التعريف مثل آل فى العربية.

أحمد زكى ، قاموس الجغرافية، ص٦ .

(٥) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٢٠-٢١ ؛ ابن اياس ، نزهة ابن اياس ورقة ١٦٩ .

(٦) المقريزى ، الخطط ط لبنان ، جـ١ ، ص٣٢٥ .

- المقريزى ، الخطط ط لبنان، جـ١ ص٣٤١ .

كذلك انظر الطرق البرية بين أفريقيا ومصر فى نفس الفصل .

(٧) المقريزى ، الخطط ط لبنان، ص٣٤٩ .

فى عصر المماليك مع نمو التجارة وتفرد دولة المماليك بالنصيب الأوفر من التجارة الأفريقية والاسيوية كذلك زاد من أهمية أسوان أنه على الشرق منها جبل العلاقى، وهو جبل به معدن الذهب وعلى مقربة من أسوان جنوبا جبل به معدن الزمرد[١] . والمسافة بين القاهرة وأسوان حوالى ثلثمائة فرسخ [٢].

وعلى ضفة النيل الشرقية يقع ميناء **قوص** وهى مدينة الاقليم بعد أن كانت قفط مدينة الاقليم حيث خربت فى سنة أربعمائة هجرية وأصبحت قوص أعظم مدن الصعيد، ولأهميتها وكثرة الصادر والوارد إليها من مختلف البقاع قال ابن دقمان فيها «أنها باب مكة واليمن وسواكن والنوبة (والتاكة[٣] ومن أهم أسباب ازدهار قوص أنها على نهاية أهم طريق برى يربط عيذاب بالنيل، وقد ارتبط ازدهار قوص بازدهار عيذاب، فحينما كانت عيذاب محطا لقوافل التجارة الواردة إليها من أفريقيا وآسيا ومركزا للحجاج نتيجة عدم استقرار الأمور فى آسيا وتحول التجارة إلى طريق البحر الأحمر، كانت قوص تبدو مزدهرة وأصبحت مركزا مهما من مراكز الكارمية بل كانت نقابتهم توجد بها وحينما خربت عيذاب قلت أهمية قوص فثراء قوص كان قائما بصفة أساسية على النشاط التجارى لعيذاب، وقد كانت قوص فى وقت ازدهارها «حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع[٤] ومحط للرجال ومجتمع للرفاق وملتقي الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين وبين من يتصل بهم ومنها يفوزون[٥] بصحراء عيذاب وإليها انقلابهم[٦] فى صدرهم[٧] من الحج»[٨].

ومن الموانىء الكبيرة ميناء **بولاق** وكان يعد ميناء القاهرة بعد أن كان ساحل الفسطاط ميناء للقاهرة[٩] إلا أن بولاق تزايدت أهميتها حتى صارت الميناء الرئيسى

---

(١) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٢٠-٢٢ ؛ ابن اياس ، نزهة ابن اياس، ورقة ١٧٤-١٧٥ .

(٢) ناصر خسرو ، سفر نامة، ص٤١ .

هذا التقدير تقريبا صحيح حيث أن الفرسخ حوالى ثلاثة أميال .

(٣) ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٥ ، ص٣٨ .

(٤) مخطر : مجتمع.

(٥) يفوزون اختراق المفازة وهى صحراء لا ماء فيها .

(٦) انقلابهم = عودتهم .

(٧) صدرهم = رجوعهم .

(٨) ابن جبير، الرحلة، ص٣٦-٣٧ .

(٩) الظاهرى، زبدة كشف الممالك، ص٢٨ .

طرق الإتصال بين البلاد الأفريقية

فقدمت إليه كثير من السفن المحملة ببضائع المغرب من الاسكندرية كذلك وصلت السفن المحملة ببضائع الحبشة والنوبة والسودان .

وبالاضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من مراكز وأسواق تجارية وموانىء وجدت كثير من المراكز والأسواق التجارية على بعض الطرق أو قريبا منها أو على النيل وكانت عمليات البيع والشراء تتم فى هذه المراكز ونستطيع أن نعد تلك المراكز التجارية موانىء برية فقد كانت محطا للقوافل التجارية البرية تتزود منها بالتجارات والمياه والابل كما كانت مراكز صناعية ومراكز للمواد الخام كالذهب والعاج وريش النعام ومخزنا جامعا لمختلف أنواع البضائع وأسواقا حافلة وكانت شهرة هذه المراكز التجارية وغناها، ترتبط بعدد طرق القوافل المارة بها وقد لعبت هذه المراكز والأسواق التجارية الدور الأكبر فى تجارة تلك الفترة ومن أهمها تكرور وكومبى ، تادمكة وتاكدا والقاهرة.

وتقع **تكرور** على مسافة مائتى ميل إلى الجنوب الغربى من تمبكتو، وهى المنطقة الواقعة فى حوض السنغال الأسفل، ويطلق اسم تكرور على الشعب أيضا الذى كان له الفضل فى نشر الإسلام بين شعوب الولوف فى السنغال [1]. وكان يسافر إليها أهل المغرب الاقصى بالصوف والخرز والنحاس ليبادلوها بالتبر والرقيق [2]. وكانت تكرور لفترة طويلة سوقا عظيما من أسواق المسلمين بأفريقيا يلتقى فيها تجار الملح من تغازى، والمدة بينها وبين سجلماسة خمسة وعشرون يوما وتشتهر بانتاج الملح الذى تبادله بالذهب ويفد إليها تجار السودان ورغم صغر مساحتها فإن التعامل فيها كان يتم بالقناطير المقنطرة من التبر[3] كما يأتى إليها تجار الذهب والذين تسببوا فى ازدهارها [4].

أما **كومبى صالح** عاصمة غانة فكانت من أكبر أسواق السودان يتجمع فيها التجار من جميع الانحاء وتقع على حدود الصحراء الجنوبية وفى أقصى شمالى منطقة الزنوج هذا الموقع جعلهما حلقة اتصال بين الشمال والجنوب، كما أن تحكمها فى طرق القوافل المؤدية إلى مناجم الذهب الكبرى فى جنوبها الغربى أفادها وأثراها[5] ،

---

(١) نعيم قداح ، أفريقيا الغربية ، ص٤٠ .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص١٠١ ؛ ياقوت ، المعجم، جـ١ ص٣٧٠ .

(٣) ابن بطوطة ، الرحلة، جـ٢، ص١٨٩ .

(٤) السعدى، تاريخ السودان، ص١١ .

(٥) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة ، ص٦٤ .

ولأهميتها استقر بها عدد كبير من التجار البيض الذين تحكموا فى التجارة السودانية وأهمها الذهب والرقيق وكان من بين التجار عدد كبير من التجار المصريين ويقال أن أحدهم هو الذى اشترى كتلة الذهب الكبرى التى كان ملوك غانة يحتفظون بها فى قصورهم، وكان التجار يأخذون الذهب والرقيق والجلود والعاج والصمغ والعسل وفى مقابل ذلك يصدرون إلى غانة الملح والنحاس الأحمر والتمر والمسابح والودع وأدوات الزينية [١].

وكانت هناك ضرائب جمركية فرضها ملك غانة تتمثل فى أخذ دينار ذهبى[٢] على كل حمار محمل بالملح يدخل إلى بلده وديناريين عندما يخرج من بلده إلى بلد آخر كما كانت تفرض ضريبة بين خمسة وعشرة مثاقيل على الدابة التى تحمل مواد أخرى من البضائع التجارية كما فرضت عقوبات وغرامات وأتاوات [٣].

وفى سنة ٦٠٠هـ استولت قبائل السوننكى على كومبى صالح فكان أن انهزمت المدينة وخرج التجار العرب ليبنوا لأنفسهم من جديد مدينة تبعد مائة ميل إلى الشمال على أرض كانت تسميها القوافل ولاتا Walata وقد انتعش هذا السوق الجديد وأصبح واحدا من أهم الأسواق التجارية فى الصحراء الغربية[٤]. ومن أهم أسواق الصحراء **تادمكة** وتقع على مسيرة بضعة أيام من وادى تلمس فى منطقة ادرار الجبلية وقد أطلق عليها العرب اسم السوق فقد كانت مركزا مهما لطرق التجارة والقوافل القادمة من مصر وتونس وبرقة إلى البلاد الافريقية[٥].

وإلى الشرق من جاوة تقع **تاكدا** وقد خضعت لسلطان مالى وفضلا عن كونها مركزا مهما للتجارة وطرق القوافل فقد كان يمر بها سنويا قافلة من اثنى عشر ألف

---

(١) ابراهيم طرخان، امبراطورية غانة، ص٦٤-٦٥ .

(٢) كانت تجارة الذهب أهم تجارة لغانة ويذكر الادريسى أن غانة كانت تجلب الذهب من ونقارة بشرق غانة وبينها وبين غانة ثمانية أيام ويقول «وبلاد ونقارة هذه هى بلاد التبر المشهور بالطيب والكثرة وهى جزيرة طولها ثلثمائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلا والنيل يحيط بها من كل جانب فاذا كان فى شهر اغشت وحمى القيظ وفاض النيل غطى هذه الجزيرة أو أكثرها وعندما يأخذ فى الرجوع يرجع كل من فى بلاد السودان المنحسرين إلى تلك الجزيرة ويبحثون ويأخذ كل منهم ما أعطاه الله سبحانه وتعالى كثيرا أو قليلا من التبر».

الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص١٢-١٥ .

(٣) نعيم قداح ، افريقية الغربية، ص١١٨ .

(٤) Bovill, The golden trade pp. 82-85 .

(٥) حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام جـ٤، ص٤١٢ .

جمل فى طريقها من مالى إلى القاهرة[1]. وإلى جانب هذا كان بها مناجم النحاس الذى كان يرسل إلى انحاء متفرقة من أفريقيا وخاصة إلى مصر وكان يباع وزن مثقال مقابل ثلث وزن من الذهب [2].

أما **القاهرة** فكانت فى العصور الوسطى من أعظم مدن العالم حيث جلب إليها ما فى أقاليم الأرض قاطبه فهى ركن الزاوية بين الطريقين الواصلين بين البحرين الأحمر والمتوسط وتقع على شاطىء النيل مجمع البحرين والبر.

وإذا طالعنا بعض أقوال عدد من الرحالة عن القاهرة فاننا نجد أن عوبديا- ادلر يقول «شاهدت فى مصر، القاهرة، ولو اننى اردت أن أتحدث عن عظمة المدينة وثرواتها ومكانها لما كفانى كتاب كامل واقسم أنه لو أمكن ضم روما وميلان وبادوا وفلورنسا فى مكان واحد مع أربع مدن أخرى لما زاد سكانها وثرواتها جميعا عن نصف ما فى مصر[3]».

وقد وفد على القاهرة اناس من شتى أنحاء الأرض فوجد فيها الأوربى والنوبى والكارمى والتكرورى والمغربى وغيرهم كما أصبحت قبلة للملوك وسفاراتهم ونتيجة لوجود هذا العدد الهائل غير المتجانس فى القاهرة أصبح لكل طائفة أو فئة أو جنسية وكالاتها وخاناتها وفنادقها الخاصة بها، وقد غدت القاهرة فى عهد سلاطين المماليك وجهة الأصدقاء والاعداء جميعا ويقصدها الاصدقاء طالبين تأييدها وينشدون مساعدتها ويقصدها الاعداء يبغون مسالمتها أو مهادنتها . كما كان لتدفق التجارات عليها أثر فى تردد التجار والسفارات عليها يبغون عقد اتفاقية أو الغاء مكس أو تخفيف ضريبة، وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة[4].

ويتضح لنا مما سبق أن السبب الرئيسى فى انتعاش الموانىء البحرية هى الموانىء البرية أو تلك المراكز الداخلية التى انتشرت فى قلب القارة وعلى هوامشها وعلى مجاريها المائية.

كما يتضح أيضا أن أفريقيا شهدت رواجا اقتصاديا فى العصور الوسطى يفوق ما

---

(١) Bovill, The Golden trade , pp. 93-94 .

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٥، ص٢٩١؛ ابن بطوطة ، الرحلة، جـ٢، ص٢٠٤ .

(٣) نقولا زيادة، رواد الشرق العربى، ص٢٠١-٢٠٢ .

(٤) سعيد عاشور ، العصر المماليكى، ص٢٢٥ .

شهدته طوال تاريخها القديم والحديث حتى لقد شاع فى أوربا أن عرش ملك غانا من الذهب وأن هناك انهارا منها نهر النيل تنبت فيها التوابل. ولقد نبضت اسواق القارة ومراكزها التجارية وطرق القوافل بها وموانيها البحرية والنيلية بالحياة حيث كانت تفد إليها اجناس شتى تعقد بينهم مختلف المبادلات والمعاملات منها ما يتم فى صمت ومنها ما يقام على شطئان الانهار ومنها ما يقام فى الخانات والقياسر يدفعنا هذا إلى القول بأن أفريقيا كانت سوق عالم العصور الوسطى ووسيطه التجارى.

كل هذا النشاط التجارى يدفعنا إلى التساؤل عن ماهية المنتجات والمحاصيل التى تداولها التجار فى القارة ، وفيما كانت تستخدم وإذا أردنا عرض كافة المحاصيل التى تاجرت فيها القارة فالمجال لايتسع لذكرها جميعا وسنكتفى بذكر أهمها من حيث شدة الطلب عليها وانتشارها وسنقسمها إلى خمسة أقسام.

تجارات بشرية وتجارات حيوانية فالتجارات المعدنية فتجارات المحاصيل الزراعية ثم أخيرا تجارات المنتجات الصناعية.

أما عن **التجارات البشرية** فاننى أعنى بها تجارة **الرقيق** وأرى قبل التعرض للحديث عنها أن نعرض لموقف الاسلام من الرق[1] ومن يبيح الاسلام استرقاقهم .

فالدين الإسلامى لايبيح أن يسترق مسلم اصلا ثم أنه لايبيح إلا استرقاق أسرى حرب شرعية لم تقم إلا لاعلاء كلمة الله تعالى على أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم فأسرى الحروب التى أقامها كثير من ملوك الإسلام بغرض السلب والنهب والعدوان لايجوز استرقاقهم بحال سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم[2]. كما أن الاسلام أباح للرقيق الأسير الكافر أن تفك رقبته إذا افتدى نفسه أو يطلق الخليفة سراحهم لوجه الله تعالى وفى هذا يقول القرآن الشريف «فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اتخذتموهم فشددا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها »[3].

---

(١) الرق هو حرمان الشخص من حريته الطبيعية وصيرورته ملكا للغير وفى عرف الفقهاء «عبارة عن عجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر.

أحمد شفيق ، الرق فى الإسلام، ص٧ .

(٢) الرقيق كلمة مأخوذة من الرق وهو الملك والعبودية يقال رق العبد وارقه واسترقه فهو مرقوق ومرق ورقيق ومرجع معناها إلى القدر المعنوى المشترك فى هذه المادة وهى الضعف والخفة كما أن العبد مأخوذ من العبودية وهى الخضوع والطاعة.

عبد السلام هارون، نوادر المخطوطات، جـ٤، ص٢٣٢ ؛ عبد العزيز جاويس، الاسلام دين الفطرة، ص٦١ .

(٣) سورة محمد ، آية ٤ .

ولم تأمر الديانة الإسلامية بالغاء الاسترقاق مرة واحدة، ولكنها عملت على انضاب منبعه وتقليل أثره من الوجود وحصره فى حدود ضيقة[1] وهى أن مصدر الرق الوحيد فى الاسلام هم أسرى الحرب المعلنة على الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى .

ولم يكتف الاسلام بتحديد مصدر الرق بل أوصى كثيرا بمعاملة الرقيق بالحسنى فقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم «الصلاة وما ملكت ايمانكم» وقال صلى الله عليه وسلم «اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة» وقد بلغت رعاية الرقيق والعناية بشأنه اقصى درجات الشفقة والرحمة فقد قال عمر رضى الله عنه سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه»[2].

وقد سوى الإسلام بين الرقيق ومولاه فى الطعام والشراب واللباس وفى التعلم والتهذب وسواهم بسادتهم فى معظم الحقوق المدنية إلا فى الولاية (الرياسة) كما حض على معاملتهم بالحسنى [3].

ولم يكتف الاسلام بالتوصية بمعاملة الرقيق بالحسنى بل اوصى بعتق[4] الرقيق وقد أوضح الله عز وجل اثناء كلامه عن العقبة التى بين الجنة والنار وطريقة اجتيازها «ما ادراك ما العقبة فك رقبة»[5] كما أوصى المسلمين أيضا بهذا العمل الإنسانى لتكفير ذنوبهم فقال تعالى فى محكم كتابه الكريم «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله»[6] ويكرر القرآن الكريم فى كثير من الآيات البينات فضل عتق الرقيق فجعله كفارة للقتل والوطء فى رمضان وغير ذلك كثير.

وأما عن السنة وعتق الرقيق فيقول ابوهريرة رضى الله عنه قال الرسول صلى الله عليه وسلم «من اعتق رقبة اعتق الله بكل ارب منها اربا منه من النار حتى انه ليعتق

---

(١) أحمد شفيق ، الرق فى الاسلام، ص٥٥ .

(٢) أحمد شفيق ، الرق فى الإسلام، ص٦٩-٧٣ .

(٣) حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام، جـ١، ص١٨٩ .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على اسود إلا بالتقوى» ويقول «واطيعوا لأولى الأمر منكم ولو ولى عليكم عبد حبشى».

(٤) العتق فى اللغة الخلوص وسمى البيت الحرام عتيقا لخلوصه من الجبابرة وهو فى الشرع تحرير الرقبة وتخليصها من الرق.

ابن قدامة ، المغنى ، جـ١٠ ، ص٣٨٨ .

(٥) سورة البلد ، آية ١٢، ١٣ ، جـ١٠، ص٣٨٨ .

(٦) سورة النساء، آية ٩٢ .

اليد باليد والرجل بالرجل والفرج بالفرج » فقد جعل صلى الله عليه وسلم العتق فكاكا لمعتقه من النار[1].

وقد ظفر الرقيق فى الإسلام بأسمى الرتب وتسلموا أعلى المناصب فها هو زيد بن حارثة وابنه اسامة الذى ولى امرة المسلمين ولم يناهز الثامنة عشر[2]. كما حكم مصر فى عصر الدولة الاخشيدية أحد رقيق الحبشة وهو كافور الاخشيدى.

وقد شاهدت مصر فى عصرها المملوكى تدفق اعداد كبيرة من الرقيق من مختلف بلاد العالم ولكننا سنقتصر فى حديثنا هنا على الرقيق الأسود المجلوب من سائر البلاد الافريقية وكانت هناك اسواق لتجارة الرقيق أو تجميعه فى أفريقيا منها زويلة[3] وبربر ودارفور وشندى[4] ووجدت فى غانة سوق رائجة لتجارة الرقيق الذى يجلب عن طريق القنص من الحدود الجنوبية لغانة حيث يوجد الزنوج البدائيون وقد عمل أهل السودان الغربى والأوسط فى تجارة الرقيق فى جميع بلاد السودان بين المحيط الاطلنطى والبحر الأحمر وحصلت غانة على رقيقها بصفة أساسية من القبائل المتوحشة التى عرفت فى الكتب العربية باسم الدمادم وكان العبد يباع احيانا بكمية من الملح تعادل قدر حجم قدمه ولما كثر وصول الملح إلى بلاد السودان صار الثمن المألوف للعبد أو للأمة هو حمل جمل من الملح[5].

ولم يكن تجار المسلمين هم الذين يقومون بصيد الرقيق بل كان يقوم به تجار من تلك البلاد أطلق عليهم الجلابة هم الذين كانوا يقومون بجلب الرقيق بعد صيده وتجميعه.

أما عن كيفية صيد الرقيق فانه كان يتم عن طريق الاغارة على القرى وعندئذ يدخل

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن، جـ٤، ص٥١٣ ؛ ابن قدامة ، المغنى ، جـ١٠ ، ص٣٨٨ .

من يريد الاستزادة لمعرفة موقف الاسلام من الرق يرجع إلى كتاب المغنى لقدامه الجزء العاشر، الرق فى الإسلام لأحمد شفيق .

(٢) حسن إبراهيم ، تاريخ الاسلام، جـ١ ، ص١٨٦-١٨٧ .

(٣) زويلة مدينة فى وسط الصحراء وهى أول حدود السودان بينها وبين أفريقيا ، وبين زويلة واجدابية (بلد بين برقة وطرابلس) اربعة عشر مرحلة وبينها وبين كانم اربعون مرحلة وكان يجلب منها الرقيق الأسود لأفريقيا.

ياقوت ، المعجم ، جـ٥، ص٤١٨-٤١٩ .

(٤) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٣٦ ؛ ياقوت ، المعجم، جـ٤ ، ص٤١٨ .

(٥) ابراهيم طرخان ، امبراطورية غانة، ص٧٤-٧٥ .

أهالي القرية في معركة مع أولئك القناصة وتنتهي المعركة غالبا بأسر بعض النساء والأطفال فيأخذهم التجار إلى مراكز تجميعهم تمهيدا لترحيلهم إلى مصر وغيرها من البلاد، ومن الواضح أن طبيعة المنطقة الاستوائية ومناخها كانت تساعد صيادي الرقيق على تأدية مهمتهم في المساء عندما يخرج الأطفال يلعبون بعيدا عن اكواخهم للترويح عن أنفسهم من جو الصباح الحار وعندئذ يتربص قناصة الرقيق لهم فيفاجئونهم ويكممون أفواههم لمنعهم من الصراخ ثم يقومون بنقلهم إلى أماكن بعيدة(١).

وهناك من الصيادين من كان يلقي بالتين والزبيب والحبوب أمام القرى فيأتي الأطفال لأخذها وعندئذ يلقون القبض عليهم(٢) كذلك كان بعض الأهالي يسرقون ابناء غيرهم ويقومون ببيعهم إلى التجار (٣).

وبعد تجميع الرقيق يساق مع قافلة التجار ويذكر بوركهارت أن الرقيق كان يحبس ويراقب ويوثق بالاغلال ويربط اثناء الرحلة إلى قائمة طويلة يشد أحد طرفيها إلى رجل الجمل ويحيط طرفها الثاني -وهو على شكل شوكة- بعنق الرقيق من الجبين ويربط خلفه بحبل متين يمنعه من اخراج رأسه من محبسه ثم تشد يمناه إلى القائمة على مقربة من رأسه فلايبقى طليقا غير ساقيه ويسراه ويمشي على هذا النحو خلف الجمل سحابة يومه، أما في الليل فيقضي سواده راسفا في الاغلال بعد أن يفك من القائمة(٤).

ويلاحظ أن الكتاب الأوربيين المحدثين حاولوا دائما وصف تجار الرقيق من المسلمين بالقسوة والوحشية ومع اتفاقنا معهم في أن هذه التجارة غير انسانية بالمرة إلا أن بوركهارت نفسه يعترف بما كان يلقاه الرقيق من جلابتهم من معاملة طيبة فيقول «ويلقى العبيد من الجلابة معاملة هي أقرب إلى الرقة منها إلى العنف، والعادة أن يعلم العبد بأن يدعو سيده أبوي وان يعتبر نفسه ابنا له وقل أن يجلب الجلاب عبيده أو يرهقهم بالعمل بل أنه كان يعطيهم طعاما طيبا ويتلطف معهم في الحديث لا رحمة بهم وبرا ولكن خشية هروبهم إذا هو اساء معاملتهم ، وهو لايجهل ما يلحقه بصحة العبد

---

(١) Klunzinger, Upper Egypt pp. 35-36 .

(٢) نقولا زيادة، رواد الشرق ، ص٨٧ .

(٣) الادريسي، نزهة المشتاق ، ص٢٦ .

(٤) بوركهارت، رحلته، ص٢٥٩ .

أخذ هذا الوصف من بوركهارت مع أن رحلته كانت في العصر الحديث إلا أنها تقرب لنا إلى حد كبير كيفية ترحيل الرقيق .

من اذى إذ هو حاول منعه من الهرب بحبسه والتضييق عليه. ولكن ما أن يدخلوا الصحراء فى طريقهم إلى نهاية الرحلة حتى يتنكر لهم سادتهم ويرخوا العنان لشراستهم وتوحشهم لأنهم يعرفون أن العبد سدت دونهم سبل الهرب. على أن صحة العبد هى على الدوام محل عناية الجلاب فالعبد يصيب طعامه بانتظام كذلك يسمح لصغار الفتيات بركوب الابل فى حين يقطع الباقون الرحلة راجلين سواء كانت وجهتهم مصر أو سواكن وقد لمست فى صغار العبيد شدة البدن فكنت أجدهم بعد مسيرة أيام متوالية بمعدل عشر ساعات إلى اثنى عشر ساعة فى اليوم يلعبون ويمرحون فى عقب العشاء كأنهم نعموا براحة طويلة وتحمل النساء الأطفال على ظهورهن ماشيات خلف القافلة وإذا مرض جمل حمل الجلاب العبيد حمله » [1].

ومما هو جدير بالذكر أن تجار الرقيق المسلمين كانوا يمنعون عند البيع أن يفصل الأخ عن أخته والأطفال عن ابائهم[2] كما يلقى الرقيق من الجلابة معاملة هى أقرب إلى الرقة منها إلى العنف والعادة أن يعلم الرق أن يدعو سيده «أبوى» وأن يعتبر نفسه ابنا له[3] وقل أن يجلد الجلاب رقيقه أو يرهقهم بالعمل[4] وهذا بالطبع يؤكد ان تجار الرقيق المسلمين لم تخل قلوبهم من بواعث الرحمة بعكس ما يقرره احيانا بوركهارت .

أما أسواق الرقيق التى كان يباع فيها فأهمها أسوان وأسيوط والقاهرة ذلك بالنسبة لمصر فضلا عن الأسواق الكبرى بالحبشة والسودان وشمال أفريقيا.

واتصف المجلوبون من كل بلد بصفة معينة[5] فالبربريات اطيع الخلق على الطاعة وانشطتهم للعمل واحسنهم للولد[6] والنوبيات أكثر الخلق اذعانا للموالى وكأنما فطرن على العبودية وهن ذوات ترف ولطف وابدانهم يابسة مع لين بشرة واخلاقهن طاهرة

---

(١) بوركهارت، رحلته، ص٢٥٧-٢٥٨ .

(٢) Klunzinger, Upper Egypt p. 37 .

(٣) نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن تحقير العبد والاستهانة به بتذكيره بما هو فيه من الاستعباد وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال عليه السلام ألا يقل أحدكم عبدى امتى وليقل فتاى وفتاتى وغلامى .

(٤) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٥٧ .

(٥) كتبت كثير من الكتب فى تبيان مزايا رقيق البلاد المختلفة لتكون دليلا للتجار والمشترين كما ألفت كتبا فى تبيان كيفية غش الرقيق ومن أهم هذه الكتب :

(أ) رسالة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .

(ب) رسالة فى آداب الحسبة لأبى عبدالله السقطى.

(٦) السقطى ، فى آداب الحسبة ص٤٩ .

وصورهن مقبولة وفيهن دين وعفة وخير[1] ، والزنجيات الغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب وليس فى خلقهن الغم والرقص والايقاع فطرة لهن وطبع فيهن، والبجايات حسنات الوجوه ملس الأجسام ناعمات البشرة جوارى متعة والشجاعة والسرقة فيهن طبع وغريزة ولهذا لايؤتمن على مال ولايصلحن لأن يكن خازنات ، والغالب على الحبشيات نعومة الأجسام ولينها وضعفها ولايصلحن للغناء ولا للرقص لايوافقهم غير البلاد التى نشأن فيها [2]. ويذكر ابن بطلان أن الرقيق من الرجال كان يتعلم جميع الصنائع والأعمال واختص النساء بالغناء والقيام بالأعمال المنزلية[3].

وقد جلب لمصر رقيق من سلطنة هدية احدى امارات الطراز الإسلامى حيث اشتهرت بتجارة الخصيان وكانوا يعرفون فى مصر باسم الطواشية وكان السلاطين والأمراء يفضلون هؤلاء للخدمة فى بيوت الحريم [4].

وكان على الذين يشترون هؤلاء الرقيق أن يتأكدوا من صفاتهم[5] وأى الرقيق هم فى حاجة إليه يحتاج اليه للعمل المنزل أم للعمل فى منزل الحريم أم فى عمل بدنى

---

(١) ابن بطلان ، رسالة فى شرى الرقيق ، ص٣٧٦ .

(٢) ابن بطلان ، رسالة فى شرى الرقيق ص٣٧٤-٣٧٦ .

ويلاحظ أن كثير من الصفات التى وصف بها أهالى تلك البلاد هى فعلا الصفات التى نلمسها فيهم حاليا فحقيقة أن أهل النوبة يتصفون بالأمانة والطاعة والطيبة والتدين كما أن الزنوج فمشهور عنهم ميلهم إلى الرقص والطرب والغناء وقد انتشرت فنونهم وموسيقاهم أينما حلوا أو انتقلوا حيث انتشرت موسيقاهم فى العالم اجمع .

(٣) ابن بطلان ، رسالة فى شرى الرقيق ، ص٣٨٥ .

(٤) مع أن الطبقة الحاكمة بهدية كانت طبقة اسلامية إلا أن أغلب رعاياها على الوثنية وهؤلاء الرعايا من السيرامى والجوارجى وقد اقترنت شهرتها بتجارة الخصيان الذين يجلبون اليها فكان تجار الرقيق يأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبة من هدية وسكان وشلو هذه هم متبربرون ويخصى العبيد عندهم لدرايتهم بالخصى وكان هذا مهم لتجارة النخاسة إذ أن الخصى أغلى ثمنا من غيره وبعد اتمام عملية الخصى يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا نظرا لأن مجرى البول يكون قد أنسد بسبب القيح عند الخصى ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب .

ابراهيم طرخان ، الإسلام والممالك الإسلامية، ص٤٠ .

(٥) من الطريف أنه كانت توجد طرق لغش الرقيق فكانوا يدخلون السمراء فى ابزن قد وضع فيه ماء الكرويا حتى يتلون ويتركونها اربع ساعات فتخرج وقد صارت ذهبية اللون. ويحمرون الخدود بغاسول صفته دقيق الباقلا ومن عروق الزعفران وحناء من كل واحد ربع جزء كما كانوا يدهنون أوجه الرقيق الأسود وأطرافهم بدهن البنفسج والطيب فتحسن بذلك وينعمون الأطراف الخشنة بالدهن والشمع واللوز وغير هذا كثير.

أبى عبدالله السقطى، فى آداب الحسبة ، ص٥٠-٥١ .

وغيره وكان المسلم إذا اقتنى غلاما ختنه واطلق عليه اسما عربيا ويرجع بوركهارت فيقول أن العبيد قلما كان يحتفظون بالاسماء الاسلامية الصحيحة[1] حسن محمد وسليم ومصطفى فجلهم يحمل اسماء كخير الله وفضل الله وأم الخير[2].

وقد لعب الرقيق دورا مهما فى الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية فى مصر فقد وصلوا إلى أعلى المناصب فاعتلى أحدهم كرسى الحكم وهو كافور الاخشيدى وكان من رقيق الحبشة كما كانت أم المستنصر بالله الخليفة الفاطمى سودانية الأصل، وأيضا خدموا فى الجيش المصرى زمن الطولونيين والاخشيديين وخاصة فى عهد كافور وقدرت اعدادهم فى الجيش المصرى زمن الفاطميين بـ ٥٠ ألف وإن كان هذا الرقم مبالغا فيه كما شاركوا فى حوادث الدولة الفاطمية فاستعان بهم الحاكم بأمر الله فى القضاء على الثورات كما تدخلوا فى النزاع الذى نشب بين الخليفة الحافظ وابنه الأمير الحسن بسبب الخلاف على ولاية العهد[3] وفى العصرين الأيوبى والمملوكى قل دورهم فى الحياة السياسية.

وكان دور الرقيق أكثر وضوحا فى الحياة الاجتماعية والأدبية فقد تخصص كثير من الرقيق فى تربية أولاد السلاطين والأمراء وتنظيم الأفراح والأعياد وترتيب شئون الحريم السلطانى وكان الرقيق الذى يعمل فى بيوت السلاطين والأمراء من الطواشيه المرتفعى الثمن وقد فضل الرقيق المجلوب من السودان فى العمل البدنى لقوتهم. أما العبيد الأحباش فلضعفهم كانوا لايصلحون للعمل البدنى ولكنهم عملوا كخدم فى البيوت لأمانتهم كما عملوا كتابا[4].

كما قدر لبعض فئات الرقيق أن تشارك مشاركة ايجابية فى الحياة العلمية الإسلامية فى مصر فنجد بعض الشخصيات النوبية اشتغلت بالعلوم الدينية والفقهية مثل يزيد ابن أبى حبيب وكان أبوه من سبى النوبة وقد أصبح يزيد محدثا ومؤرخا وفقيها وتتلمذ على يديه عدد من التلاميذ أضحوا من أشهر فقهاء مصر منهم الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة ومثل أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذى النون المصرى

---

(١) لم تسمع عن اسماء اسلامية واسماء غير إسلامية وإنما هى محاولة من الكتاب الأوربيين لتشويه المسلمين .

(٢) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٥٥ .

(٣) مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة، ص١٣٩ .

– مصطفى مسعد ، الإسلام والنوبة، ص١٣٠ .

(٤) بوركهارت، رحلته ، ص٢٤١-٢٤٢ .

وأصله من النوبة وقد تلقى الموطأ عن بعض أصحاب مالك حين خرج إلى الحجاز حاجا ولما عاد ذو النون مال إلى حياة الزهد والتصوف [1].

وفضلا عن اشتغالهم بالغناء والرقص فإنهم تركوا أثرا فى الحياة الأدبية يتضح من تغنى الشعراء بهم، والأمثلة على هذا كثيرة فابن الرومى يقول فى رقيق أفريقيا :

يفتر ذاك السواد عن عقيق | من ثغرها كالآلئ الغسق
كأنها والمـــزاح يضحكها | ليل تعرى دجاه عن فلق
غصن من الأبنوس ركب فى | مؤزر معجب ومنتطق[2]

وقال الشريف الرضى:

أحبك يالون السـواد فاننـى | رأيتك فى العينين والقلب توأما
وما كان سهم العين لولا سوادها | ليبلغ حبات القلـوب إذا رمـى
إذا كنت تهوى الظبى المن فلاتلم | جنونى على الظبى الذى كلـه لى

وقال بن سلمة:

لام العوازل فى سوداء فاحمة | كأنها فى سـواد القلـب تمثال
وهام بالخال أقوام وما علموا | ان أهيم بشخص كله خـال[3]

ويقول الشيخ عبدالله الشحنة :

حبشية سالتها عن جنسيتها | فتبسمت عن در ثغر جوهـرى
فطفقت أسأل نعومة ما خفـى | فقالت ما تبغيه جنسى امهرى[4]

هذا قليل من كثير مما تركه الشعراء فى التغنى بالرقيق الأسود شعرا ويدلنا هذا على مدى الأثر الاجتماعى والأدبى الذى تركه الرقيق فى المجتمع المصرى .

وفضلا عما سبق فمما لاشك فيه أن عناصر الرقيق كان لهم دور واضح فى نشر الإسلام والعروبة بين أهليهم فى النوبة والسودان وذلك حين يقومون بزيارة أهليهم

---

(١) مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة، ص١٤٠-١٤١ .

(٢) الشريشى ، شرح المقامات ، ص١١٢ .

(٣) الشريشى، شرح المقامات، ص١١٢ .

(٤) عبد المجيد عابدين ، الحبشة والعرب، ص٢٥٦ .

كما ساعدت التجارة عامة وتجارة الرقيق خاصة المسلمين على التحرك والتوغل داخل البلاد السودانية مما ترك أثرا واضحا فى تلك البلاد سواء كان أثرا دينيا أو ثقافية أو لغويا .

أما عن **تجارة الانتاج الحيوانى** فإن مصر أقبلت على استيراد غلاتها وأهمها العاج وقرن الخرتيت وريش النعام والجلود حيث كان يصنع معظمها فى مصر ولايصدر منها إلا القليل.

فالعاج كان من السلع المهمة التى أقبلت عليها مصر وكانت القوافل ترد إليها محملة بالعاج أو (سن الفيل) من دارفور وساحل أفريقيا الشرقى والحبشة التى تميز عاجها بطوله وثقله عن عاج الهند[١]. وقد استخدم العاج فى التطعيم والترصيع لاسيما فى حشوات المنابر وفى قطع الأثاث والأبواب والمنابر وحوامل المصاحف وقد أخرج المصريون تحفا تعد آية فى الجمال والاتقان [٢].

كذلك استعمل **قرن الخرتيت** الذى كان يجلب من السودان فى تطعيم بعض المصنوعات وفى صناعة زخارف يحلون بها مقابض السيوف والخناجر[٣].

ومن الغلات التى أقبل عليها السلاطين والأمراء وأثرياء القوم ريش النعام المجلوب من الحبشة وأواسط السودان حيث استعمل فى المفروشات كما صنعت منه المراوح الأنيقة [٤].

كذلك استوردت مصر الجلود من السودان حيث وجدت أفضل مصانع الجلود وتظهر مهارة الصانع السودانى فى صناعة رحال الإبل والحقائب والصنادل كما تصنع منه الزمزميات كما صنعوا الجربان الكبيرة التى يحمل فيها دقيق الذره وقرب الماء الكبيرة من جلود الثيران واشتهرت سنار بالعنقريب وقد استوردت مصر جميع هذه السلع من السودان[٥]. والحق أنها لم تقتصر فى استيرادها على الجلود ومصنوعاتها من السودان فقط بل استوردتها من برقة أيضا[٦] وقد صدرت مصر إلى السودان

---

(١) Heyd, Histoire du Commerce vol II , pp. 629-630 .

(٢) زكى حسن ، فنون الاسلام، ص٥٠٤؛ سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٢٨٣ .

(٣) بوركهارت ، رحلته، ص٢٤٣ .

(٤) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٤٧ .

(٥) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٤٣ .

(٦) ابن حوقل ، صورة الأرض ، جـ٢ ورقة ٤٠ .

جلود الغنم المدبوغة بأصوافها وكانت تستعمل فرشا لسروج الخيل ورواحل للجمال وبرادع للحمير كما يفرشونها للجلوس عليها [١].

أما عن **تجارة المعادن**[٢] فقد نالت مصر فيها شهرة عريضة، فقامت بالاستيراد والانتاج والتصنيع والتصدير واستوردت مصر بعض الخامات المعدنية كالذهب والنحاس وادخلتها فى بعض صناعاتها كما كانت المنتج والمصدر الأكبر فى العالم للزمرد والشب .

وقد اشتهرت بلاد من أفريقيا بانتاج هذه المعادن فغانة كانت من أشهر مناطق **تجارة الذهب** فى أفريقيا وكانوا يجلبونه من ونقرة[٣] ولكثرة ما حصلت عليه غانة من الذهب وصفت بأن أرضها كلها ذهب وكان الذهب يبادل بالملح[٤] المستخرج من تغازى وبلاد البربر، وكانت ندرة الملح فى تلك البلاد سببا فى شدة الطلب عليه فكان يبادل مثقال الملح بمثقال من الذهب، كما استعمل كنقد فى المعاملة[٥] وقد قام ملوك غانة وتجارها بدور الوسيط بين أصحاب الذهب فى الجنوب والتجار المسلمين[٦] الوافدين من مصر وشمال أفريقيا كما استخرج الذهب من العلاقى ببلاد البجة [٧].

وقد أقبلت مصر المملوكية على شراء الذهب حيث انتشرت صناعة تكفيت وتطعيم البرونز والنحاس والذهب والفضة واشتهر بهذه الصناعة سوق الكفتيين بالقاهرة، كذلك عنى المصريون بصناعة الذهب والفضة فأكثروا من صنع الأوانى والحلل الذهبية

---

(١) بوركهارت رحلته ، ص٢٣٤ .

(٢) المعدن مأخوذ من المعدن وهو الاقامة ومن قوله «جنات عدن» وعدن عند المالكين والحنفيين والحنبليين هو ما خلقه الله تعالى فى الأرض من ذهب أو فضة أو نحاس وغيره .

محمود السبكى، الدين الخالص، جـ٨، ص١٨٢ .

(٣) ونقرة تقع جنوب غربى غانة وتشمل أربعة أقاليم هى بامبوك الواقعة بين روافد السنغال العليا وبافنج وقاليمى بور عند أعالى نهر تنكسو Tinkisso رافد النيجر، ولوبى Lobi عند أعالى نهر فولتا وأشانتى داخل جمهورية غانة الحديثة.

ابراهيم طرخان امبراطورية غانة ، ص٦٨ .

(٤) سبق ذكر طريقة تبادل الذهب والملح فى الفصل الأول.

(٥) البكرى ، المغرب ، ص١٨٣ .

القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٥، ص٢٩١ .

(٦) ياقوت ، المعجم ، جـ٢، ص٣٦١ .

(٧) الأصطخرى، المسالك والممالك، ص٣١ .

والفضية[1] كذلك استخدم الذهب في عمل سبائك بدار الضرب حيث يصهر الذهب حتى يصير ماء واحدا حارا ويصب قضبانا ويقطع من أطرافه ليصبح سبيكة[2].

ومن المواد التي استخدمت في الصناعة على نطاق واسع **النحاس** وكانت أهم مناجمه بتكدا حيث يحفر الأهالي في الأرض بحثا عنه ثم يأخذونه إلى دورهم فيسبكونه ويصنعون منه قضبانا في طول شبر ونصف شبر بعضها رقيق والآخر سميك وكان كل أربعمائة قضيب من القضبان السميكة يعادل مثقالا[3] من الذهب بينما كان كل ستمائة قضيب من القضبان الرقيقة يعادل مثقالا من الذهب وقد جلب النحاس إلى مصر[4] حيث أقبل المصريون على استخدامه في مختلف النواحي الصناعية كصناعة الأبواب المكفته علاوة على الشماعيد والكراسي والصناديق والأباريق والآنية وقلما خلت دار من دور المصريين من النحاس المكفت كما كان لابد من وجود دكة نحاس مكفت في مشورة العروس[5].

وكما استعمل الذهب في دار الضرب استعمل النحاس في دار الضرب حيث عملت منه سبائك بخلطه مع الفضة بنسبة سبعمائة درهم نحاس إلى ثلثمائة درهم فضة [6].

وقد ازدهرت صناعة التكفيت والتطعيم وتزيين قطع الأثاث في مصر ازدهارا عظيما وليس أدل على ذلك من أنه يوجد في المتاحف المصرية قطع أثرية عديدة تتضح فيها دقة الصناعة والعناية بها محدثة لنا عن مدى ما وصل إليه المصريون من مهارة واتقان في صناعة التكفيت والترصيع .

ومن المعادن التي اشتهرت مصر بانتاجها **الزمرد**[7] وقد عرف قدماء المصريين

---

(١) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ص٢٨٢-٢٨٣ .

(٢) كان بمصر داران للضرب احداهما بالقاهرة والأخرى بالاسكندرية.

ابن مماتي ، قوانين الدواوين، ص٣٣١ .

(٣) المثقال لغة كل ما يوزن به قليلا أو كثيرا وشرعا قدر مخصوص يزن ٢٢ قيراطا فالمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم ووزنه بالجرام ٤,٤٤ .

محمود السبكي ، الدين الخالص ، جـ٨ ، ص١٣٩ .

(٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، جـ٢، ص٢٠٥ .

(٥) زكي حسن ، فنون الاسلام ، ص٥٥١-٥٥٣ .

(٦) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٢٢٥ .

(٧) يذكر ابن تغرى بردى أنه في السنة السابقة من ولاية الملك الناصر محمد بن قلاون عام ٧٠٤هـ ظهرت قطعة من الزمرد زنتها ١٧٥ مثقالا ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص٢٣ .

مناجم الزمرد بالصحراء الشرقية فى المناطق المجاورة لأعالى مصر العليا ويذكر المقريزى أن معدن الزمرد يوجد فى الصعيد بجوار قفط[1] فى قرية تعرف بالجزية بينها وبين قفط ثلاث مراحل، ويوجد هذا المعدن فى مغارات عميقة بعيدة مظلمة وكان استخراجه يتم بأن يدخل الناس إلى هذه المغاور بالمصابيح وبحبال ليستدل بها أثناء الرجوع ويحفر عليه بالمعاول حيث يوجد وسط الحجارة[2].

والخضرة تعم جميع أصناف الزمرد وأفضله ما كان مشبعا بالخضرة ذا رونق وشعاع لايشوبه سواد ولاصفرة وفضلا عن استخدامه كأحجار كريمة للتزين فإنه استخدم كذلك بوصفه عقارا طبيا حيث ينفع من السموم المشروبة ونهش الأفاعى ولدغ العقارب، كما يوقف الجذام فى ابتدائه ويقطع الاسهال المزمن ويقوى المعدة وإذا امسك فى الفم فإنه يقوى الأسنان [3].

ومن المعادن التى اشتهرت مصر بانتاجها وتصديرها الشب وكان يستخرج من الواحات حيث يحمل أهل الواحات ألف قنطار منه فى العام إلى القاهرة نظير اعفائهم من الجوالى[4] وقد بطل ذلك فى عهد المماليك وقد احتكر المتجر السلطانى التجارة فى الشب بحيث إذا ثبت أن أحدا اشترى منه شيئا أو باعه نكل به ، وبلغ المباع منه فى الاسكندرية سنويا خمسة آلاف قنطار وبلغ فى بعض الأعوام ثلاثة عشر ألف قنطار وتراوح سعر القنطار بين خمسة وستة دنانير[5] ، وكانت هذه الأسعار خاصة لتجار أوربا أما فى مصر فبيع بسعر سبعة دنانير ونصف وكان الديوان ينفق على تحصيل القنطار ثلاثين درهما فقط[6]. من هذا يتبين مدى الربح الذى يعود على المتجر السلطانى نتيجة احتكار تجارة الشب.

---

(١) قفط قرية بجوار قوص وقد اشتهرت كمركز تجارى كبير قبل ازدهار قوص التى احتلت مكانة قفط. واسمها القديم اقريطى ومنه اشتق قبطى وأقباط المصريين ، ياقوت ، جـ٧، صص١٣٨-١٣٩ . امين واصف ، الفهرست ، ص٥٩ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص٣١٣ .

(٣) ابن الاكفانى، نخب النخائر ، ص٤٨ .

(٤) ابن اياس ، الأزهار ، ص٢٤-٢٦ .

(٥) الدينار يساوى $28\frac{4}{7}$ درهم

محمود السبكى، الدين الخالص، ص١٣٨ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، جـ١ ص١٧٦ .

القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣ ص٤٥٩-٤٦٠ .

كما استخرج الشب من السودان فى المنطقة حول بحيرة تشاد حيث كانت توجد مملكة الكانم وكان رأسمال هذه البلاد، وأحضره التجار إلى مصر والمغرب الأقصى . ويتدرج الشب فى أنواعه من النوع الممتاز الذى يشبه الثلج وان شابته أحيانا بعض الألوان الباهتة كالأحمر والأخضر أما شب الدرجة الثانية فيختلط به بعض الصخور والنوع الثالث هو شب الحفر الذى يصير بعد تنقيته شبه البلورات الصافية ويوجد فى شمال أفريقية وهو نوع غير نقى تختلط به بعض الصخور بنسبة ٢ : ٥ .

أما أهم استعمالا الشب فهى صبغ الأحمر وتثبيت الألوان على الثياب فيكسبها لمعانا شديدا كما استخدم فى الرسم والتدهيب والدباغة وفى الأغراض الطبية استخدام نوع من الشب السكرى وهو نقى يصهر مع ماء الورد وبياض البيض(١).

أما **المحاصيل الزراعية** فقد كانت شهرة مصر فيها راجعة بصورة كبيرة إلى قيامها بدور الوساطة التجارية إلى جانب أنها كانت مصدرة لبعض محاصيلها الزراعية ومن أهم تلك المحاصيل البلسان والتوابل والفلفل والجنزبيل والقرفة والخولنجان وغيرها من المحاصيل .

وقد اشتد طلب العالم فى تلك العصور على **البلسم**(٢) وينتج من شجرة البلسان(٣) وكانت تزرع فى عين شمس فى موضع محاط عليه، مساحته سبعة أفدنة وتبلغ ارتفاع شجرة البلسان ذراع أو أكثر وعليها قشرتان العليا حمراء خفيفة والسفلى خضراء سميكة ويجنى دهنه بأن تخدش ساقه فيسيل على العود فيجمع بمسحه بالأصبع ويوضع فى قنانى من الزجاج ويقدر ما يجمع منه بحوالى نيف وعشرين إلى ستين رطلا ثم تؤخذ القنانى للشمس فيطفوا الدهن فوق رطوبة مائة فيؤخذ الدهن الطافى وتعاد القنينة ثانية وتتكرر العملية حتى لايبقى فيها دهن ثم يطبخ الدهن ويحمل إلى

(١) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص٣٢٨ .

(٢) Heyd, Histoire du Commerce vol II, pp. 567-570 .

نعيم زكى ، طرق التجارة، ص٢٢٨ .

(٣) يرجع شدة طلب المسيحيين على البلسان أو البلسم إلى الأسطورة التالية «أنه عند فرار الأسرة المقدسة إلى مصر نزلت لتستريح بمكان غير بعيد عن بابليون فجلست السيدة مريم العذراء على الأرض وفى حجرها سيدنا عيسى عليه السلام بعد أن أجهدها السير ونال منها العطش مناله وهنا حدثت المعجزة فقد أخذ الطفل يرفس الأرض بقدميه فلامس كعباه الأرض وما أن حدث ذلك حتى تفجرت عين ماء فى الموضع الذى لمسته قدماه فاستطاعت السيدة العذراء أن تروى ظمأها من ذلك الماء وأن تغسل لفائف الطفل بالماء أيضا حيث تساقطت قطرات الماء المعتصرة من لفائف الطفل فأنبتت شجيرات من البلسان لاتزال تنبت وتزهر فى ذلك المكان .

سونياهاو ، فى طلب التوابل ، ص١٦-١٧ .

خزانة الملك[1] وكان سلاطين مصر يحتكرون البلسان وتراقب عملية جمعه مراقبة شديدة لقلة الناتج وكثرة الطلب عليه وغلاء سعره ، وكان المحصول يباع لحساب السلاطين[2] وقد غالى الفرنج فى طلب هذا الدهن كما تغالوا فى ثمنه وكان المسيحيون يرون أنه لايتم تنصير نصرانى إلا بوضع شىء من دهن البلسم فى ماء المعمودية عند تغطيسه[3] ونظرا لندرته وشدة الطلب عليه فقد كان سلاطين المماليك يهدون جزءا منه إلى ملوك أوربا والحبشة وإلى الشخصيات الكبيرة التى تفد إلى مصر ويذكر ابن اياس أن البلسان لم يعد ينبت فى مصر منذ عام ٩٠٦هـ[4].

أما **التوابل** فقد اشتد الاقبال عليها فى أوربا ولم تكن مصر تزرع شيئا من التوابل بل قامت بدور الوساطة التجارية فكانت تجلبها من مناطق انتاجها وتقوم ببيعها وأهم هذه التوابل التى اشتد عليها الطلب الفلفل والجنزبيل والقرفة والخولنجان .

وكان **الفلفل** أكثر هذه التوابل طلبا واشتدت الرغبة فى الحصول عليه وارتفع ثمنه ارتفاعا هائلا ومناطق زراعته فى الهند والشرق الأقصى وشرق أفريقية وتغمره المياه باستمرار حتى إذا نضج يسقط على وجه الماء (عبارة عن عناقيد) نتيجة لهبوب الريح وعندما تحمى الشمس على العناقيد تزول عنها الأوراق [5]. وأجوده النظيف من التراب والسليم من الاحتراق والفلفل منه الأبيض والأسود أشد حراقة وهو يلطف الأغذية ويشهيها أما الأبيض فيخالف الأسود فى شكله ويدخل فى صناعة العقاقير الطبية ولايستعمل فى تتبيل الطعام[6].

ولشدة اقبال الأوربيين عليه أصبح نادرا وارتفع ثمنه ارتفاعا جنونيا حتى صار هناك مثل شائع فى العصور الوسطى بتشبيه الشىء النادر الغالى بالفلفل فيقولون غالى كالفلفل[7] ، ونتيجة لهذا أصبحت للفلفل قوة شرائية يتعامل به فى أحوال معينة،

---

(١) البغدادى ، الافادة والاعتبار، ص١٣ .

(٢) البغدادى ، الافادة والاعتبار، ص١٣ .

(٣) ابن اياس ، نزهة ابن اياس ورقة ١٧ .

(٤) ابن اياس ، تاريخ مصر ، جـ٢ ص٢٧٣ .

(٥) ابن الوردى ، تحفة العجايب ، جـ٢ ، ص٢١٩-٢٢٠ .

(٦) أبو الفضل الدمشقى، الاشارة إلى محاسن التجارة، ص٢١-٢٢ .

(٧) نظر الندرة الفلفل وشدة الطلب عليه نسجت عنه الكثير من الأساطير منها أنه كان يسود الاعتقاد بأنه ينبت فى جنوب القوقاز وفى أعالى النيل فى وهج الشمس وان الثعابين والحيات تقوم على حراسته .
سونياهاو ، فى طلب التوابل، ص٢٠-٢٣ .

فكان رؤساء الكنيسة الفرنسية يتقاضون العشور توابل سواء فلفلا أو جنزبيلا، كما أن العبيد يشترون حريتهم باحمال من الفلفل، كما كان اليهود يدفعون ضريبة من الفلفل والجنزبيل والشمع للسماح لهم بحيازة مدافن ومدارس وكان يؤدى كايجار للأراضى الزراعية فى انجلترا (١).

والنوع الثانى من أنواع التوابل التى اشتد الطلب عليها هو **الجنزبيل**(٢) ويشبه الفلفل فى طبيعته وسائر فوائده وان كانت ليست له لطافة الفلفل وأجوده الصينى المائل إلى الصفرة ويزرع فى الهند والصين وبلاد العرب وجزيرة مدغشقر وشرق أفريقيا وهو حار يابس يجلو الرطوبة من الحلق وينفع برد الكبد والمعدة وينفع من سموم الهوام(٣) وأجوده ما كان طريا سالما من السوس والعفونة وهو يسوس بسرعة ولحفظه يخلط مع الفلفل (٤).

ومن التوابل التى استخدمت كعقاقير طبية **القرفة** وتنبت فى الملايو والحبشة كما أنها جلبت من غرب السودان(٥) وقد دخلت فى صناعة العقاقير الطبية وعرفت فى أوربا فى القرن الثامن الميلادى حيث كانت تصل مع العطور والبخور كهدايا للملوك والأمراء وقد عرف الأوربيون عن طريق العرب فائدتها الطبية فى حالات الحمى والدوسنتاريا بالاضافة إلى استعمالها فى تتبيل اللحوم والمشروبات (٦).

وغير ذلك من التوابل التى نقلت عن طريق البحر الأحمر، وكانت تزرع فى الهند وشرق أفريقيا وقامت مصر بالوساطة فيها بل وتحكمت فى تجارتها **الخولنجان** ويستعمل كعقار طبى فهو نافع للبلغم وينفع الكلى وجيد للمعدة وهاضم للطعام (٧). كذلك **البقم**(٨) **والكمون والقرنفل** وغير ذلك كثير.

---

(١) . Heyd, Histoire du Commerce vol.II pp. 658-663

(٢) الزنجبيل لفظ سنسكريتى (سرنجفيرا Crngavara) ثم استعارته الارامية زنجبيل فالعربية جنزبيل والانجليزية Ginger ويلاحظ أن صيغة اللفظ فى اللاتينية هى زنجبير Zingiber وكذلك اليونانية.

سيجريد هونكة ، شمس الله، ص٤٨١ .

(٣) ابن الوردى ، تحفة العجايب، جـ٢ ، ص٢٢٠ .

(٤) أبو الفضل الدمشقى ، الاشارة إلى محاسن التجارة، ص٢٢ .

(٥) بوركهارت ، رحلاته ، ص٢٢٨ .

(٦) . Heyd, Histoire du Commerce vol.IIpp. 595-597

(٧) ابن البيطار ، الجامع لمفردات الأغذية، جـ٢ ، ص٨١ .

(٨) كمون لفظ عربى قديم فهو فى الأشورية (كمون) وفى العبرية (كمون) واليونانية (كمان) ومنها إلى اليونانية كمينون Kyminon وسائر اللغات الأوربية ، سيجريد هونكه، شمس الله ، ص٤٨١ .

ومن المحاصيل الأخرى التى ترد إلى مصر **الصمغ** وأجود أنواعه يأتى من كردفان وسنار وكان نادرا غالى الثمن واستخدم فى صناعة بعض العقاقير الطبية [١]. كما كان هناك نوع من الخشب غالى الثمن يجلب من السودان على هيئة قطع صغيرة أطولها حوالى قدم، وكان شجره ينمو بجنوب السودان وهو **الأبنوس**[٢]. وقد أقبلت مصر على استيراد هذا النوع من الخشب نتيجة لاقبال الفنانين على انتاج التحف الدقيقة ولاسيما المنابر والخزانات والأبواب والكراسى والدكك وقد استخدم الأبنوس فى زخرفة وتحلية كافة المصنوعات السابقة[٣].

هذا هو أهم ما كانت تستورده مصر من محاصيل أفريقيا الزراعية حيث استخدمت جزءا منها وقامت بتصدير الباقى ، جامعة عن طريق ذلك أكبر ثروة عرفت فى تلك هذا العصر.

فماذا كانت مصر تصدر إلى الدول الأفريقية من حاصلاتها الزراعية وقديما اشتهرت مصر بأنها مخزن الغلال للعالم أجمع حيث صدرتها إلي كثير من أجزاء العالم، وفى العصور الوسطى لم تعد مصر مخزنا للغلال حيث كان ما تصدره منها قليل ولكنها صدرت **الكتان** الذى اشتهرت بزراعته وخاصة فى الصعيد –حيث اشتهرت بوش به– إلى جميع بلاد أفريقيا كالمغرب وغرب ووسط أفريقيا وشرقها حيث أقبلت أفريقيا على الكتان المصرى لجودته[٤] كذلك صدرت إلى أفريقيا **الحلبة والتمر** الوارد من الواحات والنوبة.

كما استورد من مصر **السنبل والمحلب** وكلاهما يشتد عليه الطلب فى السودان حيث يتعطرون بأولهما ويتطيبون ويتبلون طعامهم بالثانى وقد يتداوون به وأحيانا يبيعها التجار مخلوطين معا بنسبة ثلاثة أجزاء من السنبل إلى جزء من المحلب وحمل الجمل يشتمل عادة على ٣٥٠رطلا من السنبل و١٢٠ رطلا من المحلب ولكنه قد يشتمل على مقادير متساوية من الصنفين ويطلق على هذا الحمل اسم زاملة[٥] كما يصدر إلى الحبشة وغرب أفريقيا وإن كان الطلب عليه هناك قليلا [٦].

---

(١) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٢٧ .
(٢) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٤٣ .
(٣) زكى حسن، فنون الاسلام، ص٤٦٧ .
(٤) ابن بطوطة ، رحلته جـ١ ط التحرير، ص٣٩ . . Dopp, L'Egypte, p. 35
(٥) زاملة الحمل الكبير المنعم .
(٦) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٣٢ .

وإلى جانب هذا التبادل التجارى للمنتجات الحيوانية والنباتية والمعدنية فقد كان هناك تبادل **للمنتجات الصناعية** وإن حازت مصر قصب السبق فى تصديرها لهذه المنتجات بكافة بلاد القارة حيث لم تستورد إلا القليل منها على نقيض الانتاج الزراعى والحيوانى والمعدنى.

فقد برعت مصر فى انتاج الأقمشة المختلفة التى لاينسج مثلها فى العالم ومنها **القصب الملون** من عمامات ومما يلبس النساء **والبوقلمون** ولايوجد مثيل له فى العالم وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار، ويصدر إلى المشرق والمغرب وإلى غرب أفريقيا والسودان وكان مركز تلك الصناعات تنيس[1] التى كان يعمل بها بالإضافة إلى ذلك **الثياب الشروب** ، وصنعت أيضا فى دمياط كما عمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طرز بمائة دينار وكان يتنيس خمسة آلاف منسج لنسج الثياب الشروب كما انتجت مصر **العمائم الشرب** الملونة والمذهبة ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار بخلاف الحرير والغزل وكانت دبيق من قرى دمياط مركز هذه الصناعات[2].

ونسج **القصب الأبيض** ورفيع الثياب بدمياط [3]. أما طرز الخاصة وهى **الستور** المعروفة بالبهنسية والتى يبلغ طول الواحد منها ثلاثون ذراعا قيمته مائة مثقال فكانت تنسج بالبهنسا وصممت وفيها أيضا طرز كثيرة مختلفة للعامة وسائر الأكسية والثياب المصنوعة سواء من الصوف أو من القطن وكان يكتب عليها إذا

---

(١) تنيس مدينة قريبة من دمياط وبها أسواق كثيرة ويبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان وكان للسلطان مصانع خاصة به ينسج له فيها ثيابه وكان انتاج هذه المصانع لايباع ولايعطى لأحد ولهذه المصانع صناع مخصوصون وكان لايدخل فى ثوب السلطان من الكتان فى السدى واللحمة غير أوقيتين وينسج باقيه من الذهب صناعة محكمة لاتحتاج إلى تفصيل أو خياطة.

ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص٣٨ .

ابن اياس ، النزهة ، ورقة ١٦٣ .

مما يدل على عظمة منسوجات تنيس أن ناصر خسرو سمع أن ملك فارس أرسل رسله إلى تنيس بعشرين ألف دينار ليشتروا له حلة من كسوة السلطان وقد بقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراءها ويروى أن عاملا نسج عمامه للسلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى ويضيف أنه رأى هذه العمامة وقدرها أربعة آلاف دينار مغربى كما أنه سمع أن سلطان الروم أرسل إلى سلطان مصر يطلب منه أن يعطيه مائة مدينة ويأخذ تنيسى فرفض كل هذا يدلنا على ما وصلت إليه براعة أهل تنيس وشهرتهم فى النسيج.

ناصر خسرو، سفر نامة، ص٣٨ .

(٢) المقريزى، الخطط، جـ١، ص٣٦٥ .

(٣) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص١٥٦ .

كانت من طرز الخاصة أم من طرز العامة كما نسج بها المقاطع السلطانية وقد نالت منسوجات البهنسا[1] وأسيوط ومنفلوط شهرة عظيمة . وكان السودانيون يقبلون على هذه المنسوجات الكتانية وكان استخدامها قاصرا على علية القوم[2]. كما اشتهرت أسيوط بالمنسوجات الصوفية الناعمة والسجاد وشيلان التيل البيضاء والسوداء الموشاه بالفضة كما نالت أسيوط شهرة عريضة فى صناعة النسيج [3]. كما استوردت السودان من مصر **التاكات** وهو عبارة عن قماش أزرق يبطن به النساء أفضل ملأتهن ويباع قطعا صغيرة[4] وقد انتشرت المنسوجات المصرية فى جميع أنحاء أفريقيا [5].

أما **الدمور** فقد اشتهرت بصناعته سنار وانتشر استعماله فى جميع بلاد السودان والنوبة والحبشة [6]. أما **القفاطين والقمصان والسراويل والبرانس** فقد اشتهرت بصناعتها الحوصة حيث ازدهرت بها صناعة النسيج وكانت نساؤها هن اللاتى يقمن بهذا العمل حيث ينقلن القطن ويغزلنه ثم يصبغنه بشتى الألوان وينسجنه قطعا طويلة نحيلة تصنع منها الملابس سالفة الذكر وكانت هذه المصنوعات تصدر إلى بلاد السودان جميعها [7].

ومن أهم منتجات مصر التى صدرتها ووجدت اقبالا عليها فى مختلف الدول الافريقية **السكر** حيث اشتهرت مصر بجودة السكر المصنوع بها حيث كان أبيض نقيا خاليا من الشوائب وكان للسكر قيمة كبرى فى السودان حيث كان يقدم باعتباره نوعا من الهدايا إلى العظماء والنساء ويباع بأضعاف أضعاف ثمنه[8] .

أما **المسابح والعقود** المصنوعة فى مصر فكانت تلقى رواجا فى البلاد الأفريقية حيث استعملت أحيانا كأداة للتعامل وقل أن تجد احدا من القوم لايتحلى أو يحمل فى عنقه أو يده عقدا أو عقدين . كما صدرت مصر أيضا الحلى المصنوعة من الفضة

---

(١) الادريسى، نزهة المشتاق، ص٥٠-٥١ .

(٢) بوركهارت، رحلته ، ص٢٣٢ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أسيوط، جـ٢، ص٢٠٢-٢٠٣ .

(٤) بوركهارت، رحلته، ص٢٣٣ .

(٥) ابن بطوطة ، رحلته ، جـ٢ ، ص١٨٥-٢٠٥ .

(٦) بوركهارت ، رحلته ، ص٢٣٩ .

(٧) دائرة المعارف الإسلامية، مادة الحوصة، جـ٥، ص١٤٥ .

(٨) بوركهارت ، الرحلة، ص٢٣٢ .

والتى اشتهرت مصر بصناعتها وكانت تجلب إلى اقاليم السودان كما جلبوا الاجراس الدقيقة التى يحلون بها لجام الابل [١].

ومن العرض السابق يتبين أنه كان هناك ارتباط قوى بين الدول الافريقية تمثل فى التبادل التجارى فانتشرت بها الطرق البرية التى تقطعها القوافل من شرقيها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها لاتقف فى سبيل هذه الطرق صحراء أو أنهار أو قاطعو طريق حيث عم بها الأمن وانتشرت على جانبيها الآبار تروى ظمأ القوافل المارة فنمت التجارة وازدهرت كما تناثرت على سواحلها وشطئانها الموانىء والمراسى للسفن ونشأت فى ربوعها مدن زاهرة كانت فى الأساس مراكز للتبادل التجارى كما قامت بها أشهر مصانع للنسيج فى العالم. وعلى ساحل أفريقيا نشأ أو وجد أكبر ميناء عالمى فى ذلك الوقت ألا وهو الاسكندرية كما وجدت بها مدينة من أكبر مدن العالم واغناها قبلة العلماء ومحط القوافل وخزانة العالم ألا وهى القاهرة كما سيطرت وتحكمت أفريقيا فى أغلب تجارة التوابل ذات الأهمية القصوى الواصلة إلى أوربا وكانت مصدرا رئيسيا للذهب ولازالت .

---

(١) بوركهارت، الرحلة، ص٢٣٥ .

الفصل الرابع

دور مصر باعتبارها وسيطا تجاريا للحاصلات الأفريقية وأهمية ذلك لدولة المماليك

تركز التجارة العالمية عبر طريق البحر الأحمر- سيطرة مصر على التجارة العالمية- أهمية تجارة العبور لمصر- جهود المماليك فى تشجيع التجارة (ارسال الحملات المستمرة لنشر الأمن- ارسال مناشير لتشجيع التجار على القدوم إلى مصر- تعمير الثغور- اقامة فنادق) الضرائب المفروضة على التجار (رسم البهار- الثغور- الزكاة- الجمارك) احتكار السلاطين للتجارة- اكتشاف رأس الرجاء الصالح - زوال دور مصر التجارى

تلعب التجارة دورا كبيرا فى ازدهار الأمم التى تباشرها وتقوم بها وقد غدت دولة المماليك فى العصور الوسطى من أغنى دول العالم وأثراها ماديا وثقافيا وحضاريا ذلك لقيامها بالوساطة التجارية بين آسيا وأفريقية وأوربا ففى موانيها وأسواقها كانت تتم المبادلات وتعقد الصفقات التجارية.

ويرجع ازدهار مركز مصر التجارى وقتئذ بدرجة كبيرة إلى العوامل السياسية التى سادت آسيا فى القرن الثالث عشر والتى أدت إلى استبدال الطرق التجارية بعضها لبعض أو بمعنى آخر تركز التجارة على طرق بعينها واهمال أخرى غيرها وقد ساعدت هذه العوامل على ظهور طريق البحر الأحمر باعتباره أهم طريق تجارى للتجارة العالمية .

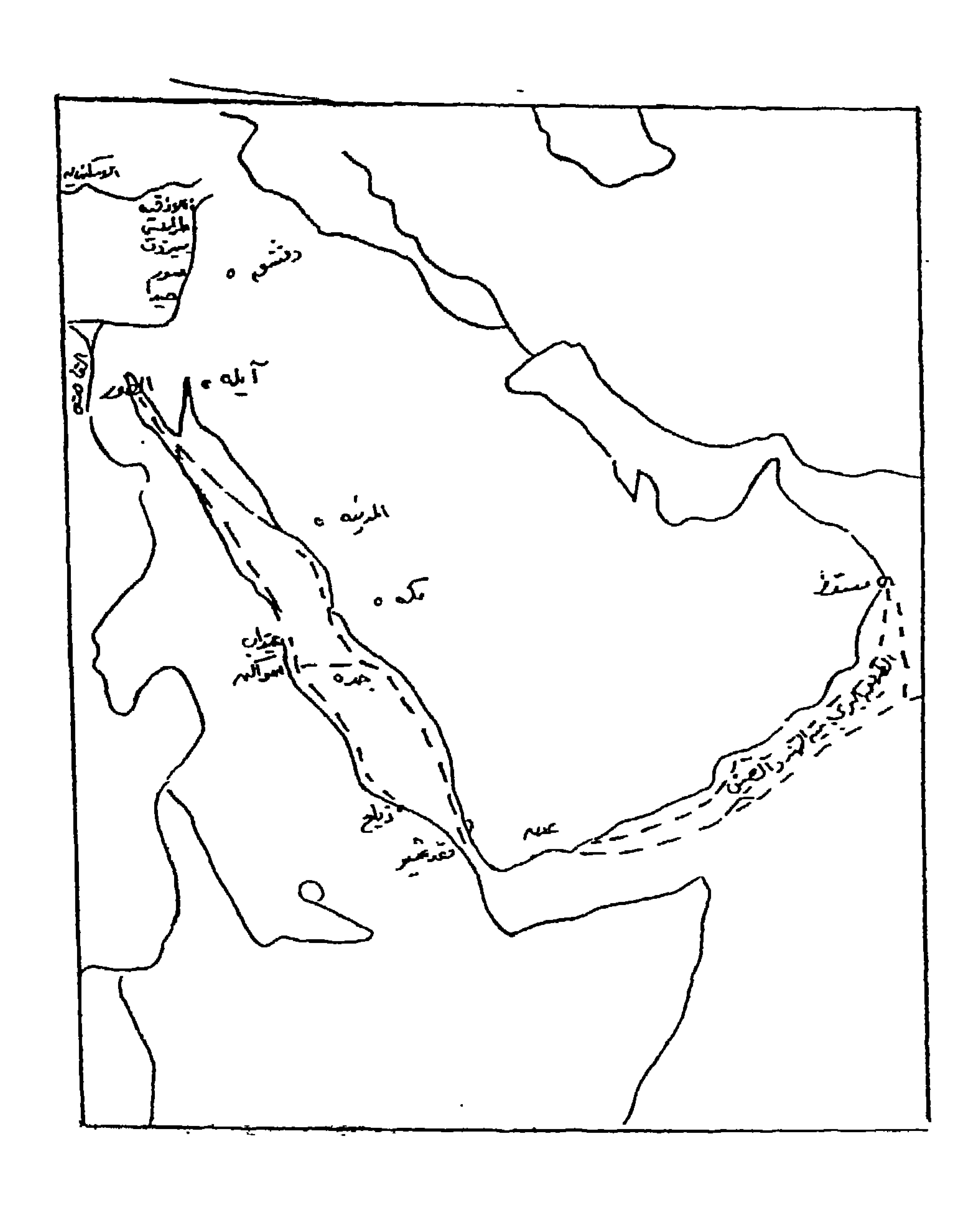
وأهم هذه العوامل استيلاء المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ وامتداد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى فضلا عن بلاد فارس التى اتخذها هولاكو مركزا لدولته مما أدى إلى اضمحلال طرق التجارة البرية بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانى البحر الأسود من جهة أخرى [١]. وكانت هناك عدة طرق تربط الصين بالشرق الأوسط وأوربا منها الطريق البرى القادم من وسط آسيا ومن الهند والذى يسير حتى بخارى حيث يتفرع فرعين الأول إلى بحر قزوين فنهر الفلجا فبلاد البلغار ، والثانى يتجه إلى البحر الأسود وموانيه ثم القسطنطينية وأوربا، وتخرج منه فروع جانبية إلى حلب وساحل البحر المتوسط واخر إلى بغداد وديار بكر، والثالث غير مطروق ويعبر ارمينيا وآسيا الصغرى إلى القسطنطينية[٢]. وهناك طريق آخر يخرج بحرا من الصين إلى الهند فى الخليج الفارسى حتى رأس الخليج الفارسى ثم تبدأ فروعه النهرية والبرية من البصرة إلى بغداد حيث يتفرع فرعين يتجه أولهما شمالا إلى ديار بكر بينما يتجه الثانى غربا إلى دمشق، ومنها تخرج فروع إلى موانىء ساحل البحر المتوسط ثم جنوبا إلى مصر محاذيا غزة ثم عبر الصحراء إلى القاهرة، وفرع يتجه شمالا بغرب إلى حلب ثم إلى آسيا الصغرى ليلتقى بالطرق القادمة من وسط آسيا ويتحد معها إلى القسطنطينية ثم إلى أوربا [٣].

---

(١) سعيد عاشور، مركز مصر فى التجارة ، ص٦٥-٦٦ .

(٢) نعيم زكى، طرق التجارة، ص١٥٤ .

(٣) نعيم زكى، طرق التجارة، ص١١٨ .



خريطة تبين الطرق البحرية الآتية من الصين والهند إلى البحر الأحمر والعكس

ومن الواضح أن هذه الطرق السابقة غدت مهددة غير آمنة فى القرن الثالث عشر بسبب غزوات المغول التى امتدت من جوف آسيا لتشمل بلاد فارس وشرق أوربا والعراق وشطرا من آسيا الصغرى، ولم يسلم من سيطرة المغول سوى طريق مصر والبحر الأحمر مما ساعد على انتعاش سلطنة المماليك.

وإلى جانب هذه العوامل السابقة هناك عامل آخر مهم وهو أن **طريق البحر الأحمر** هو الطريق الأساسى لمنتجات الامارات والمشيخات الاسلامية بالساحل الشرقى لأفريقيا والحبشة والبجة وبعض منتجات السودان الأوسط وكانت البضائع تفرغ فى موانى عيذاب وسواكن والطور وتنقل إلى أسوان أو قوص أو القاهرة ومنها بالنيل إلى الاسكندرية.

وقد تميز هذا الطريق بالأمن فهو بعيد عن ميادين الحروب بآسيا وكانت الملاحة فيه قاصرة على السفن الإسلامية كما تواجد فيه اسطول لحماية السفن من القرصان وكانت الصعوبة الوحيدة فى هذا الطريق الملاحى التجارى تكمن فى الشعاب المرجانية ، ولذا كان ربابنة السفن يتلافونها بالابحار نهارا فقط[1] وبتقدم فنون الملاحة عند العرب استطاع بحارتهم تلافى هذه الصعوبة كلية.

وفضلا عن تميز طريق البحر الأحمر بالأمن فقد تميز أيضا برخص تكاليف نقل المتاجر به مما أدى إلى أن تكون أسعار السلع المنقولة عبره ارخص ثمنا من مثيلاتها التى تنقل إلى الشام فضلا عن أن المسافة إلى موانىء التصدير اقصر وأسرع زمنا .

وبفضل هذه المزايا لطريق البحر الأحمر أصبحت مصر النافذة أو الواجهة التى تعرض من خلالها منتجات أفريقية وأسيا وسلعها فأصبحت بمثابة القلب حيث أن جل تجارة العالم تمر بها ولم يكن دور مصر بالدور السلبى إذ كانت تتحكم فى الأسعار رافعة لها أو خافضة، وكانت الأموال تصب فيها صبا كما عبرها ملوك السودان فى طريقهم للحجاز[2] وأتتها سفارات من الدول الأوربية والمدن والجمهوريات الايطالية طالبة عقد معاهدات وتبادل تجارات ومزايا لرعاياها وكان كل ذلك طمعا فى المنتجات الأفريقية والأسيوية التى كانت تحمل إلى مصر[3].

---

(١) المسعودى، مروج الذهب ، جـ١ ، ص٢٥٢ .

(٢) يرجع إلى الفصل الثانى .

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر :

ابن حجر انباء الغمر ، جـ٢؛ نعيم زكى ، طرق التجارة؛ شارل ديل، البندقية جمهورية .

ومن أهم الغلات التى احتاجت إليها أوربا واشتد الاقبال عليها البخور والتوابل فقد كان احراق البخور شيئا أساسيا فى الكنائس والأديرة[1] وخاصة أن الكنيسة احتلت المكانة العليا فى المجتمع الأوربى أما التوابل فقد حرص نبلاء أوربا على اضافة التوابل إلى طعامهم لاكسابه نكهة لذيذة فضلا عن أنه كان هناك استعمال أساسى للتوابل جعلها أمرا ضروريا وليس كماليا وذلك باستخدامها لحفظ الطعام[2].

وإلى جانب التوابل والبخور فان أوربا كانت تستورد عن طريق مصر التجارات التى تأتى إليها من أفريقيا وخاصة من تكدا فكانت البندقية مثلا تستورد سنويا من ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف قنطار من النحاس كما استوردت أيضا النطرون[3] والشب والمنسوجات القطنية والحريرية والأقمشة المصبوغة باللون القرمزى والموشاة بالفضة والذهب والأوانى الزجاجية والخزفية الدقيقة والعاج والبلسم والذهب ومعظم هذه البضائع من المنتجات الأفريقية [4].

كانت منتجات القارة أحد أسباب ثروة دولة المماليك وإقبال الدول على خطب ودها وارسالها لسفارات وبعثات لهذا السبب وقد أدرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة وعرفوا أهمية التجارة لدولتهم ، لذلك بذلوا جهودا عدة للمحافظة على طرق التجارة مع أفريقيا وتأمين تلك الطرق. وقد اتضحت جهودهم فى حملاتهم المستمرة على النوبة وعيذاب وسواكن. فكثيرا ما هاجمت النوبة حدود مصر وعاثت فيها فسادا وخاصة فى أسوان

---

(١) نعرف مدى أهمية التوابل من قائمة ما يحتاجه دير كورى ويقع على نهر سوم بأوربا :

٦٠٠ رطل شمع	١٢٠ رطل فلفل	١٢٠ رطل كمون
٧٠ رطل جنزبيل	٢٠ رطل قرنفل	١٥ رطل قرفه
١٠ ارطال خلنجان	١٠ أرطال رواند	١٠ أرطال اسفنج
٥٠ رطل خيار شنبر	٣ أرطال لبان	٣ أرطال ورنيش
١٠ أرطال نردين	٢٠ رطل مستكة	٣ أرطال مر
رطل بقم	١٠ أوزان شجر سليتا	٣ أرطال نيلة
رطل سعتر	١٠ أرطال ميعة	

وهذه القائمة كانت ضرورية للاستعمال اليومى فهى ضرورية للطعام وضرورية للشراب وضرورية للعلاج ولاقامة الشعائر الكنائسية وللرهبان أيضا.

(٢) سعيد عاشور ، مركز مصر ، ص٦٣-٦٤ .

(٣) لفظ نطرون مصرى قديم (نتر) وعن المصرية القديمة انتقل اللفظ إلى اليونانية نطرون Natron سيجريد ، شمس الله ، ص٤٨١ .

(٤) انظر شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية .

رغم معاهدة البقط التى تنظم العلاقة بين البلدين فمثلا فى سنة ٦٧٤هـ قدم ملك النوبة داود إلى أسوان وخربها وكان ذلك بعد تخريبه لعيذاب، وفى سنة ٦٨٦هـ هجم ملك النوبة على مدينة أسوان ونهب أسواقها واحرقها وفى ٧٦٧هـ افسد بنو الكنز وطائفة العكارمة أسوان وسواكن ومنعوا التجار وغيرهم من السفر لقطع الطريق وأخذوا أموال الناس وسيطروا على ثغور اسوان وصحراء عيذاب وبرية الواحات الداخلة وفى ٧٨٧هـ هاجم أولاد الكنز اسوان وخربوها وقتلوا من وجدوه بها.

وأمام هذا الازعاج والتخريب وتهديد التجارة لم يأل سلاطين المماليك جهدا لفرض الأمن فى تلك الجهات فتوالت الحملات على النوبة موغلة فيها ومن أهمها :

الحملة التى أرسلها بيبرس عام ٦٧٤هـ والحملة التى أرسلها قلاون عام ٦٨٦هـ والحملة التى ارسلت فى عهد الملك العادل زين الدين عام ٧٦٧هـ وقد نجحت هذه الحملات المتتالية ليس فى نشر الأمن وتأمين طرق التجارة فحسب، بل وفى تحويل تلك البلاد الى الاسلام[١] وبذلك نعمت أسوان ميناء مصر النيلى ومجمع تجارات النوبة والسودان بالهدوء والأمن والنشاط التجارى.

أما موانىء البحر الأحمر وأهمها عيذاب وسواكن وهما مرسى المراكب القادمة من الهند والصين واليمن وساحل أفريقيا الشرقى[٢] فقد امتدت إليها يد العبث والتعرض للتجار إذ تعرض صاحب سواكن لأموال المتوفين من التجار المصريين[٣] كما كثر فساد العربان بصحراء عيذاب وأهم حوادثهم أخذ عرب برية عيذاب لرسل صاحب اليمن وعدد من التجار والاستيلاء على ما معهم سنة ٧١٦هـ وتوالى افساد العرب بثغر عيذاب ففى عام ٧١٩ هـ[٤] قتلوا الشاد[٥] المقيم بها[٦].

---

(١) عن العلاقة بين المماليك والنوبة انظر:

ابن الفرات ، تاريخه ، جـ٧ ، ص٤٥-٤٧ ؛ المقريزى ، السلوك الاجزاء الثلاثة الأولى ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى، ص٧٥-٩٩ ؛ مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة، ص١٤٣-١٨٢ .

(٢) ابن اياس ، النزهة ، ورقة ١٧٦-١٧٧ .

(٣) المقريزى ، السلوك جـ١ ق٢ ص٥٠٦ .

(٤) المقريزى ، السلوك جـ٢ ق١ ص١٦٢ .

(٥) الشاد أو مشد هو المفتش فيقال شاد الدواوين أى الذى يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاه .. وتسمى العملية شد فيقال شد الدواوين أى التفتيش عليها .

سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص٤٢٧ .

(٦) المقريزى ، السلوك ، جـ٢ ق١ ص١٩٤ .

ونتيجة لهذا الافساد وتهديد التجارة توالت الحملات المملوكية التى كان من جرائها استقرار حامية مصرية بسواكن تابعة لمصر عام ٦٦٣هـ كما قام بعيذاب عامل من قبل سلاطين المماليك ليقتسم جبايتها مع عامل البجة إلى جانب حفظه للأمن [١].

ولايعنى هذا أن الأمن قد استتب بتلك الجهات لذلك استمرت الحملات المصرية جيئة وذهابا فى صحراء عيذاب وقد أدت هذه الحملات المتتالية إلى نشر الأمن وتأمين الطرق وارهاب حكام بعض الجزر فى البحر الأحمر الذين كانوا يقومون بالقرصنة فى البحر الأحمر مثل حاكم جزيرة دهلك[٢].

على أن جهود المماليك لم تقتصر على تأمين الموانى أو المنافذ المصرية للتجارة الأفريقية بل عمدت كذلك إلى نشر الأمن فى الصعيد .

فقد تركزت القلاقل والاضطرابات وعدم الأمن فى الصعيد وذلك لبعده النسبى عن العاصمة ، ولكونه ملجأ للعناصر الهاربة من الحكومة والتى كانت تنشر الفساد فى أنحاء الصعيد، فمثلا فى عام ٦٩٨ هـ قطع العربان الطريق وفرضوا على التجار وأرباب المعايش بأسيوط ومنفلوط فرائض جبوها كالجوالى[٣] كما استخفوا بالولاة ومنعوا الخراج[٤].

ولكن هذا البعد لم يكن دافعا إلى تقاعس الحكومة فى القاهرة بل أنه كان على العكس من هذا دافعا لإرسال الحملات إلى الصعيد لتأديب العصاة وقد عنى السلطان قلاون بأن يكون هناك خفراء على طول الطرق «وكان هذا متبعا أيام الملك الظاهر بيبرس» بين البلاد ليخفروا الغادى والرائح ويؤمنوا التجار على تجاراتهم [٥]. كما أنه أرسل أمرا للولاة والنواب[٦] فى جميع اقاليم السلطنة بنزع جميع السلاح من البدو من

---

(١) الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص٥٦ .

(٢) انظر الفصل الثانى .

(٣) انظر مفردها جالية وهو ما يؤخذ من أهل الذمة المقررة عليهم وقد أطلقت على أهل الذمة حين اجلاهم عمر بن الخطاب عن شبه جزيرة العرب ثم صارت علما على أهل الذمة وإن لم يجلوا عن أوطانهم . وفى العصرين الأيوبى والمملوكى أصبحت الجوالى مصطلحا يطلق على ضريبة الجزية التى الزم بها الذميون .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص١٤٩ .

(٥) ابن الفرات، تاريخه ، جـ٧، ص١٩٨ .

(٦) نسخة تقليد شريف إلى والى الصعيد تبين اهتمام الحكام بالأمن (ولما واجه اقبالنا فى هذه الأيام الوجه القبلى وصعد إلى الصعيد الأعلى ركابنا العلى، لحنا بلاده وتعددها وتعين ملاحظته، وتاكدها وكثرة السلاك لسبله والملاك لخوله والوارد لنهله... وهو منهج التجار فى التوجه من ابوابنا الشريفة والجواز وباب اليمن والحجاز وفى الحقيقة هذا المجاز يتعين له الحفظ وفيه الاحتراز، وبه كراسى منها السيارة عتار =

سيوف ورماح وقسى وغيرها وأن يشتدوا فى معاملتهم وان اقتضى الأمر أن يأخذوا منهم رهائن لكسر شوكتهم كما أمر باعة الأسلحة فى القاهرة بالايبيعوهم اياها [1].

ولم يكتف المماليك بتأمين طرق التجارة بل عمدوا إلى اقامة علاقات حسنة مع سائر الدول الأفريقية سواء فى المغرب أو فى السودان فقصدتها السفارات من المغرب كما قصدها ملوك السودان ووصلت سفارات من دول الطراز الإسلامى ، وكانت العلاقات الحسنة طابع هذه العلاقات[2].

أما علاقة المماليك بالحبشة فكانت علاقات متشابكة متداخلة فالكنيسة الحبشية تتبع الكنيسة المصرية ، وهناك دير للأحباش بالقدس كما أن دول الطراز الإسلامى تجاور الحبشة كل هذا كان يجعل ترمومتر العلاقات متذبذبا، وإن كان فى أغلب الأوقات يميل لصالح العلاقات الحسنة بين البلدين[3] .

وعملت حكومة المماليك على تشجيع التجار وخاصة الأفارقة على القدوم إلى مصر[4] وقد عمد سلاطين المماليك إلى كتابة مناشير للتجار لتشجيعهم على القدوم إلى مصر فقد كتب السلطان قلاون نسخة من أمان للتجار الواصلين إلى مصر يرحب بهم ويشجعهم على القدوم إلى مصر بتجاراتهم «يحضر إلى بلاد لايحتاج سكانها إلى بيرة ولا إلى ذخيرة لأنها فى الدنيا جنة عدن.. ومن أحضر معه بضائع من بهار واصناف تحضرها تجار الكارم فلايخاف عليهم من حق ولايكلف امرا يشق »[5].

= وعلى سواها من البلاد تمتاز وبه مراكز ولاة يتفرد كل منها عن الآخر وينحاز، وهى اطفيح والبهنسى، والاشمونين ومنفلوط ، وأسيوط ، واخميم، وقوص وهذه الاقاليم مجتمعة متفرقة وحدود بعضها ببعض متعلقة، واليها تردد الركاضة والمرتزقة وربما اخاف المفسدون من بعضها سبله وقطع طرقه فاتهم البرى وسلم الجرى ... فرأينا أن ننصب بهذه الأقاليم والى ولاة يجوس بنفسه خلالها ويدوس بخيله سهلها وجبالها ويفجأ مفسدها ... ويزيل شكواها ويكفى عدواها ويصلح فسادها ويوصل حقوقها ويواصل طروقها ...».

القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١١، ص٤٢٨-٤٢٩ .

(١) سليمان عطية ، سياسة المماليك ، ص٦٨-٦٩ .

(٢) فى موضوع العلاقات مع الدول الأفريقية انظر المراجع التالية فى صفحات متفرقة القلقشندى، صبح الأعشى؛ حامد عمار ، علاقات مصر؛ حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية.

(٣) فى موضوع العلاقات بين مصر والحبشة انظر المراجع التالية فى صفحات متفرقة.

ابن الفرات ، تاريخه، جـ٧ ؛ سعيد عاشور ، اضواء جديدة، جـ٧ .

(٤) انظر الفصل الثاني لترى المكانة التى وصل إليها التجار الكارمية .

(٥) المقريزى، السلوك ، جـ١ ق٣ ص٧٤٢ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٢٤٠-٢٤٢ .

كذلك أرسل قلاون إلى نوابه بالثغور يأمرهم بتعمير الثغور والعمل على تشجيع حضور التجار بتجارات أكثر وأن لايأخذوا منهم سوى الحقوق المفروضة على المراكب[١] .

واصدر سلاطين مصر المراسيم إلى ولاة الصعيد مشيرين إليهم بما ينبغي عليهم أن يقوموا به تجاه التجار وخاصة التجار الكارمية مخبرينهم عن فوايدهم لمصر[٢].

ونتيجة لكل هذه الجهود قدم التجار إلى مصر وأصبحوا وافرى الثراء وكونوا طبقة ممتازة وقد عمد سلاطين المماليك إلى تقريب التجار منهم واصطفوا منهم ندماء وأصحابا بل أنعم على بعضهم بامرة طبلخانة وهو أمر نادر الحصول لغير المماليك وتمتع التجار باحترام كبير حتى أنه إذا أريد مدح شخص قيل عنه أنه من بيت تجارة ووجاهة وقد تبارت قصص الف ليلة فى اظهار ما للتجار من مكانة وعظمة[٣].

وامام هذا النشاط التجارى العارم الذى شهده العصر المملوكى وتدفق التجار الكارمية والأفارقة وغيرهم على مصر كان لابد لهم من فنادق ينزل فيها أفرادهم من التجار ومواطنيهم وقد بنى فندق للتجار الكارمية بالفسطاط ووقف عليهم[٤] ومفهوم الفندق فى العصور الوسطى ليس هو مفهوم الفندق فى عصرنا الحديث وإنما كان يتمثل فى بناء كبير ينزل فيه تجار الطائفة ولكل طائفة فندقها وبه مقبرة وحمام ومخازن للتجارة وإذا كان لطائفة مسيحية يضاف إليه حان وكنيسة ويقيم به راهب، وقد قامت الحكومة المملوكية ببناء هذه الفنادق على نفقتها وتأجيرها لتلك الجاليات أو وقفها عليهم كما فى فندق الكارمية . وأهمية الفندق فضلا عن كونه مكانا للمبيت فانه

---

(١) من أعمال نظر ثغر الاسكندرية (معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق ... فاذا بذر لهم حب الاحسان نشروا اجنحة مراكبهم كالطيور .. ولايسلك معهم حالة توجب القلق والتظلم والمقت) .

القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١١، ص٤٢٠-٤٢١ .

(٢) من المراسيم التى تشير إلى واجب الوالى نحو تجار الكارمية (واكرم قدوم من يرد عليك من المكارم وقرر بحسن تلقيك انك أول ما قدمناه لهم من المكارم فهم سمار كل نادى ورفاق كل ملاح وحادى ولابد أن يتحدث السمار وتتداول الأسمار فأجعل شكرى دأب ألسنتهم ومنتنا حيلة اعناقهم ومنحنا سببا لاستجلاب رفاقهم فهم من مراد الأرفاق وجواد ما يحمل من طرف الآفاق).

القلقشندى، صبح الأعشى، جـ١١، ص٤٣٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة جـ٧، ص١٨١-١٨٢ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ٧، ص١٨١-١٨٢ .

(٤) فندق كلمة اغريقية الأصل تطلق على خان السبيل الذى يأوى إليه المسافرون فى المدن أو الطرق.
ابن دقماق ، الانتصار، جـ٤، ص٤٠ .

كان يمثل الحجر الأساسى فى النشاط الاقتصادى ولذا كان أول ما يسأل عنه عند التعاقد عن ماليته وشروط استخدامه وصلاحيته لتلقى الوافدين من التجار[1].

وكان لابد لحكومة المماليك مقابل الجهود التى بذلتها لتأمين تجارة الكارمية وتسهيل اقامتهم من أن تستأدى منهم ضرائب، والحق أنه كانت تفرض عليهم عدة ضرائب من أهمها ما كان يتحصل عليه ناظر الخواص الشريفة من رسم البهار من الطور ومتحصل فندق الكارم بمصر[2] وكانت البضاعة التى تحصل عليها الضرائب تختم بختم خاص دليل استيفاء الضرائب[3]. كما كانت هناك ضريبة اسمها الثغور وتحصل من الثغور وهى الاسكندرية ودمياط وتنيس واسوان[4] .

كذلك كانت الحكومة تحصل الزكاة عن متاجر الكارمية فى أية مدينة من مدن مصر كلما حال عليها الحول. ولم تقتصر مناطق جمع الزكاة[5] على الثغور فحسب بل كانت تجمع من المدن مثل منية الخصيب واخميم وقوص[6] وفضلا عن ذلك المتحصل من دار الضرب بالقاهرة عن الذهب المجلوب إلى مصر من بلاد التكرور والعلاقى وغيرها [7].

وإلى جانب هذه الضرائب فرضت جمارك على البضائع القادمة بطريق البحر الأحمر عند تفريغها بالطور ثم تنقل إلى القاهرة مارة ببابليون حيث يوجد جمرك آخر

(١) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى، ص٣٤-٣٦ .

(٢) الظاهرى، زبدة كشف الممالك، ص١٠٧-١٠٨ .

(٣) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص١٩٣ .

(٤) المقريزى، الخطط (ط. لبنان) جـ١ ، ص١٩٣ .

القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٦٣ .

الظاهرى ، زبدة كشف المماليك ، ص٥٠ .

(٥) افاد قاضى الحنفية أن مرجع جميع الأموال فى اخراج الزكاة إلى أربابها الا زكاة التجار فللامام أن ينصب رجلا يقيم على التجار يأخذ من المسلمين ربع العشر ومن أهل الذمة نصف العشر ولايؤخذ من المسلمين فى السنة أكثر من مرة وأيده فى ذلك القاضى الملكى والحنبلى .

ابن حجر ، ابناء الغمر، جـ٢ ورقة ٣٧٧-٣٧٨ .

(٦) المقريزى ، الخطط (ط. بولاق) جـ١، ص١٧٥ .

(٧) كان يضرب ثلاثة أصناف هى الذهب والفضة النقرة والفلوس النحاس ويقصد بهذه الضريبة ما يؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس بعد ضبط عيارها وكان للديار المصرية داران لضرب العملة احداهما بالقاهرة والأخرى بالاسكندرية . وأجرة كل ألف دينار تضرب بالدار اربعة عشر ألف درهما ونصف .

القلقشندى، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٦٥ .

سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٣٠٠ .

ومن القاهرة توزع التوابل إلى موانىء التصدير الاسكندرية ودمياط وكانت تحصل رسوم محدودة لدخول هذين الميناءين[1].

هذا عما يستأدى من ضرائب وجمارك على التجارات الواردة سواء بطريق البحر أو بطريق أسوان فماذا عن كيفية تفتيش البضاعة والركاب أى الناحية الانسانية؟ ويروى لنا المقريزى كيفية التفتيش ولاتختلف روايته عما رواه ناصر خسرو وابن جبير علما بأنهم حضرا إلى مصر فى عهدى الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية «كان اعوان متولى الزكاة يخرجون إلى منية ابن الخصيب واخميم وقوص لكشف أحوال المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم باحثين عن جميع ما معهم وكانوا يدخلون أيديهم فى أوساط الرجال خشية أن يكون معهم مال ويحلف الجميع بالإيمان المغلظة على ما بأيديهم وما عندهم غير ما وجدوه وتقدم طائفة من مردة هذه الأعوان وبأيديهما المسال الطوال ذوات الأنصبة فيصعدون إلى المراكب ويجسون بمسالهم جميع ما فيها من الأحمال والغرائر مخافة أن يكون فيها شىء من بضاعة أو مال فيبالغون فى البحث والاستقصاء »[2] والطريف الذى يضيفه ابن جبير أنه بعد هذا التفتيش الدقيق يقوموا بتحليفهم هل عندهم غير ما وجدوا أم لا[3] ويبدو أن التفتيش كان دقيقا جدا ويشمل كل شىء كما أن الانسان فى طبائعه وتصرفاته لايختلف من عصر إلى عصر فقد فطر على التحايل فيحكى ميشولم- ادلر اللذان وصلا إلى الاسكندرية فى القرن الخامس عشر لما وصلنا باب مدينة الاسكندرية فتشنا ووجدت النقود معنا مع أننا قد خبأناها فى نعل الحذاء فأخذوا منا نحو عشرة فى المائة ورغم ضبطهم معنا نقود لم نكن قد أعلنا عنها فانهم لم يتقاضوا أكثر من العشر ... أنه من المستحيل أن يتهرب المرء عن الدفع لانهم يفتشون تفتيشا دقيقا »[4].

ورغم جباية هذه الضرائب والجمارك إلا أنها لم تسد حاجة المماليك فى دولتهم الثانية إلى المال لهذا فانهم عمدوا إلى الاشتغال بالتجارة فأرسل السلطان ناصر الدين فرج مع الشيخ على الكيلانى وهو أحد التجار خمسة آلاف دينار إلى مكة لشراء الفلفل ليتاجر فيها لحساب السلطان وقد بيعت الكمية المشتراه باثنى عشر ألف دينار [5].

---

(١) صبحى لبيب، التجارة الكارمية، ص٣٥-٣٦ .

(٢) المقريزى ، الخطط (لبنان) جـ١ ص١٧٥ .

(٣) ابن جبير ، رحلته ، ص٧-٨ .

(٤) نقولا زيادة رواد الشرق ، ص١٩٥-١٩٦ .

(٥) صبحى لبيب ، التجارة الكارمية، ص٤٣-٤٤ .

ولكن لم يكتف السلطان برسباى ومن أتى بعده من سلاطين المماليك بالتجارة أو المشاركة فيها بل عمد إلى احتكار المتاجر الشرقية بعد أن كانت شبه احتكار فى يد الكارمية فنقل برسباى هذا الاحتكار إليه وأكد السلاطين المتعاقبون هذا الاحتكار ويفهم من بعض وثائق دير سانت كاترين أنه كانت هناك حواصل لتخزين بهار الذخيرة الشريفة ، وهى التى كان يحتكرها السلطان ويتاجر فيها[1] وتبع احتكار السلاطين للتجارة الشرقية أن أصبح كبار التجار وخاصة الكارمية مجرد مندوبين عن السلطان فى الأسواق يكسبون عيشهم فى ركابه ومال نفوذهم إلى الزوال بينما علا نجم طائفة تجار السلطان .

ونتيجة لهذا الاحتكار ارتفعت أسعار السلع الشرقية ارتفاعا باهظا مثل التوابل والدار صينى فبعد أن كان حمل الفلفل[2] يشترى من القاهرة بمبلغ ٥٠ دينارا أصبح يباع للتجار الأوربيين بثلاثة أمثال هذا السعر مما دفع التجار الأوربيين وخاصة البنادقة إلى رفع شكواهم إلى السلاطين أكثر من مرة ونادرا ما كان السلاطين يستجيبون لدعوات التجار[3].

وهكذا بعد أن كان ارتفاع أسعار السلع الأسيوية والأفريقية راجعا إلى تعدد الرسوم المفروضة أصبح الآن راجعا بصورة رئيسية إلى احتكار سلاطين المماليك إذ تضاعفت الأسعار بعد فرض الاحتكار، مما أدى إلى تذمر الدول الأوربية ومما دفعها إلى أن تبدأ فى البحث عن طرق بديلة تجلب عبرها سلع الشرق، وكان لابد للقوى الصليبية من البحث عن حليف يستطيع معاونتها حتى يمكن محاصرة مصر ولم يجدوا أفضل من الحبشة فهى تقع على البحر الأحمر ويمكن عن طريقها حصار مصر بغلق البحر الأحمر.

ويبدو أن تحقيق فكرة اشتراك الحبشة مع الغرب الأوربى فى حملة صليبية كان أمرا متعذرا لبعد المسافة بين الحبشة وأوربا [4]. وكان ان اتجه التفكير الأوربى إلى ضرورة كشف طريق آخر للوصول إلى مصادر التوابل والاستيلاء عليها للقضاء على مصر .

---

(١) وثائق ديرسانت كاترين ، مراسيم ارقام ٦٦ ، ٧١ ، ٧٥ .

(٢) الحمل الاسكندرانى من الفلفل يزن ٥٠٠ رطل فرفورى .

توفيق اسكندر، نظام المقايضة، ص٤٢ .

(٣) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص٢٩٣ .

(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، جـ٢ ص١٢١٠-١٢١٢ .

وقد كان نتيجة للعداء بين جنوا والبندقية لاحتكارها التجارة مع مصر أن بدأت جنوا في البحث عن طريق يوصلها إلى الهند وقد أدى بها البحث إلى كشف بعض اجزاء الساحل الغربى لافريقيا فى مواجهة جزر كناريا مما يعتبر مقدمة للجهود التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد [١].

وكانت البرتغال منذ أواخر القرن الخامس عشر قد بدأت فى تكوين بحرية قوية على يد الأمير هنرى الملاح ، واستطاعت أن تكتشف الأراضى على جانبى السنغال كما اكتشفت الساحل الافريقى حتى الرأس الأخضر وسيراليون وكان أن نجح بارثليميو دياز فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢هـ ١٤٨٧م[٢] ونجح فاسكودى جاما عام ١٤٩٨م فى اجتياز رأس الرجاء الصالح ووصل إلى ساحل الملبار بالقرب من قاليقوط ثم اتجه نحو كنانور Cannor وجوا فى الشمال ولولا مساعدة بحار عربى لما تمكن فاسكوى دى جاما من التغلب على التيارات البحرية والرياح الشرقية التى قابلته حيث أن التغلب على تلك التيارات يحتاج إلى خبرة طويلة وممارسة عملية فى المجرى المائى ولم يكن الأوربيون حتى هذه اللحظة يملكون هذه الخبرة وإنما كان العرب هم أصحاب الخبرة العريضة والواسعة بالمحيط الهندى.

وعاد فاسكو دى جاما عام ١٤٩٩ إلى لشبونة عن طريق مالندى محملا بتجارة هائلة وليعلن للملك أن الاشتراك فى تجارة التوابل تقتضى مجهودا حربيا كبيرا لأن العرب المسلمين مسيطرون على التجارة منذ قرون عدة. وقام البابا بمنح ملك البرتغال لقب (سلطان المالح والفتح والتجارة فى أثيوبيا وجزيرة العرب والفرس والهند)[٣].

وأصبحت الخطوة التالية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند هى التغلب على المسلمين المسيطرين بالمحيط الهندى ومنع المصريين من الحصول على التوابل حتى يضمنوا سيطرتهم واحتكارهم لتلك التجارة فى العالم ويضعفوا مصر اقتصاديا فيتحقق الحلم الصليبى بالسيطرة عليها وعلى الأراضى المقدسة.

وكان ان خرج الفاريز كابرال Alvarz Cabral فى سنة ١٥٠٠ ووصل إلى قاليقوط

---

(١) سعيد عاشور ، الحصار الاقتصادى، ص١١٠ .

(٢) يقول يحيى ابن الحسين «ان الذى دلهم على هذا الطريق رجل ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد بسبب أن كبير الفرنج احسن إليه ولاطفه ثم أسكره وسأله عن طريق البحر فقال له لاتقربوا الساحل وأوغلوا فى البحر فان الأمواج لاتاتى لكم

يحيى بن الحسين غاية الأمانى، جـ٢ ص٦٣٠-٦٣١ . وإن كان هذا الرأى غير متيقن منه إلى الآن .

(٣) زاهر رياض ، الاسلام فى اثيوبيا، ص٢٤١-٢٤٢ .

فى اغسطس وارهبت قوته حاكم الزامورين واسس مركزا تجاريا واشتبك مع المسلمين والعرب وخرب فاليقوط قبل عودته [١].

وأرسل عمانويل ملك البرتغال فى عام ١٥٠٣ فاسكودى جاما بأسطول مكون من عشرين مسمارية[٢] ونيف رسى به عند جزيرة سقطرى عند بابا المندب لمنع دخول الأسطول المصرى، وقد تمكن الأسطول البرتغالى من مهاجمة سفينة مصرية قادمة من البحر الأحمر محملة بالبضائع وأسرها ثم اتجه الأسطول بعد ذلك إلى بلاد الملبار فالتقى هناك ببعض وحدات الأسطول المصرى التجارى العائد إلى مصر بعد شحنها التوابل فنهبها وأسر بحارتها واغرقها. وطلب امراء جوزيرات واليمن المساعدة من مصر»[٣].

فماذا كان رد فعل بوادر السيطرة البرتغالية على المحيط الهندى وغلق طريق البحر الأحمر والتحكم فى مناطق انتاج التوابل على دول البحر المتوسط المستفيدة بهذه التجارة .

عادت إلى البندقية فى عام ١٥٠٢ السفن المرسلة إلى بيروت بأربع بالات من الفلفل وفى الاسكندرية لم تجد سفينتان أو ثلاث سفن من خمس حمولتها إلا بمشقة كبيرة وزاد الأمر وبالا عندما عادت سفن البندقية من مصر خالية تماما وهو أمر لم يحدث من قبل [٤].

اهتزت لذلك سلطنة المماليك الذين استمدوا أسباب قوتهم وازدهارهم من هذه التجارة ولم تكن البندقية التى قامت بدور الوسيط بين مصر والدول الأوربية أقل تأثرا من هذا الكشف لذلك كان لابد أن تتفق الدولتان الاسلامية والمسيحية رغم العداء الذى تكنه كنيسة روما للمسلمين فى سبيل التغلب على هذه العقبة.

وقد سلكت سلطنة المماليك فى مقاومة البرتغال ثلاثة اتجاهات:

الأول: تحريض السلطان الغورى سلطان مصر للحكام المسلمين بالهند للعمل على طرد البرتغاليين وعدم التعاون معهم .

---

(١) محمد فؤاد شكرى، أوربا فى العصور الحديثة، ص٧٧ .

(٢) مسمارية نوع من السفن الحربية.

(٣) سعاد ماهر ، البحرية الإسلامية ، ص١٢٨-١٢٩ .

(٤) شارل ديل ، البندقية، ص١٥١-١٥٢ .

الثانى: قيام البندقية من جانبها بتأليب القوى الأوربية ضد البرتغال وحثها على عدم التعامل معها.

الثالث : استخدام مصر للقوة العسكرية .

وقد استخدم السلطان الغورى الاتجاه الثالث بعد أن، فشل الاتجاهان الأولان ولم يعد هناك بد من استخدام القوة العسكرية ويذهب اسماعيل سرهنك بقوله فى هذا الصدد «أن هناك بعض المؤرخين قالوا بمساعدة البندقية بأساطيلها للأساطيل المصرية أو بمعنى أصح باتحادهما مع اساطيل مصر فى تلك الحروب »[1].

ولكنى لا أميل لترجيح هذا الرأى للأسباب التالية علما بأن حياة البندقية ورخاءها وتقدمها وعظمتها كانت مرتبطة بالتجارة مع دولة المماليك لدرجة أنها انزوت فى عالم النسيان بعد هذا الكشف. هذه الأسباب هى:

١- خوف البندقية من ثورة الدول الأوربية إذا تعاونت مع القوى الإسلامية معاونة سافرة بجيوشها وأساطيلها .

٢- خوف البندقية من أن تنتهز البابوية هذه الفرصة وتؤلب عليها الدول الأوربية لسابق رفض البندقية تنفيذ قرارات الحرمان التى أصدرتها البابوية قبل ذلك ضد مصر .

٣- لو اشتركت البندقية بأسطولها وهى دولة متفوقة عن البرتغال بحريا وحربيا . علاوة على اشتراك الأسطول المصرى بالإضافة إلى تأييد المماليك والامارات الإسلامية بالمحيط الهندى لما استطاع البرتغاليون هزيمة الأسطول المصرى.

وأرى أن مساعدة البندقية إذا كانت قد تقدمت بمساعدة فعلا فهى قاصرة على توريد أخشاب وحديد لبناء السفن وتوريد بعض المدافع والأسلحة هذا إذا كانت هناك مساعدة مادية.

وبدأت مصر بتطبيق الاتجاه العسكرى بأن أرسل الغورى اسطولا بقيادة الأمير حسين الكردى فى خمسين غرابا[2] وجعل إليه امرة جدة وسائر البنادر، السواحلية

---

(١) اسماعيل سرهناك ، حقائق الأخبار، جـ٢، ص٣٥ .

سعاد ماهر ، البحرية، ص١٢٩-١٣٠ .

(٢) غراب وجمعه أغربة نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاتلون والجدافون .

سعيد عاشور ، العصر المماليكى، ص٤٣٦ .

وأمره بمحاربة البرتغاليين فكان أن تلاقى مع أسطول البرتغال الذى كان يحاصر عدن فحاربه وانتصر عليه وأجلاه[1].

ولكن على الرغم من ذلك استمر الأسطول البرتغالى بقطع الطريق على السفن المصرية مستعملا أسلوب القرصنة مما دعا السلطان الغورى إلى ارسال الأمير حسين الكردى فى ثلاثة عشر غرابا فوصل إلى بندر جوزيرات وخرج معه نائب ديو وأقام بها عدة أشهر حتى انقضى فصل الأمطار ووصل إليه السامرى من ساحل المليار ومعه اربعون غرابا صغيرا ولما سمع البرتغاليون باستقرار الأسطول فى ديو استعدوا وخرجوا فى نحو عشرين مركبا ووصلوا إلى ديو فجأة وباغتوا الأسطول المصرى واستطاعوا الانتصار عليه فيما عرف بموقعة ديو عام ٩١٥هـ، ١٥٠٩م وتمكن الأمير حسين من العودة إلى مصر مع بقايا اسطوله[2].

وفى هذه الأثناء ارسلت هيلانة امبراطورة الحبشة مبعوثها ماثيو الأرمنى عام ١٥١٠م إلى ملك البرتغال للتعاون على أحكام الحصار حول دولة المماليك وطلبت الحبشة تقسيم مناطق النفوذ فى البحر الأحمر للعمل المشترك ضد المسلمين على النحو التالى:

١- ملك فرنسا يحتفظ بقوة عسكرية فى سواكن .

٢- ملك البرتغال يتخذ مصوع قاعدة لقواته .

٣- ملك أسبانيا يحتل زيلع [3].

ولكن مشروعات الحبشة باءت بالفشل وكانت المسألة مسألة حياة أو موت فجهز الغورى اسطولا مكونا من اثنين وعشرين غرابا كبيرا وتولى قيادته الأمير سلمان الرومى مبعوث السلطان العثمانى بايزيد والأمير حسين الكردى. وأرسلهما إلى المحيط الهندى [4]. للثأر من الأسطول البرتغالى غير أنه حدث خلاف بين الأميرين مما أدى إلى افتراقهم ومع كل منهم بعض من قطع الأسطول فوصل الأمير حسين إلى جدة وبنى فيها حصونا وأبراجا ومن هناك اقلع الأسطول المصرى قاصدا الهند فلما وصل سواحل بحر اليمن نزل بجزيرة قمران وجعلها الأمير حسين قيادة بحرية لأسطوله ثم

---

(١) زين الدين ، تحفة المجاهدين، ص٤٠-٤٢ .

(٢) زين الدين، تحفة المجاهدين ، ص٤٠-٤١ .

(٣) الشاطر بصيلى ، معالم تاريخ السودان، ص١٢-١٣ .

(٤) فى رأى أن هذه الثنائية فى القيادة سبب أساسى فى عدم نجاح هذه الحملة البحرية لأن وجود قائدين سيدعو إلى التشاحن وكان هذا قصر نظر من الغورى.

سار إلى بندر عدن فبلغها عام ١٥١٦ ونازل اسطولا برتغاليا بقيادة الفونسوا البوكرك والحق به الهزيمة.

ولم يستطع الغورى اعادة الكرة فقد شغل بالدفاع عن ملكه ضد العثمانيين وانتهزت البرتغال الفرصة فأنقض اسطولها على ما تبقى من وحدات الأسطول المصرى بقيادة سليمان الرومي ولكنه استطاع ردهم خاسرين وهكذا اصبحت مياه البحر الأحمر تحت سيادة مصر بينما أصبح الأسطول البرتغالى صاحب السيادة بالمحيط الهندى[1].

وانتقل لواء الكفاح والجهاد إلى العثمانيين بعد استيلائهم على مصر عقب هزيمتها منهم فى موقعة مرج دابق عام ١٥١٧ والريدانية وبذلك طويت صفحة من أ غنى الصفحات لمن يريد الدراسة والتأمل والتعلم فى تاريخ العالم. فترة حافلة بالتكتلات الاقتصادية والعصبيات الدينية وحروبها والمناورات السياسية، كما كان فيها مفارقات عجيبة فها هى البندقية تحول حملة صليبية موجهة لمهاجمة مصر إلى مهاجمة القسطنطينية المسيحية، كما تحالف مصر محاولة تأليب دول أوربا على البرتغال فترة لم يحدث مثلها على مر العصور حيث تحكمت دولة واحدة فى التجارة العالمية وأصبحت المهيمنة عليها وعلى اسعارها ألا وهى مصر.

مما سبق يتبين لنا أن مصر شهدت فى عصر المماليك رخاء اقتصاديا مرجعه إلى موقعها الحاكم بين الشرق والغرب والقلاقل والاضطرابات التى نتجت عن تحركات المغول فى آسيا وفتوحات الدولة العثمانية الفتية كل هذا حول طرق التجارة وركزها فى طريق البحر الأحمر الذى تسيطر عليه مصر، واعتقد أنه حتى بدون هذه الاضطرابات والقلاقل فان الطريق المار عبر البحر الأحمر إلى الاسكندرية هو أقصر الطرق والمسافة البرية فيه قصيرة والنقل البحرى ارخص تكلفة من أى وسيلة اخرى للنقل كما أن المسافة المقطوعة برا فى الطرق التجارية العابرة لآسيا طويلة مما يؤدى إلى تكلفة أكبر فضلا عن افتراضنا بأن هناك استتباب للأمن بهذه الطرق فانها لاتستطيع منافسة طريق البحر الأحمر وكان الأمر مرهونا بتقدم فنون الملاحة لتفادى الشعاب المرجانية بالبحر الأحمر وهذا ما حدث فعلا. كذلك مع دخول القرن الثالث عشر وصل العرب فى المحيط الهندى إلى معرفة الكثير من اسراره وتياراته البحرية. لذلك ابتدأ مؤشر التحرك يتجه اتجاه طريق البحر الأحمر ونقل هذا المؤشر نهائيا تجاه البحر الأحمر الاضطرابات التى سبق الكلام عنها.

---

(١) سعاد ماهر، البحرية الإسلامية، ص١٣٢-١٣٣ .

أصبحت مصر نتيجة لهذا التركيز التجارى قبلة لسفارات الملوك وقناصل الدول والكل يطلب رضاءها، كذلك لم يأل سلاطين المماليك جهدا فى تشجيع وفود التجار واقامة فنادق لهم وخاصة سلاطين الدولة الأولى.

وباتباع سياسة الاحتكار[1] فى عهد سلاطين الدولة الثانية والعفن السياسى واضطراب الأمور نتيجة للصراع فى سبيل السلطة، وكثرة ارباب المناصب أدى كل هذا إلى ارتفاع الأسعار اضعافا مضاعفة مما حدا بالدول الأوربية إلى محاولة البحث عن طرق بديلة إلى أن نجحت البرتغال فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فكان ذلك ايذانا بمغيب شمس دولة المماليك وأفول نجمها.

ولكن تبقى حقيقة مهمة هو أن الطريق عبر البحر الأحمر إلى الاسكندرية ارخص فى تكاليفه وأقصر وأسرع من طريق رأس الرجاء الصالح فلو استطاعت مصر – وهذا مستحيل نظرا لأحوالها الداخلية– الاحتفاظ ببعض مصادر انتاج التجارات الشرقية مع تخفيف الضرائب على تلك التجارات فضلا عن نبذ سياسة الاحتكار لوصلت تلك السلع إلى أوربا ارخص ولاستطاعت منافسة البرتغال .

---

(١) يثبت لنا التاريخ أنه ما من شيء يحتكر بواسطة الحكومة إلا وكان مآل الشيء محل الاحتكار إلى الذبول بل وربما تؤدى سياسة الاحتكار إلى ذبول الدولة نفسها. وعن دخول السلطان فى التجارة يقول ابن خلدون (غلط عظيم وادخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا مضايقة الفلاحين والتجار فى شراء الحيوان والبضائع وتفسير أسباب ذلك أن الرعايا متكافئون فى اليسار متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا تنتهى إلى غاية وجودهم أو تقرب وإذا دافعتهم السلطات في ذلك ومالها أعظم بكثير فلايكاد أحد منهم يحصل على غرضه فى شيء من حاجاته.. ولايجد السلطان من يناقشه فى شرائه فيبخس ثمنه على بائعه .

ابن خلدون ، المقدمة، ص٢٢٥ .

ويقول فى الاحتكار (ان احتكار الزرع لتحين اوقات الغلاء مشئوم وأنه يعود على فائدته بالتلف والخسران...)

ابن خلودن ، المقدمة ، ص٢٣٢ .

خاتمـــة

وبعد فانني استطيع أن الخص النتائج التى توصلنا إليها فى هذه الدراسة فيما يلى:

أن علماء العرب جغرافيين ورحالة ومؤرخين هم مصدرنا الوحيد لدراسة تاريخ أفريقيا حتى مشارف القرن السادس عشر وأنه لولا آثارهم وجهودهم لكادت معرفتنا عن أحوال القارة فى تلك العصور تنعدم تماما وخاصة أننا لم نعثر على آثار أو وثائق حتى الآن تمدنا بمعلومات عن تاريخ تلك الفترة وبعبارة أخرى فان ما تركه علماء العرب هو الأساس لأية محاولة للكتابة عن تاريخ أفريقيا فى العصور الإسلامية سواء فى الجانب السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو الدينى. واعتقد أنه لو وصلتنا المؤلفات العربية التى كتبت خصيصا عن أفريقيا أو اجزاء منها ككتاب بن سليم الأسوانى لازدادت ثروتنا من المعلومات عن أفريقيا .

وعلى الرغم من أن علاقة مصر بالقارة ترجع إلى أقدم عصور التاريخ بل تمتد جذورها إلى عصر ما قبل الأسرات إلا أن هذه العلاقة نمت فى ظل الإسلام حتى توطدت بصورة بالغة فى العصر المملوكى وازدهرت وخاصة فى الجانب التجارى، هذا إلى أن مصر غدت فى ذلك الوقت قبله أهالى أفريقيا المتوجهين للحج أو للتجارة وقبلة ملوكها كما أن الكنيسة المصرية كانت تتبعها الكنائس الأفريقية. وكان العصر المملوكى ازهى عصور تلك العلاقات منذ بدأت إلى عصرنا الحديث. ويرجع الفضل فى نمو العلاقات المختلفة إلى انتشار الاسلام وازدهار التجارة حيث تتحكم المصالح المتبادلة فى تحسين العلاقات.

كما تبين ان انتشار الاسلام فى كثير من الأقاليم الافريقية نتيجة للنشاط التجارى هذا إلى أن التجار المسلمين لم يستطيعوا اختراق الغابات الاستوائية نظرا لاختلافها عن بيئتهم الصحراوية وصعوبة طبيعتها لذلك لم ينتشر الاسلام فى تلك الجهات واعتقد أنه لو تمكن التجار المسلمون من اختراق تلك الغابات لنشروا الاسلام بتلك المناطق الاستوائية وورائها جنوبا .

وقد جاء ازدهار كثير من المدن الافريقية فى العصور الوسطى نتيجة للنشاط التجارى فى تلك العصور فلم توجد مدن كبرى إلا على امتداد الطرق التجارية وعند اندثار طريق أو تحول التجارة عنه كانت بالتالى تندثر المدن التى على هذا الطريق أو تأفل .

وإذا كان بعض الكتاب الأوربيين قد حاول تصوير العرب تجارا للرقيق ووصفهم بالقسوة فقد اتضح أن الذين كانوا يقومون بجلب الرقيق إلى الوطن العربى ليسوا هم العرب، بل كان هؤلاء هم أهل البلاد من الافريقيين كما اتضح تناقض أقوال الكتاب فى قسوة التجار العرب وقد اتضح ان القسوة لم تكن من سماتهم وذلك من خلال كتابة الكتاب الأوربيين وإظهار تناقضهم وربما يظهر التناقض فى نفس الكتاب كما حدث فى كتاب بوركهارت .

كما أن العلاقات المصرية الافريقية لم تكن قاصرة على التبادل التجارى أو الثقافى فقط بل امتدت إلى الصناعة حيث أخذت بعض الدول الأفريقية طرق صناعة بعض المواد من مصر وخاصة صناعة النسيج وتفوقت فيها .

وترتب على النشاط التجارى لدولة المماليك مع الدولة الأفريقية وغير الأفريقية من الأقاليم الموسمية ان ازداد حجم التبادل التجارى بين سلطنه المماليك وبعض القوى التجارية الأوربية، لأن حاصلات الأقاليم الحارة وخاصة التوابل كانت تصادف قبولا كبيرا فى تلك العصور فى أوربا .

وقد أدى تخوف دولة المماليك من القوى الأوربية المسيحية وخاصة فى ذيول الحروب الصليبية إلى حرصهم على عدم معرفة الأوربيين بمصدر الحاصلات الموسمية ومنعهم من تجاوز القاهرة جنوبا وجعل البحر الأحمر بحرا اسلاميا بالإضافة إلى المحيط الهندى الذى تحكم فيه المسلمون .

وأخيرا أرجو من الله أن أكون قد وفقت لبعض الجديد.

ملاحق
وثائق دير سانت كاترين

مرسوم رقم ٦٢

فى عهد السلطان قايتباى

التاريخ ٦ ربيع الثانى سنة ٨٧٩هـ

مادة الكتابة ورق

الأبعاد ١٣٦ × ١٧ سم

عدد الأسطر ٢٥

الموضوع :

مرسوم صادر من السلطان قايتباى إلى الشاد والناظر والمباشرين ببندر الطور لمنع من يتعرض لأحواش الرهبان سواء بسكناها أو وضع بهار بها إلا برضائهم وقد أصدر هذا المرسوم بناء على شكوى الرهبان بالدير.

١- الاسم الشريف

٢- مرسوم شريف بأن يتقدم كل واقف من الشاد والناظرين والمباشرين وأرباب الدرك .

٣- ببندر الطور المعمور أعزهم الله تعالى باعتماد ما رسم لهم فى هذا المرسوم الشريف.

٤- والعمل به على ماشرح فيه

٥- بسم الله الرحمن الرحيم

٦- رسم بالأمر الشريف العالى المولوى.

٧- قايتباى .

٨- السلطان الملكي الأشرفي السيفي.

٩- أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه أن يسطر هذا .

١٠- المرسوم الشريف إلى كل واقف عليه من الشادين والناظر[١] والمباشرين وأرباب الادراك .

١١- ببندر الطور المعمور أعزهم الله تعالى نعلمهم أن الرهبان بدير طور سينا .

١٢- رفعوا قصة[٢] لموافقنا الشريفة أنهوا فيها أنهم ضعفا الحال.

١٣- ومنقطعون بديرهم وعليهم كلف ومون المترددين ولهم ببندر الطور.

١٤- أحواش يسكنون بها التجار ولهم بعض (نخيل) وثم من يشوش عليهم ويسكن في .

١٥- أحواشهم ويحط فيها بهار من غير رضاهم وأضر ذلك بما لهم ومرسومنا .

١٦- لهم أن يتقدموا بعدم التعرض الى أحواشهم (ونخيلهم) وأن أحدا لايسكن.

١٧- فيها ولايحط فيها بهار إلا بخاطرهم بأجرة معلومة وعملا بالعدل .

١٨- قولا واحدا والمراسيم الشريفة توكد في ذلك غاية التأكيد فيعتمدوه والله موفقهم .

١٩- ان شاء الله تعالى.

٢٠- كتب في سادس شهر ربيع الآخر.

٢١- سنة تسع وثمانماية.

٢٢- حسب المرسوم الشريف.

٢٣- والحمد الله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

٢٤- حسبنا الله ونعم الوكيل.

٢٥-

---

(١) ناظر وجمعه نظار وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركو الوزير في تصريف أعماله وقد تنوعت القاب النظار حسب الأعمال التي قامو بها . سعيد عاشور ، العصر المماليكي، ص٤٤٦ .

(٢) القصة وهي ترفع إلى ولاة الأمور بحكاية صورة الحال المتعلق بتلك الحاجة وسميت قصصا على سبيل المجاز من حيث أن القصة اسم للمحكي في الورقة لنفس الورقة لا لنفس الورقة وربما سميت في الزمن القديم رقاعا لصغر حجمها أخذا من الرقعة في الثوب .

القلقشندي، صباح الأعشى ، جـ٦ ، ص٢٠٢ .

مرسوم رقم ٦٦

فى عهد السلطان قايتباى.

التاريخ ١٩ رجب سنة ٨٩١هـ.

مادة الكتابة ورق.

الأبعاد ١٣٦ × ١٧ سم.

عدد الأسطر ٣٢ .

الموضوع :

مرسوم صادر من عهد السلطان قايتباى الى العربان والشاد والناظر ببندر الطور لمنع وتهديد من يتعرض للرهبان بالأذى والضرر بغير الطريق الشرعى.

١- الاسم الشريف.

٢- مرسوم شريف إلى كل واقف عليه من المباشرين والشادين والمتصرفين والناظر.

٣- بالطور المبارك أعزهم الله تعالى باعتماد ما تضمنه هذا المرسوم الشريف والعمل به.

٤- على ما شرح فيه.

٥- بسم الله الرحمن الرحيم.

٦- رسم بالأمر الشريف العالى المولوى.

٧- قايتباى.

٨- السلطان الملكى الاشرفى السيفى.

٩- أعلاه الله تعالى وشرفه وأنقذه فى الآفاق وصرفه.

١٠- أن يسطر هذا المرسوم الشريف إلى كل واقف عليه من العربان ومن المباشرين والناظرين.

١١- والشادين والمتصرفين بالطور المبارك أعزهم الله تعالى نعلمهم أن قصة .

١٢- رفعت بأبوابنا الشريفة باسم رهبان دير طور سينا أنهوا .

١٣- فيها أنهم صعاليك ومنعزلين بديرهم ومنهم عميان ومكسحين .

١٤- وقايمين بالواردين عليهم من المسلمين من المنقطعين وغيرهم من الأكل.

١٥- والزوادة وليس لهم ما يقوم بأودهم إلا من هبات النصارى.

١٦- ولهم أحواش وحواصل بالطور ويخزنوا بهار الحواصل الشريفة.

١٧- ولهم عالم يصرفوا عليهم كل حاصل أربعة أشرفية وبيدهم مراسيم شريفة .
١٨- تشهد لهم بذلك مستمرة الحكم إلى آخر وقت ومرسومنا لهم أن.
١٩- يقوموا بالحمل فى ذلك على ما بيدهم من المراسيم الشريفة المستمرة الحكم.
٢٠- إلى آخر وقت واجرا بهم على عاداتهم المستمرة ومنع من يتعرض إليهم.
٢١- بغير طريق شرعى والوصية بهم وكف أسباب الأذى والضرر عنهم ومعاملتهم.
٢٢- (بالمعدلة) الشريفة قولا واحدا وأن أجاز ما من غير رجعة ولاتهاون فى.
٢٣- ذلك ومراسينا الشريفة تؤكد بذلك غاية التأكيد فليعتمد هذا المرسوم.
٢٤- الشريف كل واقف عليه وناظر إليه وليعمل بحسبه ومقتضاه والاعتماد فى.
٢٥- ذلك على الخط الشريف أعلاه الله تعالى وحجه بمقتضاه.
٢٦- إن شاء الله تعالى.
٢٧- تاسع عشر شهر رجب المفرد.
٢٨- سنة أحد وتسعين وثمانماية.
٢٩- حسب المرسوم الشريف.
٣٠- الحمدالله وحده وصلواته على ساير الأنبياء والمرسلين .
٣١- حسبى الله ونعم الوكيل.
٣٢

مرسوم رقم ٧١

فى عهد السلطان قايتباى.

التاريخ ٧ شوال سنة ٨٩٤هـ.

مادة الكتابة ورق.

الأبعاد ٢١٠ - ١٧سم.

عدد الأسطر ٣٣ + ٤ .

الموضوع :

مرسوم صادر من عهد السلطان قايتباى إلى النواب والحكام والشادين والمباشرين ببندر الطور وغيره لمنع من يتعرض الرهبان فى أحواشهم وحواصلهم ومنع أى فرد من وضع بضائع فى أحواشهم إلا إذا دفع الأجر المقرر لذلك وهو ستة دراهم عن كل حمل.

الوجـه

١- الاسم الشريف .

٢- مـرسـوم شـريف بأن يتـقـدم كل واقف عليـه من النواب والحكام والشـادين والمباشرين وأرباب.

٣- الادراك ببندر الطور المبارك وغيره أعزهم «الله تعالى» باعتماد ما تضمنه هذا .

٤- المرسوم الشريف والعمل به على ما شرح فيه .

٥- بسم الله الرحمن الرحيم.

٦- رسم بالأمر الشريف العالى المولوى.

٧- قايتباى .

٨- السلطان الملكى الأشرفى السيفى.

٩- أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه فى الأفاق وصرفه.

١٠- أن يسطر هذا المرسوم الشريف إلى كل واقف عليه من النواب.

١١- والحكام والشادين والمباشرين وأرباب الادراك ببندر الطور المبارك وغيره .

١٢- أعزهم الله تعالى نعلمهم أن قصة رفعت بأبوابنا الشريفة باسم جماعة الرهبان .

١٣- بدير طور سينا أنهوا فيها أنهم صعاليك ومنهم عميان.

١٤- ومكحسين ومنقطعين بديرهم وقايمين بالواردين عليهم من المنقطعين .

١٥- وغيرهم من المسلمين وليس لهم ما يقوم بأودهم إلا من صدقات النصارى.

١٦- ولهم أحواش وحواصل ببندر الطور المبارك يخزن فيهم.

١٧- بهار الذخيرة الشريفة ويستأدوا من ذلك الأجر لأجل مساعدتهم على.

١٨- قيام حالهم وهم مستمرين بقرض الأجرة عن (كلفة) وثم من يحضر إلى .

١٩- الطور المذكور قمحا وفولا ودقيقا وحبوبا ولم يعطوهم أجرة.

٢٠- الحواصل والأحواش فيحصل لهم بواسطة ذلك غاية الضرر.

٢١- لعدم خزن البهار وقد تضرروا من ذلك ومرسومنا لهم أن.

٢٢- يتـقدمـوا بمنع من يتـعرض إليـهم فى الحـواصل والأحواش (المذكورة) بغـير طريق شرعى.

٢٣- وأن كل من يحط فى أماكنهم المذكورة يوصلهم الأجرة.

٢٤- عن كل حمل ستة دراهم على ما جرت به العوايد بالبندر المذكور.

٢٥- وعملا بالمعدل والانصاف قولا واحدا وأمرا جازما من غير رجعة.

٢٦- ولاتهاون فى ذلك ومراسيمنا الشريفة تؤكد فى ذلك غاية التأكيد.

٢٧- فليعلموا ذلك والله الموفق عنه وكرمه.

٢٨- ان شاء الله تعالى.

٢٩- سابع شهر شوال المكرم.

٣٠- سنة أربعة وتسعين وثمانمائة.

٣١- حسب المرسوم الشريف.

٣٢- الحمدالله وحده وصلواته على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم.

٣٣-

الظهر

١- هذا مثال شريف إلى كل واقف عليه بالطور بمنع من يتعرض إلى .

٢- جماعة الرهبان بدير طور سينا وأن يجروهم فى أجرة حواصلهم وأحواشهم .

٣- على ما جرت به العادة على الحكم والعدل والانصاف على ما شرح فى باطنه.

٤- (.....)[1] سابع شهر شوال المكرم سنة أربعة وتسعين وثمانماية.

مرسوم رقم ٧٥

فى عهد السلطان قايتباى.

التاريخ ١٦ جمادى الأول سنة ٨٩٢هـ.

مادة الكتابة ورق.

الأبعاد ١٩٠ × ١٦,٥سم.

عدد الأسطر ٣٢ .

الموضوع :

مرسوم صادر فى عهد السلطان قايتباى إلى الشاد والمباشرين وأرباب الادراك بالطور بناء على شكوى من الرهبان من أنه يثقل عليهم كلما وصل بهار للذخيرة الشريفة فتأخذ حواصلهم ويخزن فيها البهار وينص المرسوم على أن كل من كان له حاصل سواء من المسلمين أو النصارى يخزن فيه البهار على ما جرت به العادة من غير حيف ولاشطط .

---

(١) كلمة غير واضحة

١- الاسم الشريف.
٢- مرسوم شريف إلى كل واقف عليه من مجلس الأمير الأجل علاه الذى (على) الشاد .
٣- ببندر الطور المعمور والمباشرين وأرباب الدرك به أعزهم الله تعالى باعتماد .
٤- ما تضمنه هذا المرسوم الشريف والعمل به على ما شرح فيه.
٥- بسم الله الرحمن الرحيم.
٦- رسم بالأمر الشريف العالى المولوى.
٧- قايتباى .
٨- السلطان الملكى الأشرفى السيفى.
٩- أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه فى الآفاق وصرفه.
١٠- أن يسطر هذا المرسوم إلى كل واقف عليه من .
١١- مجلس الأمير الأجل (علاى) الذى على الشاد بالطور والمباشرين.
١٢- وأرباب الادراك أعزهم الله تعالى تعلمهم أن قصة رفعت.
١٣- بأبوابنا الشريفة بأن جماعة الرهبان المنقطعين بدير طور سينا .
١٤- انهوا فيها انهم صعاليك ومنقطعين بديرهم ولم يكن لهم ما يقوم.
١٥- بأودهم وأنهم قايمين بالواردين عليهم من المنقطعين وغيرهم من المسلمين.
١٦- ولهم ببندر الطور حواصل ولغيرهم من المسلمين والنصارى.
١٧- وكلما وصل للبندر بهار للذخيرة الشريفة فيثقلون على الرهبان.
١٨- المذكورين ويأخذوا منهم أماكنهم المذكورة ويخزنوا فيهم.
١٩- البهار المذكور فيحصل لهم بواسطة ذلك تعطيل أجرتهم وأضر ذلك بحالهم.
٢٠- ومرسومنا لهم أن يتقدموا بأن كل من له حاصل من المسلمين والنصارى.
٢١- يخزن فيها البهار المذكور على العادة من غير حيف على.
٢٢- أحد ولاشطط والأجر فى ذلك على جارى العادة قولا.
٢٣- واحدا وأمرا جازما من غير رجعة ولاتهاون فى ذلك والوصية بهم.
٢٤- وكف أسباب الأذى والعذر عنهم ومعاملتهم بالمعدلة الشريفة.
٢٥- ومراسيمنا الشريفة تؤكد فى ذلك غاية التأكيد فليعلموا ذلك والله الموفق .
٢٦- إن شاء الله تعالى.

٢٧- في سادس عشر جمادى الأولى.

٢٨- سنة اثنين وتسعين وثمانماية.

٢٩- حسب المرسوم الشريف.

٣٠- الحمدالله وحده وصلواته على سيدنا محمد وصحبه وسلم.

٣١- حسبنا الله ونعم الوكيل.

٣٢-

اعتمدت فى قراءة الكلمات الموضوعة بين قوسين على:

١- رسالة السيدة/ زينب محمد هنا وعنوانها «التطور الدبلوماسى لمراسيم ديوان الانشا» وقد أفادتنى تلك الرسالة افادة كبرى فى معرفة طريقة الوثائق فى العصر المملوكى.

٢- كتاب Hans ERNST, Die Mamlukis Sultansurkunden.

قائمة باسماء المصادر والمراجع

أولا : الوثائق[1] (وثائق دير سانت كاترين)

مسلسل	رقم الوثيقة	تاريخها	بياناتها
(١)	٦٢ مرسوم	٦ ربيع ثانى ٨٧٩هـ	١٧×١٣٦سم ورق
(٢)	٦٦ مرسوم	١٩ رجب ٨٩١هـ	١٧×١٣٦سم ورق
(٣)	٧١ مرسوم	٧ شوال ٨٩٤هـ	١٧×٢١٠ سم ورق وجهين
(٤)	٧٥ مرسوم	١٦ جمادى الأولى ٨٩٢هـ	١٩٠× ١٦,٥ سم ورق

ثانيا : المصادر

(أ) المخطوطات

١- ابن الأثير الجزرى ت ٦٣٠هـ

تحفة العجائب وطرفة الغرائب ، جزءان دار الكتب ٤٩٩ معارف .

٢- ابن اياس (محمد بن أحمد) ت ٩٣٠هـ

نزهة الأمم فى العجائب والحكم بجامعة القاهرة برقم ٢٢٩٦٣ .

٣- ابن حجر (أحمد بن على العسقلانى ت ٨٥٢هـ)

إنباء الغمر بأنباء العمر ، الجزء الثانى دار الكتب ٢٤٧٦ .

٤- ابن حوقل (ابن القاسم محمد النصيرى)

صورة الأرض وصفة أشكالها ، جزءان دار الكتب ٢٥٨ .

٥- ابن زنبل(أحمد بن على الرمال المحلى الشافعى)

---

(١) اعتمدت على النسخة الموجودة لدى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب من صور هذه الوثائق ، وقد اعطيتها نفس الأرقام التى على النسخة المصورة التى استخدمتها .

تاريخ ابن زنبل ، جامعة القاهرة ٢٦٤١٥ .
٦- ابن ظهيرة
الفضائل الباهرة ، جامعة القاهرة ٢٤٠٢٢ .
٧- الخالدى (بهاء الدين)
المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الانشا، جامعة القاهرة ٢٤٠٤٥ .
٨- العمرى (ابن فضل الله ت ٧٤٢هـ)
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار الجزء الثانى ميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ١٤ .

ب - المصادر المطبوعة والمحققة

١- ابن الأثير الجزرى (على بن أحمد بن أبى الكرم)
تاريخ الكامل ١٢ جزء بولاق ١٢٧٤هـ .
٢- الاصطخرى (أبى اسحاق ابراهيم بن محمد الفارس) ت٣٥٠هـ
المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى ، القاهرة ١٩٦١ .
٣- ابن الاكفانى «محمد بن ابراهيم بن ساعد الأنصار فى السنجارى» ت ٧٤٩هـ
نخب الذخائر فى أحوال الجواهر نشر الأب انستاس مارى الكرملى البغداد، مصر ١٩٣٩ .
٤- ابن اياس «محمد بن أحمد» ت ٩٣٠هـ
- تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور فى وقائع الدهور، ثلاثة أجزاء بولاق ١٣١٢هـ .
- نشق الأزهار فى عجايب الأقطار طبع باريس بدون تاريخ.
٥- ابن خرداذبة «أبى القاسم عبدالله» ت ٣٠٠هـ
المسالك والممالك نبذة من كتاب الخراج .
لأبى الفرج قدامة بن جعفر ت ٣٢٠هـ طبع بغداد بدون تاريخ .
٦- ابن بطوطة «عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتى «ت ٧٩٩هـ
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
جزءان طبعة ثانية مصر ١٩٢٨، تاب التحرير ١٩٦٦ .

٧- ابن البيطار «ضياء الدين أبى محمد الأندلسى المالقى»
الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، القاهرة ١٢٩١هـ .
٨- ابن تغرى بردى «جمال الدين أبى المحاسن» ت ٨٧٤هـ
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة دار الكتب ١٩٢٩م .
٩- ابن جبير
رحلة ابن جبير ، تحقيق د. حسين نصار ، القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .
١٠- ابن حجر «شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على العسقلانى » ت ٨٥٢
- فتح البارى بشرح البخارى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٩ .
- إنباء الغمر بانباء العمر تحقيق د. حسن حبشى (الجزء الأول) القاهرة ١٩٦٩م .
١١- ابن حوقل «ابى القاسم محمد النصيبى » ت أواخر القرن الرابع الهجرى
صورة الأرض الجزء الأول طبعة ثانية ليدن ١٩٣٨ .
١٢- ابن دقماق «محمد بن أيدمر العلائى ت ٨٠٩هـ
الانتصار بواسطة عقد الأمصار، الجزئين الرابع والخامس .
طبعة أولى بولاق ١٣١٠هـ- ١٨٩٣م .
١٣- ابن رستة (على أحمد بن عمر)
الأعلاق النفيسة ، المجلد السابع، ليدن ١٩٦٧ .
١٤- ابن خلدون
(أ) العبر وديوان المبتدأ والخبر، سبعة أجزاء بولاق ١٣٨٤هـ .
(ب) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا .
تعليق محمد بن تاويت الطنجى القاهرة ١٣٧٠هـ- ١٩٥١م .
١٥- ابن سعيد المغربى ت ٦٨٥هـ
- بسط الأرض فى الطول والعرض تحقيق د. خوان قرنيط قطران ١٩٥٨م
- المغرب فى حلى المغرب الجزء الأول من القسم الخاص بمصر تحقيق د. زكى محمد حسن- د. شوقى ضيف - د. سيدة الكاشف مصر ١٩٥٣م .

١٦- ابن عبد الحكم «أبى القاسم عبد الرحمن بن عبداله» ت ٢٥٧هـ
فتوح مصر وأخبارها ليدن ١٩٣٠هـ .
١٧- ابن الفرات «ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم» ت ٩٠٧هـ
تاريخ ابن الفرات المجلدات ٧ ، ٨ ، ٩ .
تحقيق د. قسطنطين رزيق ، د. نجلاء عز الدين .
١٨- العمرى «ابن فضل الله» ت ٧٤٢هـ
- التعيرف بالمصطلح الشريف مصر ١٣١٢هـ .
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار الجزء الأول .
تحقيق أحمد زكى ، مصر ١٣٤٢هـ- ١٩٢٤م .
١٩- ابن الفقيه «أبوبكر أحمد بن إبراهيم الهمذانى»
مختصر كتاب البلدان ليدن ١٣٠٢هـ .
٢٠- ابن قدامة «أبى محمد عبدالله بن أحمد بن محمد » ت ٦٢٠هـ
المغنى عشرة أجزاء - القاهرة بدون تاريخ .
٢١- ابن ماجد «شهاب الدين أحمد»
الفوايد فى أصول البحر والقواعد باريس ١٩٢٣ .
٢٢- ابن مماتى «الأسعد » ت ٦٠٦هـ- ١٢٠٩م .
قوانين الدواوين تحقيق د. عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٢م .
٢٣- ابن الوردى «سراح الدين أبى حفص»ت ٧٤٩هـ
خريدة العجايب وطرفة الغرايب مصر ١٣٧٦هـ .
٢٤- أبوشامة «عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان» ت ٦٦٥هـ
الروضتين فى أخبار الدولتين جزءان مصر ١٢٨٧هـ .
٢٥- الناصرى «أبوالعباس أحمد بن خالد»
الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى أربعة أجزاء الدار البيضاء ١٩٥٤ .
٢٦- أبوحامد الأندلسى «محمد بن عبدالرحيم» ت ٥٦٥هـ
تحفة الألباب ١٩٢٥م .

٢٧- أبوالفدا «اسماعيل بن محمد بن عمر» ت٧٣٢هـ
تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ .
٢٨- أبومخرمة «أبى محمد عبدالله الطيب بن عبدالله»
تاريخ ثغر عدن ، الجزء الثانى، ليدن ١٩٣٦ .
٢٩- ابن أبى الضياف «أحمد»
اتحاف أهل الامارة بأخبار ملوك تونس وعهد الامان، تونس ١٩٦٣ .
٣٠- الادريسى «أبوعبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس » ت ٥٦٠هـ
صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ليدن ١٨٦٦ .
٣١- البغدادى «عبداللطيف»
الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، المانيا ١٧٨٩ .
٣٢- البكرى «أبى عبيدالله بن عبدالعزيز» ت ٤٨٧هـ
المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك غير مذكور مكان الطبع أو تاريخه .
٣٣- البلاذرى «أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى»
فتوح البلدان غير مذكور مكان الطبع ١٩٠٠م .
٣٤- البيرونى «أبى الريحان محمد بن أحمد الخوارزمى» ت٤٤٠هـ
الآثار الباقية عن القرون الخالية بدون مكان طبع وتاريخ .
٣٥- الدوادار «بيبرس» ت ٧٢٥هـ
زبدة الفكر فى تاريخ الهجرة ، الجزء التاسع .
تحقيق زبيدة محمد عطا ، رسالة دكتوراه غير منشورة القاهرة ١٩٧٢ .
٣٦- الدمشقى «أبى الفضل جعفر»
الاشارة إلى محاسن التجارة ، القاهرة ١٣١٨هـ .
٣٧- الدمشقى «شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أبى طالب الأنصارى» ت ٧٢٧هـ .

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، نشر مكتبة المثنى ببغداد .
طبع بطربورغ ١٢٨١هـ- ١٨٦٥م .

٣٨- زين الدين (الشيخ)
تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين، لشبونه ١٨٩٨ .

٣٩- السخاوى «شمس الدين محمد بن عبد الرحمن» ت ٩٠٢هـ
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع، الجزء السادس، القاهرة ١٣٥٤هـ

٤٠- السعدى «عبد الرحمن بن عبدالله بن عمران»
تاريخ السودان نشر أ. هوداس، انخن، ١٨٩٨م .

٤١- كاتب مراكش مجهول
الاستبصار فى عجائب الأمصار ، د. سعد زغلول ، الاسكندرية ١٩٥٨م .

٤٢- الشريشى «أبى العباس أحمد بن عبد المؤمن»
شرح المقامات الحريرية ، مجلدان ، مصر ١٣٠٦هـ .

٤٣- طافور
رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى .
ترجمة وتقديم د. حسن حبشى، مصر ١٩٦٨ .

٤٤- الظاهرى «غرس الدين خليل بن شاهين» ت ٨٧٣هـ
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بولس راويس باريس ١٨٩٤ .

٤٥- عبد الواحد المراكشى
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م .

٤٦- العبدرى «أبى عبدالله محمد بن محمد»
الرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسى الرباط ,١٩٦٨

٤٧- لسان الدين بن الخطيب
أعمال الأعلام ، (القسم الثالث منه ويشمل تاريخ المغرب فى العصر الوسيط) تحقيق د. أحمد مختار العبادى والأستاذ محمد إبراهيم الكتانى ، الدار

البيضاء ١٩٦٤ .
٤٨- القلقشندى «ابن العباس أحمد» ت ٨٢١هـ
- صبح الأعشى، ١٤ جزء ، القاهرة ١٣٣١هـ- ١٩١٣م.
- ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، تحقيق محمود سلامة، القاهرة ١٣٢٤هـ- ١٩٠٦م.
٤٩- المالقى الأندلسى «أبى عبدالله محمد بن أبى محمد السقطى»
فى أداب الحسبة ، باريس ١٩٣١ .
٥٠- المالكى «أبوبكر عبدالله بن أبى الله » ، ت٤٣٨
رياض النفوس نشر د. حسين مؤنس الجزء الأول مصر ١٩٥١ .
٥١- محمد الواقدى ت ٢٠٧هـ
فتوح أفريقية ، الجزء الأول تونس ١٣١٥هـ .
٥٢- محى الدين بن عبدالظاهر ت ٦٩٧هـ- ١٢٩٢هـ
تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور .
تحقيق د. مراد كامل القاهرة ١٩٦١م
٥٣- المسعودى «أبى الحسن على بن الحسين » ت ٣٤٦هـ
- التنبيه والاشراف ، ليدن ١٩٦٧م .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان مصر ١٩٤٦م .
٥٤- المقدسى «شمس الدين أبى عبدالله محمد ابن أحمد»
أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٦٧ .
٥٥- المقريزى «تقى الدين أحمد بن على بن عبدالقادر» ت ٨٤٥
- الالمام بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الإسلام ، مصر ١٨٩٥م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، أربعة أجزاء .
الجزء الأول والرابع طبعة النيل عام ١٣٢٤هـ ، الجزئين الثانى والثالث طبعة دار التحرير عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ .
- الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك .

تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ .

– البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب .

تحقيق د. عبد المجيد عابدين القاهرة ١٩٦١ .

– السلوك لمعرفة دول الملوك ، حقق الجزئين الأول والثانى د. محمد مصطفى زيادة وحقق د. سعيد عاشور باقى أجزاء الكتاب دار الكتب ١٩٧٣ .

٥٦– ناصر خسرو علوى ت ١٠٠٣م

سفر نامة نقلها إلى العربية د. يحيى الخشاب، ١٣٦٤هـ– ١٩٤٥م .

٥٧– النويرى «شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب » ت ٧٣٢هـ

نهاية الأدب فى فنون الأدب الثمانية عشر جزء الأول ، دار الكتب ١٩٢٩ إلى ١٩٥٥ .

٥٨– مؤلف مجهول

تذكرة النسيان فى أكابر ملوك السودان ، نشر هوداس ، باريس ١٨٩٩ .

٥٩– محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت

تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر هوداس ، باريس ١٩١٣ .

٦٠– ياقوت «شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت الحموى الرومى البغدادى » ت ٦٢٦هـ

– معجم البلدان صححه محمد أمين الخانجى ثمانية أجزاء مصر ١٩٠٦ .

– معجم الأدباء الجزء الخامس ، غير مذكور مكان وتاريخ الطبع .

٦١– يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على ت ١١٠٠هـ

غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى تحقيق .

د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٣٨٨هـ– ١٩٦٨م .

٦٢– اليعقوبى «أحمد بن أبى يعقوبى ابن واضح » ت ٢٩٢هـ

البلدان ، ليدن ١٩٦٧ .

ثالثا - المراجع العربية:

أولا : الكتب العربية

١- إبراهيم على طرخان «دكتور»

- مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠

- الإسلام واللغة العربية فى السودان الأوسط والغربى، القاهرة وبدون تاريخ طبع .

٢- أحمد زكى

قاموس الجغرافية القديمة ، بولاق ١٣١٧هـ- ١٨٩٩ .

٣- أحمد شفيق

الرق فى الإسلام ، بولاق ١٨٩٢م .

٤- أحمد فخرى «دكتور»

مصر الفرعونية ، القاهرة طبعة ثالثة ١٩٧١م .

٥- أحمد كاتب الشونه

تاريخ ملوك السودان تحقيق مكى شبيكة ، الخرطوم ١٩٤٧ .

٦- أحمد عبد الحميد يوسف (دكتور)

مصر فى القرآن والسنة القاهرة ١٩٧٣ .

٧- اسماعيل سرهنك

حقائق الأخبار عن دول البحار جزءان ، القاهرة ١٣١٢هـ .

٨- أمين واصف

الفهرست معجم الخريطة التاريخية للمالك الإسلامية .

تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٣٣٤هـ- ١٩١٦م .

٩- توفيق اسكندر

- نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية ، القاهرة ١٩٥٧ .

- بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، القاهرة ١٩٦١ .

١٠- جمال حمدان (دكتور)

شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان ، القاهرة ١٩٧٠ .
١١- حسن ابراهيم حسن (دكتور)
- انتشار الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى مصر ١٩٥٧ .
- النظم الإسلامية، القاهرة ١٩٦٢ .
- انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، القاهرة ١٩٦٣ .
- تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى أربعة أجزاء القاهرة ١٩٦٧ .
١٢- حسن أحمد محمود (دكتور)
- قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .
- حضارة مصر الاسلامية مصر ١٩٦٠ .
- الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية، الجزء الأول، مصر ١٩٦٣ .
١٣- حسن حسنى عبد الوهاب
ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، تونس ١٩٦٦ .
١٤- حسنين محمد ربيع (دكتور)
النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٤ .
١٥- راشد البراوى (دكتور)
حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة ١٩٤٨ .
١٦- زاهر رياض (دكتور)
الاسلام فى أثوبيا فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٤ .
١٧- زكى محمود حسن (دكتور)
(أ) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٥ .
(ب) فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .
١٨- سعاد ماهر (دكتور)
البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، القاهرة ١٩٦٧ .
١٩- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)
- قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

– أوروبا العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ .

– مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة ١٩٦٢ .

– المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٣٢ .

– الحركة الصليبية ،جزءان ، القاهرة ١٩٦٣ .

– المدنية الاسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية ، القاهرة ١٩٦٣ .

– العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٣ .

– السويس (مدينة السويس ومنطقتها منذ الفتح العربى إلى بداية العصر الحديث) القاهرة ١٩٦٦ .

٢٠– سليم حسن (دكتور)

مصر القديمة ، الجزء العاشر ، مصر ١٩٥٥ .

٢١– سيدة اسماعيل الكاشف (دكتور)

– مصر فى فجر الإسلام ، مصر ١٩٤٧ .

– مصر فى عصر الاخشيدين ، مصر ١٩٥٠ .

– أحمد بن طولون مصر بدون تاريخ .

٢٢– السيد الباز العرينى (دكتور)

مصر فى عصر الأيوبيين ، مصر بودن تاريخ .

٢٣– الشاطر بصيلى عبد الجليل

– تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل ، عطبرة ١٩٥٠ .

– معالم تاريخ سودان وادى النيل ، القاهرة ١٩٥٠ .

٢٤– شوقى الجمل (دكتور)

تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٧١ .

٢٥– صلاح الدين المنجد (دكتور)

مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين، بيروت ١٩٦٣ .

٢٦– فيليب رفلة (دكتور)

العلاقات التاريخية والاقتصادية بين الجمهورية العربية وجمهورية السودان ،

بدون تاريخ مكان ومكان الطبع .
٢٧- عباس محمود العقاد
أثر العرب فى الحضارة الأوربية الطبعة الخامسة ، القاهرة بدون تاريخ .
٢٨- عبد اللطيف أحمد على (دكتور)
مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية، القاهرة ١٩٦٥ .
٢٩- عبد الواحد الامبابى
الإسلام فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٢ .
٣٠- عبد المجيد عابدين (دكتور)
- تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، القاهرة ١٩٥٣ .
- بين الحبشة والعرب ، القاهرة بدون تاريخ .
٣١- السيد عبدالعزيز سالم (دكتور)
المغرب الكبير ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٦٦ .
٣٢- عبد العزيز كامل (دكتور)
جغرافية الاسلام فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٨ .
٣٣- عبد المنعم ماجد (دكتور)
نظم دولة سلاطين المماليك الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٧ .
٣٤- عبد الرحمن زكى (دكتور)
- تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، القاهرة ١٩٦١ .
- الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٥ .
- الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٥ .
- الاسلام والمسلمون فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٧٠ .
٣٥- عبد الرحمن الرافعى- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)
مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغز العثمانى، القاهرة ١٩٧٠ .
٣٦- ليفى بروفنسال

الشرق العربى والحضارة العربية الأندلسية ، قطران ١٩٥١ .
٣٧- محمد جمال الدين مسرور (دكتور)
- الدولة الفاطمية فى مصر ، بدون مكان وتاريخ .
- دولة بن قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .
٣٨- محمد السيد غلاب (دكتور)
السويس (منطقة السويس الجغرافية خلال التاريخ) ، القاهرة ١٩٦٦ .
٣٩- محمد صبحى عبد الحكيم (دكتور)
الجغرافية العامة طبعة ثانية، القاهرة ١٩٧٢ .
٤٠- مكى شبيكة (دكتور)
السودان عبر القرون ، بيروت ١٩٦٥ .
٤١- محمد المعتصم سيد (دكتور)
القاهرة والحضارة والاسلام فى أفريقيا، القاهرة ١٩٦٥ .
٤٢- محمد عوض محمد (دكتور)
- الشعوب والسلالات الافريقية ، القاهرة بدون تاريخ .
- السودان الشمالى سكانه وقبائله ، القاهرة ١٩٥١ .
٤٣- محمد فؤاد شكرى (دكتور) محمد أنيس (دكتور)
أوربا فى العصور الحديثة ، طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٦١ .
٤٤- محمد محمود خطاب السبكى
الدين الخالص ، القاهرة ١٩٥٠ .
٤٥- محمد محمود الصياد (دكتور)
النقل فى البلاد العربية ، مصر ١٩٥٦ .
٤٦- محمد ياسين الحموى
تاريخ الأسطول العربى ، دمشق ١٩٤٥ .
٤٧- نعوم شقير
- تاريخ السودان القديم والحديث ثلاثة أجزاء ، مصر ١٩٠٣ .

- تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، مصر ١٩١٦ .
٤٨- نعيم زكى فهمى (دكتور)
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، مصر ١٩٧٣ .
٤٩- نعيم مداح
أفريقيا المغربية فى ظل الاسلام ، بدون مكان وتاريخ .
٥٠- نقولا زيادة (دكتور)
- الرحالة العرب، مصر ١٩٥٦ .
- الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت وبدون تاريخ .
٥١- يوسف فضل حسن (دكتور)
مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقى، ١٩٧١ .
٥٢- مصطفى محمد مسعد (دكتور)
الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٠ .
المكتبة العربية السودانية ، القاهرة ١٩٧١ .

ثانيا : الكتب المنقولة إلى العربية:

١- آدم متز
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبوريدة جزءان ، طبعة ثانية القاهرة ١٩٤٨ .
٢- سير أرنولد
الدعوة إلى الإسلام نقله إلى العربية د. حسن إبراهيم .
د. عبد المجيد عابدين ، مصر ١٩٤٧ .
٣- جورج فضلوا حورانى
العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى نقله إلى العربية د. السيد يعقوب بكر مصر ١٩٥٨ .
٤- جون لويس بوركهارت
رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة فى السودان ، مصر ١٩٥٩ .

ترجمة فؤاد أندراوس .
٥- جون ولسون
الحضارة المصرية ترجمة د. أحمد فخرى مصر ١٩٥٥ .
٦- سونيا بى. هاو
فى طلب التوابل ترجمة محمد عزيز رفعت ، مصر ١٩٥٧ .
٧- سيجر يدهوتكه (دكتور)
شمس الله على الغرب (فضل العرب على أوربا .
ترجمة د. فؤاد حسنين على ، مصر ١٩٦٤ .
٨- شارل ديلى
البندقية جمهورية ارستقراطية ترجمة .
د. أحمد عزت عبد الكريم، بدون مكان وتاريخ الطبع .
٩- هـ. ايدرس ل.
مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على، محمد عواد حسن ، غير مذكور مكان وتاريخ الطبع.
١٠- هوبير ديشان
الديانات فى أفريقيا السوداء .
ترجمة أحمد صادق حمدى، القاهرة ١٩٥٦ .
١١- وليم موير
تاريخ دولة المماليك فى مصر ، القاهرة ١٩٢٤ .
ترجمة محمود عابدين ، سليم حسن .

رابعا : الدوريات:

(أ) المجلة :

١- عبد الرحمن زكى (دكتور)
- امبراطورية افريقية فى العصر الوسيط، عدد ٤٦ ، أكتوبر ١٩٦٠ .

- مالى بين ماضيها المجيد وحاضرها الناهض ، عدد ٤٩ ، يناير ١٩٦١ .

٢- الطاهر أحمد مكى

- معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر ، عدد ٤٦ ، يناير ١٩٦١ .
- معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر ، عدد ٤٩ ، يناير ١٩٦١ .

(ب) مجلة كلية الآداب:

١- زاهر رياض (دكتور)

اتجاهات مصر الافريقية فى العصور الوسطى مجلد ٢٠ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٨ .

٢- سعاد ماهر (دكتور)

محافظات الجمهورية العربية فى العصر الإسلامى، مجلد ٢١ الجزء الأول مايو ١٩٥٩ .

٣- مصطفى محمد مسعد

البجة والعرب فى العصور الوسطى، مجلد ٢٢ العدد الثانى، ديسمبر ١٩٥٩ .

(ج) مجلة الجمعيات المصرية للدراسات التاريخية

١- ابراهيم على طرخان (دكتور)

غانة فى العصور الوسطى، مجلد ١٣ ١٩٦٧ .

٢- أحمد فخرى (دكتور)

الواحات المصرية فى التاريخ، مجلد مايو ١٩٥١ .

٣- جمال زكريا قاسم (دكتور)

المصادر العربية لشرق أفريقية ، مجلد ١٤ ، ١٩٦٨ .

٤- حسن أحمد محمود (دكتور)

دور العرب فى نشر الحضارة فى غرب أفريقية ، مجلد ١٤ ، ١٩٦٨ .

٥- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، مجلد ١٤ ، ١٩٦٨ .

٦- صبحى لبيب (دكتور)

التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، مايو١٩٥٢ .

٧- نظير حسان سعداوى (دكتور)

دولة البرين والبحرين ، مجلد ١٣، ١٩٦٧ .

٨- يوسف فضل حسن (دكتور)

المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان مجلد ١٣ ١٩٦٧ .

(د) المجلة المصرية للعلوم السياسية:

١- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

- الحصار الاقتصادى على مصر زمن الحروب الصليبية ، عدد ١٩، أكتوبر ١٩٦٢ .

- مركز مصر فى التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى ، عدد ٢١ ، ديسمبر ١٩٦٢ .

(هـ) المقتطف:

١- أحمد زكى

صفحة من تاريخ التجارة المصرية ، أكتوبر ١٩١٧ .

٢- قسطنطين زريق (دكتور)

التجارة الاسلامية ، ديسمبر ١٩٣٥ .

٣- التميمى (ى.ر.)

النظم والطرق التجارية بين الشرق والغرب قبل الحربو الصليبية ، ١٩٤١ .

٤- نقولا زيادة (دكتور)

رواد الشرق العرب فى العصور الوسطى سبتمبر، أكتوبر ١٩٤٣ .

رابعا : الرسائل العلمية غير المنشورة:

١- ابراهيم محمد حسن

الإمام أحمد بن ابراهيم الصومالى وفتوح الحبشة .

رسالة ماجستير من معهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة ١٩٧٣ .

٢- حامد عمار
علاقات مصر بالبلاد الافريقية فى العصور الوسطى .
رسالة ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٤٥ .
٣- سر الختم عثمان على
العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى .
رسالة ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة .
٣- سليمان عطية
سياسة المماليك فى البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برسباى .
رسالة دكتوراه من كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٥٩ .
٥- قاسم عبده قاسم
نهر النيل وأثره فى الحياة المصرية على عصر سلاطين المماليك .
رسالة ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٢ .
٥- زينب محمد هنا
التطور الدبلوماسى لمراسيم ديوان الانشاء بدير سانت كاترين من القرن الخامس الى العاشر الهجرى- رسالة ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٠ .
٦- محمود محمد على الحويرى
أسوان فى العصور الوسطى .
رسالة ماجستير من كلية الآداب- جامعة القاهرة ١٩٧٢ .

1- Archubald R. Lewis
Naval . Power and trade in the mediterranean Sea A.D. 500 to 1100, New Jersey 1951.
2- Arkell A.J.
A History of the Sudan from the Earliest times to 1821, London 1955.
3- Bovill- E.W.
A- Caravans of the old SAHARA, London 1953.
B- The Golden Trade of the Moors, London 1950.

4- Dopp. P.H.

L'Egypte au commencement du quinzième siècle, Le Caire 1950

5- hans. E.

Die Mamlukis- chen Sultanswrkunden des sinai-, klosters 1960.

6- Heyd - W.

Histoire du commerce du le levant au moyen age, (2 vols), leipzig 1923 .

7- Klunzinger. M. D

Upper Egypt its People and its Products, London 1878 .

8- Fournel. M.

La tripolitaine les routes du soudan, Paris 1887.

9- Jevtzion N.

The thirteenth and fourteenth century kings of Mali.

(The Journal of African History) vol IV, Part 3, 1963 pp. 341-353.

10- Muir (W)

The Mameluke, Amsterdam 1968

11- Robert. M.H.

Les Relations Commercials entre l'Europe et l'Afrique du Nord du XII au X IV siècle .

12- Trimingham J.S.

A- The Influence of ISLAM upon Africa .

B- Islam in the Sudan, London 1949.

13- Ziada M.M.

Foreign Relations of Egypt in the fifteenth century 1422-1514, Two Parts.

LIVERPOOL .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١١٨٩٧ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 241 - 9)

إن للتجارة التأثير الأوفى فى حياة الأمم نمواً أو تدهوراً ، وهذا الكتاب مرآة صادقة لهذا القول ؛ فمصر شهدت الحالتين معاً فى العصر المملوكى .

إن مصر نافذة العالم التجارية التى يطل منها على مختلف السلع ، آخذاً احتياجاته ، وذلك نظراً لما تمتعت به السياسات التجارية من مراعاة لمصالح المنتج والمستهلك ، وانعكس ذلك على التقدم الذى شهدته مصر فى هذه الحالة . ولما عمد الحكام إلى مشاركة الناس فى معايشهم بل والاستيلاء عليها واحتكارها تدهورت البلاد وذالت دولتهم .

وبالنظر إلى هذه الصورة وما يحدث الآن نعرف إلى أين نتجه .

